

أشواق النهضة والانبعاث

قراءات في مشروع الأستاذ فتح الله كولن



د. محمد جكيب

دار النيبك

أشواق النهضة والانبعاث

قراءات في مشروع الأستاذ فتح الله كولن



Copyright © 2013 Dar al-Nile

Copyright © 2013 Işık Yayınları

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

حقوق الطبع محفوظة

تصميم وغلاف: مراد عرباجي

رقم الإيداع: ISBN 978-975-315-640-0

DAR AL-NILE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 5221144

Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة، الحي السابع،

مدينة نصر - القاهرة/ جمهورية مصر العربية

هاتف : ٥-٠٢-٤٤٤٠٢٦١٣٤٤٠٢٠٢٠٢

المحمول : ٠٠٢٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnil.com

أشواق النهضة والانبعاث

قراءات في مشروع الأستاذ فتح الله كولن

د. محمد جكيب

دار التبيان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



فهرس

مقدمة ١٣

الفصل الأول:

تركيا في ضوء تاريخ الإصلاح وإشكالاته

المبحث الأول: إشكالية الإصلاح في العالم الإسلامي ٢١

توطئة ٢١

أولا: تركيا في ضوء المعطيات العامة ٢٦

١- أما قبل ٢٦

٢- القاعدة السكانية ٢٩

٣- واقع يغري معرفيا ٣٣

٤- الجماعات الدينية ٣٤

٥- التكوينات الإثنية ٣٨

ثانيا: التنوع الثقافي وسؤال الإصلاح ٤١

توطئة ٤١

١- صنع مجتمع جديد ٤٣

- ٢- اليوم ظل الأمس ٤٦
- ٣- صدمة اكتشاف تفوق أوروبا المسيحية ٥٠
- ٤- عهد الزنبق (عهر التوليب) ٥٤
- ٥- التيارات القومية ٥٧
- المبحث الثاني: الغزو الثقافي الممنهج ٦٤
- أولاً: تمزيق الرابطة الإسلامية ٦٤
- توطئة ٦٤
- ١- الموقع الجيوسياسي ٦٥
- ٢- تطور تاريخ أوروبا الحديث وصدى الثورة الفرنسية ٦٥
- ٣- أطماع أوروبا في العالم الإسلامي ٦٧
- ٤- أنشطة المنظمات الماسونية السريّة ٦٨
- ثانياً: مظاهر الغزو الثقافي ٧٠
- توطئة ٧٠
- ١- السلاطين العثمانيون وقضايا التحديث ٧٠
- ٢- تركيا بعد سقوط الدولة العثمانية ٧٤
- ٣- القطع مع الماضي ومنظومة مجتمعية جديدة ٧٩
- ٤- إعادة قراءة صورة الإسلام في تركيا ٨١
- ٥- الحرب الثقافية على الإسلام ٨٦
- ٦- رفع القيود على الدين ٩١
- ٧- النورسي نموذج المصلح المتفتح ٩٥
- ٨- دعوة فتح الله كولن ١٠٤

الفصل الثاني: الأستاذ فتح الله كولن العالم المفكر

- المبحث الأول: شخصية معرفية متعددة..... ١٠٩
- توطئة..... ١٠٩
- أولاً: التعدد المعرفي في شخصية فتح الله كولن..... ١١٠
- ثانياً: العالم المفكر لا المفكر الأيديولوجي..... ١٢٠
- ثالثاً: مصادر بناء معالم شخصية الأستاذ فتح الله..... ١٢٢
- رابعاً: بطاقة هوية فتح الله كولن..... ١٢٤
- خامساً: الأقدار ترعى الفتى..... ١٢٧
- سادساً: القلوب المطمئنة..... ١٢٨
- سابعاً: والد ووالدة مفعمان بالأمل والقوة..... ١٣٢
- ثامناً: حال اجتماعية متواضعة..... ١٣٦
- المبحث الثاني: رحلة طلب العلم والمعرفة..... ١٣٨
- أولاً: عشق للطلب العلمي والمعرفي..... ١٣٨
- ثانياً: الإسلام الوسطي منهج حياة..... ١٣٩
- ثالثاً: والد وابنه معا في رحلة طلب العلم..... ١٤٠
- رابعاً: شيوخ الأستاذ فتح الله كولن..... ١٤١
- ١- الإمام محمد لطفي أفندي..... ١٤٢
- ٢- الشيخ صدقي أفندي البرّاز..... ١٤٣
- ٣- سعدي أفندي..... ١٤٤
- ٤- عثمان بكتاش..... ١٤٦

خامسًا: عناصر التميز في شخصية فتح الله ١٤٩

الفصل الثالث:

مصادر الإصلاح في رؤية الأستاذ فتح الله كولن

المبحث الأول: أسس الرؤية، ومرتكزاتها ١٥٥

توطئة ١٥٥

أولاً: القرآن في عمق الرؤية ١٥٦

١- نون الجمع وتجاوز حدود الزمان والمكان ١٥٦

٢- الثقافة الذاتية في ضوء معادلة "الإنسان-الكائنات-الله" ١٦٠

٣- جذور الإسلام فوق الزمان والمكان ١٦٢

٤- لكل عصر خصوصيته وشخصيته ١٦٤

٥- حقيقة ارتباط الذات بالتراث ١٦٦

ثانياً: أزمة الشرق وإشكالاته راهنا ١٧٢

١- وظيفة التراث في مشروع فتح الله كولن ١٧٢

٢- القيم أساس متين ١٧٦

٣- أبعاد الثقافة الإجرائية عند الأستاذ فتح الله كولن ١٧٧

٤- ميلاد الهوية في ظل الإسلام ١٨٣

٥- مفهوم جديد للثقافة ١٨٥

المبحث الثاني: المصادر الأساسية للثقافة الذاتية ١٨٧

أولاً: مركزية القرآن في الثقافة الذاتية ١٨٧

ثانياً: أهمية السنة ودورها في رؤية فتح الله كولن ٢٠٠

ثالثاً: الإجماع ٢٠٦

٢٠٧ رابعًا: التصوف وبناء صرح الروح
٢١٥ خامسًا: العقيدة الصحيحة تمنح التوازن
٢١٥	١- العقيدة والفكر الديني في رؤية الأستاذ فتح الله كولن
٢١٨	٢- روح العقيدة روح الإصلاح والانبعث
٢٢١	٣- منهج بسط العقيدة عند الأستاذ فتح الله
٢٢٣	٤- غاية العلم في ضوء العقيدة الصحيحة
٢٣٢	٥- الإلحاد والسقوط
٢٣٧ مسك الختام

الفصل الرابع:

"الخدمة" .. المفهوم النظري والإطار الفكري

٢٤١ المبحث الأول: حركة "الخدمة" .. إشكالية التصنيف والهوية
٢٤١ توطئة
٢٤٢ أولاً: إشكالية تصنيف "الخدمة"
٢٤٥ ثانيًا: بذور الهوية والتاريخ
٢٤٨ ثالثًا: الخدمة والمجتمع المدني
٢٥١ رابعًا: الخدمة ليست جماعة صوفية
٢٥٨ خامسًا: الخدمة نظام اجتماعي جديد
٢٦٥ سادسًا: نموذج حركي جديد في ظل نموذج بشري
٢٧٢ سابعًا: حركة الخدمة وحركة النور
٢٧٧ ثامنًا: إضافات نوعية في العمل الدعوي
٢٧٧	١- البذل والإنفاق

٢٧٨	٢-هيئة المتولي.....
٢٧٩	٣-الاهتمام بالتربية والتعليم.....
٢٨٠	٤-القطاعات المهنية.....
٢٨١	المبحث الثاني: التربية والتعليم مجال الخدمة الحيوي.....
٢٨١	أولاً: التربية والتعليم من المهد إلى اللحد.....
٢٨٤	ثانياً: التربية والتعليم نشاط الخدمة المركزي.....
٢٩١	ثالثاً: كيان الإنسان في ظل الحياة المعاصرة.....
٢٩٢	رابعاً: التربية مدرسة ومدرس.....
٢٩٤	خامساً: مفهوم المدرسة عند الأستاذ فتح الله كولن.....
٢٩٨	سادساً: مرتكزات التربية عند فتح الله كولن.....
٣٠١	سابعاً: التربية الشمولية.....
٣٠٦	ثامناً: من المدرسة النظرية إلى المدرسة العملية.....
	المبحث الثالث: إنسان الحوار والتسامح في ضوء رؤية
٣١٣	الأستاذ فتح الله كولن التربوية.....
٣١٣	أولاً: الخدمة وثقافة الحوار.....
٣١٤	ثانياً: منطلق الحوار، حيز مشترك.....
٣١٧	ثالثاً: الحوار والتسامح تربية لا مبادئ.....
٣١٨	رابعاً: أنوار تركيا تشع على العالم.....
٣٢١	خامساً: صورة مثالية لمهاجر التربية.....
٣٢٩	سادساً: المدارس في البحث العلمي.....

الفصل الخامس:

المثقف العربي وفكر الأستاذ فتح الله كولن الأسئلة وأفق الانتظار

- المثقف العربي وفكر الأستاذ فتح الله كولن ٣٣٣
- أولاً: تركيا والمثقف العربي ٣٣٣
- ثانياً: المثقف العربي يتعرف على فكر الأستاذ فتح الله كولن ... ٣٣٥
- ثالثاً: صدمة الاكتشاف ٣٣٦
- رابعاً: معايير تفاعل المثقف مع شخصية الأستاذ ٣٣٨
- خامساً: القراءة الانطباعية ٣٤٢
- سادساً: خصوصيات المقالة الانطباعية ٣٤٤
- سابعاً: فكر الأستاذ فتح الله كولن في البحث الأكاديمي ٣٤٧
- ١- كتب ودراسات علمية ٣٤٧
- ٢- رسائل جامعية ٣٤٩
- ٣- مؤتمرات وندوات دولية ٣٥٢
- ثامناً: أفق الانتظار المثقف العربي ٣٥٥
- تاسعاً: مأسسة الفكر ٣٥٧
- خاتمة القول ٣٥٨



مقدمة

مسار السعي إلى النهوض والانبعاث في عالم المسلمين، مسار طويل متصل الحلقات، مركب تركيب الواقع الذي كابده والتحديات التي واجهها. فما من شك أن حال الانحطاط الذي عانى منه مجالنا الحضاري على امتداد أزيد من قرنين من الزمان، كان بمنزلة النداء الحزين الذي استحث همم المصلحين وأفكار العلماء والمثقفين في محاولات متتابة للتعامل معه، بقصد إدراك مسبباته وتجاوز آثاره.

ولعل المحطة الأبرز في التاريخ المعاصر الذي اتسم بتلك الحالة إجمالاً، كانت اللقاء القاسي بين التجربة الحضارية للغرب الحديث، المدفوع بقوة منجزه المادي واعتداده بالتفوق التاريخي لنموذجه، وبين عالم المسلمين، في مرحلة من أصعب مراحل تاريخه، حين سرت في أوصاله أدواء الضعف وبدت عليه سمات التراجع الحضاري. ولعل رجّات هذا اللقاء الاضطراري التي لا زالت تتردد في فضائنا المعرفي ومجالنا المجتمعي على السواء، تبين مقدار قوة الصدام الأليم الذي يطلق عليه بعض المفكرين المعاصرين "صدمة الغرب" أو "صدمة الحداثة" أو "صدمة الآخر..".

ولم تكن المحاولات الدؤوبة لتقديم أجوبة ناجعة على أسئلة هذا الواقع، كسؤال النهضة والتحرر والوحدة والتنمية وغيرها من مطالب

أولئك المصلحين، مجرد أفكار طرحت في المجال التداولي المعرفي الإسلامي، ولا حتى رؤى نظرية في تدبير الشأن العام للأمة، شأن تراثنا العلمي والفكري المنتج على مدار قرون خلت. بل إن ما واكب هذه الأطروحات والمشاريع التي ظلت تتغيا بعث مقومات الإحياء في الدائرة الحضارية المسماة عالم المسلمين، من دعوات وحركات واتجاهات اجتماعية للإصلاح أضحى اليوم ميراثا جماعيا غنيا، نحن في أمس الحاجة إلى دقة قراءته وتدبر مآلاته من خلال تناوله بالجهد المناسب من الدراسة والبحث.

ذلك المسار من الآمال العراض في تحقيق النهوض وإصلاح الذات، يبعث المقومات الأساسية لبناء الأمة على أساس من غاياتها الذاتية، لم يعد يمثل اليوم خريطة دقيقة لتطور الظروف التي واجهتها، والعقبات والتحديات التي قابلت مسيرتها فحسب، بل هو في الواقع تاريخ متكامل للأفكار التي أنتجها العقل المسلم في تفاعله مع تلك الظروف والتحديات، وهنا تكمن أهمية مساءلة ذلك المسار بالنظر والتحليل والنقد: أن دراسته تغني رصيد الأمة في سعيها الذاتي من حيث هو حصيلة لجدل الفكر والواقع، وتفاعل الفكرة الإصلاحية مع تحديات كل مرحلة من مراحل تاريخنا الحديث بظروفها ومشكلاتها الخاصة.

وأيما ما تكون المناهج التي شاعت وتعددت في دراسة حركة الإصلاح في عالم المسلمين الحديث، فإنه من الضروري التعامل مع هذا المجال المتشعب من الدراسات، المتصل بحقول علم اجتماع المعرفة، والدراسات الموسوعية للسير، وعلوم المعرفة "الإبستمولوجيا"، وتاريخ الأفكار، والتاريخ الاجتماعي والحضاري وغيرها، بدقة مؤرخي الفكر

وتحري المؤرخ الشاهد، إذ فيه يتحد عمل مؤرخ الفكر مع دارس البيئة المجتمعية بعناصرها ومؤثراتها وخصائصها المميزة.

والعمل الذي بين أيدينا في هذا الكتاب، ينتمي لهذا الصنف من الدراسات، إذ بقدر ما هو إطلالة على التجربة النهضوية والإصلاحية التي انطلقت من المجتمع التركي، فإنه يقدم قراءة من مقتربات متعددة لواحد من أهم المشاريع الإصلاحية التي ميزت ذلك المجال؛ إنه المشروع الإصلاحي للأستاذ محمد فتح الله كولن.

وهو لباحث انكب -كما عرفته- على هذا المجال بالدراسة والبحث منذ سنوات، إن باهتمامه بالكتابة عن رسائل النور والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، أو بدراساته حول الأستاذ فتح الله كولن، مع معرفة بهذه التجربة عن قرب عبر زيارته العديدة لتركيا ولغيرها من البلاد التي تجسدت فيها هذه المدرسة الإصلاحية مشاريع حية لـ"الخدمة".

لقد مثلت المدرسة الإصلاحية الشاملة لأبعاد تربوية وفكرية وحركية، والتي قامت على قواعد المعمار الفكري الغني للعالم والمصلح الأستاذ فتح الله كولن، معلماً أساسياً من معالم ذلك المسار.. مسار آمال النهضة والانبعاث الحضاري في عالم المسلمين اليوم، بل رؤية تجديدية في جوهر خطاب الفكر الإسلامي إلى الدائرة الإنسانية الأوسع. وهو أمر يقتضي إضاءة جوانب التميز في هذه المدرسة من مدخلين متكاملين:

- أولهما يعنى بمستوى تمثل هذه المدرسة للواقع الذي تعاملت معه، واستيعابها له، بل وتجاوزه، زمانيا وفكريا، في كثير من الحالات، وفي دوائره المتعددة محليا وإقليميا ودوليا، استثمارا لعدة نظرية قوامها الاستمداد العميق من عطاءات الوحي، والرؤية الثاقبة في قراءة عناصر

المشهد في تكامله، والدقة في حساب موازينه ومقتضياته. وهو مدخل يمكن أن نسماه البحث العمودي في المدرسة الإصلاحية.

• أما ثانيهما فيسعى إلى أن يوقع هذه المدرسة في سياقها تاريخيا وفكريا، على ضوء ما تمت الإشارة إليه سابقا من اتحاد إمكانات حقول معرفية متعددة، منها على الخصوص علما اجتماع المعرفة وتاريخ الفكر، مما يمكن اعتباره بحثا أفقيا في خصائص المدرسة وعلاقتها، وخاصة تأثيراتها المستقبلية في غيرها من اتجاهات الإصلاح.

ولا شك أن دراسة المشروع الفكري لهذه المدرسة الإصلاحية في موقعه من السياق التاريخي والفكري لحركات الإصلاح، وما أحدثه من نقلات منهجية نوعية، سواء على مستوى العمق الفكري أو الرؤية التربوية أو النموذج القيمي الإنساني، سيفضي بنا إلى نتائج هامة على طريق دراسة شاملة ومستوعبة لهذا المشروع الحضاري الواعد، ويرقى بنا في مدارج إدراكه.

وأحسب أن دراسة هذا المشروع من مشاريع الإصلاح، وموقعه في رهن عالم المسلمين عموما، مهمة جليلة يصلح للتصدي لها أمثال المؤلف الأخ الفاضل الدكتور محمد جكيب من الباحثين الجادين خاصة، ذلك أن هذا النموذج الإصلاحي بالرغم مما توافر لنا من دراسات حوله، اهتم المؤلف بتتبعها وأفرد لبعض نتائجها قوائم في الكتاب، فإنه لا يزال في أمس الحاجة إلى المزيد من التأمل بالعمق الكافي، والتدبر على هدي قواعد منهجية قاصدة، ما فتئت تتضح على ضوء الجهود العلمية التي تبذل في مجالات متعددة المصادر والتخصصات.

والكتاب بما يضمه أولا من إطلاقات على إشكاليات الإصلاح في

عالم المسلمين عامة، وفي تركيا الحديثة خاصة، ومن وقفات مع جوانب متعددة للمقصد الإصلاحية في هذا المشروع ثانياً، هو عمل بالغ الأهمية على هذا السبيل.

والذي يبدو أن هذا العمل سيفتح أمام الباحثين في المشروع الإصلاحي لـ"الخدمة"، المؤسس على المدرسة التربوية والفكرية للأستاذ فتح الله كولن، مجالاً جديداً للنظر في مصادر هذا المشروع الفكرية، سواء تعلق الأمر منها بالمصادر الثقافية والعلمية للأستاذ كولن نفسه، أو بأسس الرؤية الحاكمة لمشروعه، مع استعراض لأهم ما يعده الأستاذ مصادر أساسية لثقافتنا الذاتية.

وقد كان لافتاً ومفيداً بالنسبة لي أن يخص الكاتب مجال التربية والتعليم في "الخدمة" بمبحث خاص، وهو يتناولها بين المفهوم النظري والإطار الفكري، واعتباره هذا المجال "مجال الخدمة الحيوي". فاهتمام الأستاذ فتح الله كولن بهذا المجال تحديداً، إن في تراثه الفكري أو سعيه العملي منذ ستينيات القرن الميلادي الماضي، يكاد يكون قاعدة التكوين المركزية في مشروع "الخدمة"، الذي يرجى منه صناعة الجيل الذهبي المنشود.

والذي أرجوه صادقا، مع المؤلف الأستاذ الدكتور محمد جكيب، أن يكون الكتاب دعوة مستجابة إلى المفكر العربي، ليرقى بمستوى دراسته لما يسمى -بقدر كبير من التعميم- "التجربة التركية"، ودقة رؤيته إليها، من خلال دراسته واهتمامه بهذا المشروع الإصلاحي الهام.. لعله يلامس أفق الانتظارات منه، قيما بواجبه، وأداء لأمانة المعرفة التي تُعلِّمنا خبرات الإصلاح الحديث في عالم المسلمين عامة، وفي المدرسة الإصلاحية

للأستاذ فتح اللك كولن خاصة، أنها أمانة جسيمة، تُبذل في سبيل أداءها الأعمار.. رجاء مشفوعا بالدعاء أن ينتفع القارئ بالكتاب.. وينال الكاتب من الله الجزاء الأوفى، فهو الموفق لكل خير.

د. سمير بودينار

إسطنبول ٢٣/٠٨/٢٠١٣





الفصل الأول:
تركيا في ضوء تاريخ الإصلاح وإشكالاته



المبحث الأول: إشكالية الإصلاح في العالم الإسلامي

توطئة

قضية الإصلاح في العالم الإسلامي، وخاصة في المناطق التي كانت تحت نفوذ الدولة العثمانية، بما في ذلك الدولة العثمانية نفسها قبل سقوطها، قضية تكاد تكون واحدة، نظرا لتشابه معيقاتها التاريخية وتشابه مكوناتها الاجتماعية والثقافية وتمائل نمط التفكير فيها، وتقارب عقليات الناس فيها. إذ من الخطأ تجزئ قضية الإصلاح والنهضة والانبعاث، والنظر إليها على أنها قضية جزر وأقطار منفصلة عن بعضها البعض، ليس بينها ما تشترك فيه وما تلتقي عنده، بل النظر إليها من زاوية ضيقة كالزاوية القطرية أو القومية.

كان الخطر الأكبر الذي واجهته الدولة العثمانية والعالم العربي في العصور الحديثة هو خطر حقن الوعي الجمعي بداء الاعتقاد بأن لكل منطقة إشكالاتها الوجودية الخاصة، وبأن لا وجود لإشكال جذري عام. في حين لا يصلح حال الكل والمجموع دون اعتبار قضية الإصلاح قضية واحدة تقوم على أسس واحدة، وعلى أساس كونها بوتقة واحدة يستحيل فصل عناصرها بعضها عن بعض. ولذلك فإن ما قد يعاب على أغلب مفكري الإصلاح هو تفكيرهم في قضية الإصلاح برؤية تجزئية ضيقة

تراعي القطرية والقومية والمذهبية. لقد عاش مفكرو الإصلاح الدولة القطرية ذهنيا قبل اكتمال معالمها واقعيا. بعبارة أخرى لقد كان تفكير النخب في النصف الثاني من القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر متجها إلى تركيز الدولة القطرية دونما حاجة إلى الإفصاح عن ذلك. لقد عجز نخب الإصلاح بروئيتهم المفتقرة إلى رؤية استراتيجية شاملة عن إدراك البعد الكلي للمشهد الحضاري للعالم الإسلامي، بفعل التأثير الذي مارسه ضغط الواقع، وبفعل الآثار السلبية لاكتشاف التفوق الأوربي.

كان طرح أسئلة النهضة والانبعاث في مركز الدولة العثمانية متقدما زمنا عن طرحها في العالم العربي. والمتتبع لتاريخ نقاش الإصلاح سيلاحظ بأن الدولة العثمانية رغم سعي بعض سلاطينها إلى إدخال بعض الإصلاحات في الحياة العامة، إلا أن تفكير الدولة ظل محصورا في إصلاح المحيط القريب، ولم ينل العالم العربي من أفكار الإصلاح شيء يذكر، بل لقد حاولت النزعة الانفصالية في العالم العربي إدخال بعض الإصلاحات بعيدا عن المركز وبعيدا عن مطامح الإنسان في مختلف المناطق التي كانت تشكل كيانا واحدا في ظل السلطنة العثمانية.

إن ما جناه المجتمع الإسلامي بظهور الفكر القومي وتجذر نزعاته الفكرية في أذهان النخب، كان أسوأ شيء واجهته هذه المجتمعات خلال مراحل إعادة موقعة الذات من المشهد الحضاري العالمي.. لقد كانت النخب تفتقر إلى نظرة شمولية تبصر بوساطتها مشاكل واقع العالم الإسلامي على أنها مشاكل عامة وليست مشاكل خاصة، الأمر الذي أضع على النخب وعلى إنسان هذه المناطق بصفة عامة العديد من الفرص، وأضع الكثير من الوقت والجهد. وهي الحالة التي استمرت مدة طويلة

جدا سقطت فيها الدولة العثمانية، وتجزأ الكيان الواحد إلى أقطار صغيرة، وتجزأت بفعل ذلك الأحلام والآمال والطموحات.

مر على الإنسان في العالم العربي ربح من الزمن لم يكن يعرف فيه الشيء الكثير عما يجري في تركيا، بإرادة حيناً وبغير إرادة أحياناً أخرى كثيرة. كما مر على الإنسان التركي كذلك ربح من الزمن لم يكن يعرف فيه شيئاً عما كان يجري في العالم العربي. وكأن كل طرف جزيرة معزولة في مكان بعيد جدا. لقد أريد لهذا الإنسان أن يقتنع بأن لا شيء يوحد، وبأن المصير مختلف وكذلك المستقبل، وأنه من الصعب تصور تركيا بتاريخها، وماضيها المشترك مع العالم العربي على الخصوص أن تسير مع العالم العربي جنباً إلى جنب من أجل مصير واحد وأهداف واحدة، وعلّة ذلك تبدو معروفة تحددها العوامل السياسية والتكامل الاقتصادي، وعوامل أخرى ليس هنا مجال تناولها.

إن أول ما ينبغي تصويبه هو النظرة السلبية التي تجذرت في ذهنية عدد من المثقفين العرب تجاه الدولة العثمانية ومن خلالها الأتراك، وهي نفسها النظرة السلبية التي تعمقت في ذهنية الإنسان التركي تجاه العالم العربي والإنسان العربي كذلك، وهي شعور القطيعة وانعدام القواسم المشتركة.. إن ما حدث بين الدولة العثمانية والعرب، وفيما بعد بين الأتراك والعرب هو نوع من التجسيد للمثل القائل "فرّق تسود"، ولذلك فالعمل على إعادة تصحيح نظرة كل طرف إلى الآخر يقود حتماً إلى حصول التقارب وتوثيق الصلة ومد خيوط التواصل، لأن مقومات الوحدة والتكامل كثيرة، والمكونات التي توحد الإنسان قوية، تحتاج إلى أن تزرع فيها الحياة من جديد بروية تراعي المصالح المشتركة وتراعي المصير الواحد.

في هذا الإطار ينبغي التنبيه على أن النخب العربية والنخب التركية ينتظرهما معا عمل كبير وجهد قوي يستهدف في المقام الأول تعريف كل طرفٍ بالطرف الآخر بما لديه من ثروة ثقافية وأسس اجتماعية وفكرية، وغيرها، ويتوجب على النخب الاقتراب مما عند الطرف الآخر من أجل الفهم والدراسة والتحليل، كما يتوجب عليها التواصل في دائرة المصير المشترك.

إن الغاية المركزية لهذه الدراسة هي محاولة تبين جوانب تبدو معالمها غائبة عن القارئ العربي بصفة عام وعن المهتم في المقام الأول. لأن التحولات الكبيرة، التي عرفتها تركيا خلال العقود الأخيرة بعد سنوات طويلة من العزلة والقطيعة مع العالم العربي، بفعل تحكّم الجيش والفكر السلطوي في الحياة السياسية والثقافية، تجعل من تركيا الحاضر مثار اهتمام الإنسان العربي بمختلف فئاته.

إن تحول تركيا في مدة وجيزة إلى دولة ذات أهمية يصعب تجاهلها، يؤثر إيجابا على صورة تركيا باعتبارها دولة ديمقراطية نامية تسجل اليوم معدلات متقدمة في مجال التنمية البشرية والإصلاح، الأمر الذي يسترعي انتباه النخب المثقفة ويدفعها دفعا إلى محاولة فهم أسباب هذا التحول السريع، الذي مهما ربط بالعامل السياسي والديمقراطي، يظل دون الأسباب الفعلية الكامنة خلفه.

الإنسان العربي مهتم اليوم أكثر من أي وقت مضى بصورة تركيا ويتطلع إلى الدور الحضاري، الذي يفترض أنها ستقوم به مع دول العالم العربي في الشرق على الخصوص وفي العالم على وجه العموم. فلا أحد اليوم يستطيع أن يخفي أن تركيا قد حققت قفزة جديرة بالاهتمام في

مجالات النهضة والإصلاح والانبعاث، ومما لا شك فيه أن لهذا الصعود أسبابا وليس أسراراً. ولذلك فهي بالنسبة لفئة واسعة من النخب المثقفة العربية واقعا تتحقق فيه آمال الإصلاح، الذي ظل المثقف العربي يحلم به ويتطلع إليه منذ ما يزيد عن مائة وخمسين سنة، وإذا كان الأمير "شكيب أرسلان" قد طرح سؤاله المعروف "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟"، فإن سؤالاً آخر ينبغي إثارته في الوقت الراهن، وهو "لماذا دخلت تركيا إلى دائرة الانبعاث من جديد، وأخذت تحقق التقدم المنشود؟ ولماذا ما تزال بعض أقطار العالم العربي تراوح مكانها، ولم تحقق حتى اليوم الحد الأدنى من شروط الانبعاث والنهضة والتقدم؟" ولهذا فإن الأهداف والمرامي التي تبرر القيام بمثل هذه الدراسة، تتلخص في الآتي:

- محاولة لمس جانب من رؤية المجتمع التركي للكون والإنسان، ولا تدعي الدراسة استقصاء كل معالم هذه الرؤية، لأن هذا عمل هيئة متخصصة في هذا الباب، والمستقبل كفيل بتأكيد أهمية ذلك. لكن الهدف في هذا المقام هو السعي إلى الوقوف على أهم النماذج الفكرية المعاصرة في العالم التركي، والتي يبدو تأثيرها جلي الحضور محليا وعالميا.

- تجاوز رصد الظواهر إلى تحديد أهم الروافد الفكرية التي تصوغ في الوقت الراهن الخصوصية الفكرية والمجتمعية لتركيا، لأن المتأمل في هذا الواقع لا يستطيع أن يتجاوز حقيقة كونه واقعا متنوعا ومتعددا، بل ومركبا في كثير من الأحيان؛ فالواقع التركي واقع علماني، وتبنيها لها لم يكن اختيارا سهلا، بل تطلب العديد من التضحيات والكثير من محاولات التكيف المجتمعي من أجل المحافظة على تماسك اللحمة التركية وحمائتها من الضياع. فرغم حملات التغريب التي قادها التيار

العلماني لم يستطع محو روح المجتمع الإسلامية. وإذا لم يكن أحد ينكر أن التيارات الإسلامية قد لعبت دورا ما في الحفاظ على هذه الروح مشعلة في صلب المجتمع التركي، نظرا لما تميزت به هذه الحركات من خصوصيات لا توجد حتما في العديد من الحركات الإسلامية في العالم العربي على الخصوص، فإن تيارات أخرى قد حافظت على هذه الجذوة بدعوتها إلى تبني خيارات أخرى. وهي خصوصية تحتاج هي الأخرى إلى بحث متأن بالتركيز على بعض النماذج الأكثر حضورا، شريطة ألا يكون التركيز على النماذج التي تبدو اليوم حاضرة بقوة في المجتمع التركي في مجال السياسة. بل نتصور أن الحركات الإسلامية ذات الحضور المدني هي الأكثر تأثيرا والأكثر تجذرا في المجتمع من جهة كونها تلامس كافة فئات المجتمع، وكونها أكثر قربا من هموم المجتمع وأكثر انخراطا في تفعيل طاقة المجتمع الكامنة.

• ترمي الدراسة كذلك إلى تبين مدى محافظة هذه الروافد على صفائها، وتبين مدى التحول، الذي حصل فيها، وإلى أي حد استطاعت شخصية الإنسان التركي التفاعل مع هذه الروافد وإعادة إنتاجها والتفاعل معها، وتبين أشكال هذا التفاعل وميادينه الأساسية.

أولا: تركيا في ضوء المعطيات العامة

١- أما قبل

بداية ينبغي التوقف عند التنوع، الذي يعرفه المجتمع التركي، فالقاعدة البشرية وكذلك القاعدة المدنية شرط لازم لدراسة التكوين

الداخلي للمجتمع التركي الذي هو في الأصل: "عبارة عن تشكيلات انتقالية صراعية تشهد تناقضات وصراعات كثيرة من مستوى الفرد والبنية السيكولوجية ونظام القيم الفردي إلى الجماعة الأكبر مروراً بالتشكيلات بينهما، كما يشهد صراعات ومنافسات حركية بين هوياته ومناطقه وجهاته ولغاته وأعرافه ومذاهبه وقواه الاجتماعية والسياسية ومؤسساته وأجياله"^(١). فهذا التنوع يفرض على الدارس أخذه بعين الاعتبار، لأنه ليس وليد التاريخ الحديث، بل هو قديم، إذ يكفي أن يذكر كمثال على ذلك ما قام به "يهود الدونمة" من دور في إسقاط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة. ولهذا يتوجب أخذ هذا التنوع بعين الاعتبار لأنه أسس وضعاً فكرياً محدداً، ينبغي على المهتم الانتباه إليه، ومراعاته في بناء المواقف وإصدار الأحكام، تجاه هذه الفئة أو تلك، خاصة إذا كان المثقف يؤمن بمشروع وطني، أو بمشروع تركيا قبل كل شيء. فمثقف هذه الرؤية، ملزم بأن يأخذ التنوع الاجتماعي والثقافي بعين الاعتبار، بل إن هذا الواقع سيحتل حيزاً من تفكير المثقف، وسيحتل مجالاً من منظومته الفكرية بصورة واضحة مباشرة، أو بصورة ضمنية، ويمكن تحديد عناصر هذا التنوع من خلال العناصر الآتية:

- امتداد تركيا بين ثلاثة أقاليم متفجرة سياسياً، وغير مستقرة أمنياً هي: الشرق الأوسط، والبلقان، وآسيا الوسطى / جنوب القوقاز.
- التصاق حدود تركيا التي يبلغ طولها ٢٦٤٨ كلم² بثمانية دول

(١) جدليات المجتمع والدولة في تركيا: المؤسسة العسكرية والسياسة العامة، عقيل سعيد محفوظ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط: ١، أبوظبي / الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٨م، ص: ٥٩.

هي:

- أرمينيا (وطول الحدود معها ٢٦٨ كلم)
 - أذربيجان (٩ كلم)
 - بلغاريا (٢٤٠ كلم)
 - جورجيا (٢٥٢ كلم)
 - اليونان (٢٠٦ كلم)
 - إيران (٤٩٩ كلم)
 - العراق (٣٣١ كلم)
 - سوريا (٨٢٢ كلم)
 - الحدود الساحلية (فتمتد على طول ٧٢٠ كلم).
- ويبلغ مدى المياه الإقليمية ٦ أميال، والبحر المتوسط ١٢ ميلا والبحر الأسود ١٢ ميلا.

فتركيا من هذا المنظور ذات موقع استراتيجي مهم جدا، وذات أهمية كبيرة بالنسبة للدول التي تحيط بها بالإضافة إلى كونها نقطة صلة مهمة بين المشرق العربي، وبين شرق آسيا وشمالها، بل يمكن القول إنها بوابة استراتيجية مهمة إلى وسط آسيا وخاصة آسيا الأترابية.

الشاهد فيما تقدم هو أن تركيا ذات معطيات جغرافية وإستراتيجية مهمة جدا. وهذه الأهمية ليست وليدة العصر الحديث، بل هي معطيات قديمة جدا، وإذا كانت الدولة العثمانية قد تمكنت في وقت من الأوقات من التحكم في أغلب هذه المعطيات واستطاعت توسيع مجالها الحيوي في وقت من الأوقات، فإن ذلك قد كان عاملا مثيرا لحفيظة قوى أخرى لم تدخر جهدا من أجل إضعاف الدولة العثمانية والقضاء على نفوذها

في المنطقة.

وبالإضافة إلى المعطيات السالفة هناك معطى آخر لا يمكن القفز عليه وهو معطى الثقافة العسكرية ودورها في حياة الأتراك بصفة عامة، فالى اليوم ما تزال الحياة الجندية تستهوي الإنسان التركي، وهي منزلة موروثه عن الدولة العثمانية، التي كانت تعتمد على الجيش والجندية إلى أبعد حد، وقد ظل للجيش أهمية كبيرة حتى سقوط دولة الخلافة، واستمرت هذه الأهمية، بعد ١٩٢٣م على وجه الخصوص. يقول عقيل سعيد محفوظ في هذا الشأن: "ركزت الدراسات العثمانية على مقولة الأساس العسكري للدولة العثمانية منذ تشكلها القبلي وحتى انهيارها عام ١٩١٨م. وذهب فيروز أحمد إلى أن "الدولة العثمانية كانت مؤسسة عسكرية عظيمة"، وكانت جيشا قبل أن تصبح دولة. وقد ورثت الجمهورية وضعا أساسيا للعسكر في التكوين الاجتماعي والدولتي وفي صنع السياسة العامة، كما ورثت مؤسسة عسكرية لديها إحساس قوي بالذات والهوية والدور، ولكنها ورثت مع كل ذلك هواجس ومخاوف أمنية ثقيلة"^(٢).

٢- القاعدة السكانية

البناء السكاني التركي حيوي ونشيط وهو كتلة بشرية ضخمة ذات حركية بالإضافة إلى تنوع عرقي وديني يطبع البناء السكاني بالتنوع الفكري، والتعدد الرؤيوي، الأمر الذي ينعكس إيجابا على المجتمع التركي، الذي بلغ عدد سكانه حسب إحصائيات ٢٠٠٤م ٧٢,٢ مليون

(٢) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٦٤.

نسمة، وسيرتفع هذا الرقم إلى ٨٢,٦ مليون نسمة سنة ٢٠١٥ وبالرغم من شساعة المساحة الجغرافية للدولة فإن أغلب السكان يتركزون في ثلاثة مدن كبرى هي إسطنبول، وأنقرة العاصمة، وإزمير.. في الوقت الذي يبلغ فيه سكان الحواضر ٦٦,٨٪، ويتميز السكان بتكوين عرقي وديني ولغوي متعدد، وتشكل الكتلة السكانية الكبيرة تحديات مهمة على صعيد التنمية البشرية والاستقرار الاقتصادي والسياسي. وأدى ذلك إلى جملة تحولات وتغيرات بنيوية في المجتمع والسياسة العامة على حد سواء، ذلك أن الكتلة السكانية هي القوة الحيوية ورأس المال البشري للمجتمعات والدول، ولكنها تمثل تحديا كبيرا في الوقت نفسه، حيث إن متطلبات التنمية البشرية والاستقرار السياسي والاجتماعي تتزايد بصورة مستمرة^(٣).

ومن هنا فإن المشتغلين بالفكر لا بد من أن يراعوا هذه المعطيات، وأن يأخذوها بعين الاعتبار، لأن التحدي الكبير الذي يفرض نفسه هو كيف يدمج كل هذا التنوع في إطار رؤية واحدة ومشروع وطني واحد يتطلع إلى الريادة الإقليمية ثقافيا وسياسيا واقتصاديا.

ومن جهة أخرى فإن انفتاح تركيا منذ القرن ١٦م و ١٧م على الغرب وثقافته، وسعيها منذ وقت مبكر إلى استيراد المعدات الصناعية والزراعية، وأساليب العيش والاتصال، قد أثر في نمط العيش وفي مدارك الناس، وأدى إلى نوع من التغيير في العلاقات الزراعية وأنماط العمل الزراعي. كما أثر في رؤى الأفراد ومطامحهم الذاتية والجماعية، حتى قد صار

(٣) جدوليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٦٧.

معها الريف نفسه مستجيباً لمعطيات التحديث والتجديد، فتزايد الإقبال على المدن، وهو ما أدى بالقوة إلى خلق بنية مجتمعية جديدة من أهم مظاهرها:

• بروز تقسيم اجتماعي طبقي وظيفي داخل المدن، وانقسام المدن إلى أحياء قديمة وأخرى حديثة، وإلى مراكز سكنية محترمة، وأخرى هامشية وفقيرة ومهملة.

• انخراط الريف والمدن الريفية في حركة سياسية نشيطة، تؤثر في البرامج السياسية للأحزاب والحركات المدنية والاجتماعية، ولها تأثير في أفكار الإصلاح ومشاريعه، بل حتى في المشاريع السياسية والاجتماعية وغيرها.

ومن النتائج المباشرة لهذه الوضعية ظهور فروق في مستويات وأشكال التنمية البشرية وأنماط الحركة السياسية والاجتماعية بين مختلف المناطق بين شمال البلاد وغربها، وبين الجنوب والشرق. فقد اكتشفت المناطق السياسية والجغرافية خصوصياتها تبعا لهذه المناطق.

أدت الأوضاع السالفة إلى ظهور مجموعة من الظواهر، تشترك فيها تركيا مع دول أخرى في طريق النمو، كبروز مدن عملاقة كإسطنبول، التي تعتبر المدينة الوحيدة في العالم التي تتوزع جغرافيا على قارتين، لتشكل بذلك نقطة تلتقي عندها آسيا وأوروبا، وهي المدينة التجارية والثقافية والسياحية الأولى في تركيا.. ويفرض وضعها هذا تركيز الحركات السياسية والفكرية والاجتماعية لمجهودها فيها بنسبة مهمة، فهي تستهلك الكثير من جهودها وعملها ومشاريعها، إذ تعتبر مدينة النجاح السياسي والاجتماعي بامتياز.

تعتبر مدينة إسطنبول مدينة ذات خصوصية كبيرة جدا فهي مدينة تاريخية قديمة وذات تقاليد ثقافية عريقة. وتتميز بتنوع نسيجها السكاني وتعدده، دينيا وعرقيا وثقافيا، فقد كانت منذ القديم مركزا استقطاب من كل الجهات وخاصة من الشرق الآسيوي والعربي وشمال إفريقيا زيادة على أن اهتمام أوروبا بإسطنبول اهتمام خاص.

تأتي العاصمة "أنقرة" في الصف الثاني بعد إسطنبول، وهي مدينة حديثة تقع وسط البلاد.. أما "إزمير"، وغيرها من المدن الأخرى فتأتي في المرتبة الثالثة باعتبارها مدنا كبيرة، ويعلق عقيل محفوظ على هذا الوضع بالقول: ستكون "التداعيات السياسية لتضخم المدن أكثر تعقيدا مع مرور الوقت، ذلك أن زيادة التحضر لا تعني زيادة مواكبة في الحضرية، أي لا يرافقها تطور في أسلوب الحياة ونظام القيم ومعايير السلوك والتمدن، فمعظم سكان المدن في تركيا لا يزالون يتصرفون بنمط الحياة الريفية، فضلا عن تبني أنماط عيش ليست مدنية ولا ريفية، وهو ما يصطلح على تسميته بـ"ترييف المدن" (Ruralisation) وهو ناتج عن عدم الاهتمام الكافي وربما العجز السياسي والإداري والمادي عن صهر المهاجرين ودمجهم فعليا في الحياة المدنية الحديثة. وهكذا فقد تركز المهاجرون إلى المدن في مناطق وأحياء "تخصهم" اتسمت بترتيبات وأنماط معيشية هي صورة معدلة نسبيا عن الأنماط التي تركوها"^(٤).

(٤) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٧٠.

٣- واقع يغري معرفيا

الشاهد في هذه الملاحظات العامة هو أن هذه الوضعية تفرض على المثقف أسلوبا خاصا في التحليل والدراسة والتأويل، كما تفرض أخذ كل هذه المعطيات بعين الاعتبار في كل مشاريع الإصلاح. فإذا كان المثقف يعتبر نفسه جزءاً من المجتمع، وأحد مخرجاته، فإن محاولة فهمه وتحليله يقدم مجالا خصبا لطرح الأسئلة والبحث عن الأجوبة، بل وتوظيف ذلك كله في كثير من الأحيان. ولهذا فإن هذه الدراسة تتصور أن معالم هذه المعطيات ستكون حاضرة وبارزة في المشروع الإصلاحي الذي انخرط فيه المتميزون من مفكري الإصلاح، ودعائه.

ومن المعطيات التي يبرز تأثيرها على المجتمع وتمارس تأثيرا دقيقا ما على رؤى الإصلاح وتوجهات الحركات الإصلاحية وبرامجها هو ما يمكن الاصطلاح عليه بـ"الإثنية" أو ما يعرف بالتكوينات الاجتماعية وهو مفهوم متصل بالجماعات العرقية والجغرافية والجسمانية الطبيعية، والتي يعبر عنها عادة بـ"الإثنية" والمقصود بها الجماعات العرقية والقومية والجماعات الدينية والمذهبية والجماعات اللغوية. ولذلك فإن الحديث عن التكوينات الاجتماعية الإثنية في تركيا يفرض "الإشارة إلى مسألة مهمة في الدراسة الإثنية والسوسولوجية، وهي أن تلك الدراسات تركز على البلدان والمجتمعات المركبة والمتعددة؛ أي التي توجد فيها أكثر من جماعة عرقية أو ثقافية أو دينية، وهذا يعني أنها لا تعتبر الألمان في ألمانيا جماعة إثنية، ولكنها تعتبر الألمان في آسيا الوسطى والقفقاس مثلا

جماعة إثنية"^(٥).

وعلى العموم فإن تركيا ذات فسيفساء من جهة الانتماءات الإثنية، فهي تضم كما يرى المختصون شبكة معقدة من أشكال التعدد اللغوي والديني والقومي والسلافي، ولهذا التعدد أصول تاريخية يشكل البحث فيها عملاً مستقلاً ليس هذا مجاله.

٤- الجماعات الدينية

اللغة التركية والعرق التركي ليست مفردات منفصلة، بل هي شيء واحد يحتاج إلى الدراسة في إطار رؤية إثنية، لأن اللغة التركية والعرق التركي هم الأغلبية المسيطرة والطابع العام لتركيا، ولهذا لا ينظر إليها على أنها إثنيات أو قضية إثنية.. والأمر نفسه يقال بخصوص المذهب السنّي، إذ هو الطابع الأكثر انتشاراً في أغلب مناطق تركيا. لكن التفاعلات الفرعية الناتجة عن الحقل الديني والحقل اللغوي والحقل العرقي هو ما يشكل موضوعاً جديراً بالبحث، ويمكن رصد ذلك من خلال:

١- الطائفة العلوية: وهي مذهب ديني مرتبط بصورة ما بالإسلام، والمصطلح غطاء لعدد كبير من الجماعات الدينية، وهي تكون نسبة تصل إلى ١٠٪ من مجموع الأتراك.. فمعظم "العلويين هم إثنيا ولغويًا أتراك انحدروا من وسط وشرق الأناضول، وأطلقت عليهم عدة تسميات من قبيل القزلباش والبكتاشية والتّهتاجية، فضلاً عن تسميات أخرى لها طابع إثني مثل الزّازا، ويشمل مسمى "العلوية" جماعات عدة متباينة مثل

(٥) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٧١.

الأترك والعرب والأكراد والتركمان واليورك والتهاجي"^(١).

يعتبر العلويون في نظر البعض جماعة أو إثنية أو طائفة منغلقة على ذاتها، وقد أيدوا الحركة الكمالية، واعتبروا النظام العلماني فرصة لربط الصلة بينهم وبين البنية الاجتماعية والسياسية المحيطة بهم، لكن مع ذلك ظل النظام العلماني يمارس تميزا ضدّهم، الشيء الذي دفعهم إلى إعادة بناء هويتهم الخاصة في ضوء المفاهيم اليسارية والماركسية وغيرها، كما أن تنامي الأصولية الدينية جعلهم أكثر حرصا على الحفاظ على هويتهم وعلى إعادة صياغتها في ضوء المفاهيم المشار إليها سالفا. وبالمقابل فإن هذه الحقائق والخصائص تفرض على مشاريع الإصلاح وعلى الفكر الحركي أخذ كل ذلك بعين الاعتبار، خاصة وأن هذه الطائفة تشكل نسبة تكاد تساوي عشر النسيج السكاني التركي.

٢- الأرمن: وهم جماعة إثنية وعرقية ولغوية ودينية وثقافية، كان عددهم في الدولة العثمانية حوالي ١,٢ مليون نسمة سنة ١٨٩٦م. ويشكل موضوع الأرمن اليوم ضغوطا كبيرة توظفها أوروبا وكذلك أمريكا من أجل ابتزاز تركيا، لمنع انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي، أو على الأقل تأجيله ما أمكن.

ويقدر الخبراء عدد الأرمن في تركيا اليوم بحوالي ٦٠ ألف نسمة، يتمركزون على الخصوص في إسطنبول، ويتوزعون بين كاتوليك وبروتستانت، لكن الأغلبية أرثوذكسية، ويعترف بهم إثنية، ويعاني الأرمن في العمق من مشكلة محاولة التخلص من إرث الكراهية الذي يؤزم

(١) جدوليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٧١-٧٢.

العلاقة بينهم وبين الأتراك. وتعتبر القضية الأرمنية من المشاكل الكبرى التي قد تطرح على تركيا مشكلات اجتماعية وسياسية فيما سيقبل من الأيام، ولذلك فإن مشاريع الحوار التركي لا تقلل من أهمية المشكل وتحاول أخذه بعين الاعتبار في مشاريعها الإصلاحية كذلك.

٣- اليهود: يتجاوز عددهم حاليا ٢٦ ألف نسمة بقليل، وهم بهذا العدد جماعة دينية صغيرة العدد لكنها قوية التأثير منذ القديم، وخاصة منذ أن تلقت تركيا موجة من المهاجرين اليهود من الأندلس منذ سنة ١٤٩٢م، وقد لعبوا دورا كبيرا وواضحا في الحياة الاقتصادية والسياسية للدولة العثمانية، واحتلوا بعض المناصب الحساسة لما عرفوا به من حنكة ودهاء في مجال التدبير الاقتصادي والسياسي.

استفاد اليهود على طول تاريخ وجودهم في تركيا من روح التسامح التي عوملوا به؛ بل كانت تجربتهم في ظل الدولة العثمانية "هادئة وسليمة ومثمرة"^(٧). وكما لعب اليهود دورا كبيرا في عدم استقرار الدولة العثمانية، كانوا أحد المساهمين بقوة في سقوط الدولة العثمانية، وذلك من خلال انخراطهم الفعال في "الاتحاد والترقي"، وبعد ذلك في "تأسيس الجمهورية من خلال عدد من المثقفين والمنظرين للدولة الجديدة وللقومية التركية والعلمانية"^(٨). يؤكد المتابعون أن يهود تركيا فئة غير متجانسة إثنيا ولغويا، فالكثير منهم من "السفارديم" هاجروا إلى تركيا من إسبانيا ويتكلمون لهجة هي في الأصل اللهجة التي يتكلم بها اليهود في إسبانيا أو في الأندلس وتعرف بـ"اللادينو" (Ladino)، يضاف إلى هؤلاء "الاشكيناز" وهم يهود

(٧) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٧٤

(٨) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٧٤

أوروبا وهم قلة ويتكلمون "الياديش" وهي لغة أو لهجة مشتقة من الألمانية. وهناك اليهود "الكارتيش"، الذين يعتبرهم اليهود الآخرون مهرطقين، ويتكلمون اليونانية. لكن كل اليهود يتكلمون التركية، ونسبة من يعرفون العبرية حوالي ٨٪. ويتمتعون بحقوق ممارستهم الدينية وتعليم العبرية في مدارس خاصة، ولا يوجد أي تضييق عليهم من الناحية السياسية والدينية كما كانوا في القديم. يتمتعون اليوم بنفوذ كبير داخل المؤسسة العسكرية، وهناك بعض المعلومات أن بعض جنيرالات الجيش هم من اليهود، وإن كان الجيش لا يعترف بالانتماء الديني، إذ يعتبر "اللا دينية" أحد مبادئه الأساسية والمركزية. وتتميز الطائفة اليهودية بقدرة كبيرة على العمل في الخفاء، والتحكم في دواليب الاقتصاد والسياسة بحنكة كبيرة. وهم معروفون بكونهم حلقة وصل في العلاقات التركية الإسرائيلية والتركية الأمريكية.

٤- اليونانيون: تعرف الجماعة اليونانية بحضورها القوي على طول فترات مهمة من تاريخ البشرية، لكنها خضعت للسلطة العثمانية منذ القرن الخامس عشر الميلادي، وقد تميزت الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى حدوث معارك قوية أسيلت فيها دماء كثيرة بين الأتراك واليونان. وقد تميزت ١٩٢٣م سنة إعلان قيام الجمهورية العلمانية بتبادل للسكان بين الأتراك واليونان؛ حيث تم تهجير ما يزيد عن ١,٣ مليون من اليونانيين مقابل ٥٠٠ ألف من الأتراك وهو الوضع الذي أفقد السلطة الجديدة عددا مهما جدا من المتعلمين وأصحاب الخبرات، ويقدر عددهم اليوم بـ ٣٥ ألف من سكان تركيا.

تضم إسطنبول مقر الكنيسة اليونانية وهي تمثل المرجعية المسيحية

الأرتدكسية في أوروبا والعالم، ويتحدث اليونانيون لهجات محلية مختلفة بالإضافة إلى التركية، علماً بأن فئة قليلة من اليونانيين تدين بالإسلام وهم لا يشاركون باقي اليونانيين وعيهم الإثني.

تلعب الذاكرة بين الأتراك واليونان دوراً في إذكاء نعمة العداة ضد اليونانيين، الأمر الذي أدى في الآونة الأخيرة إلى حملة هجرة بمعدل ٣٠ عائلة كل سنة نحو أوروبا.

٥- السريان: وهم السوريون المسيحيون، ويقطنون في المناطق المتاخمة للحدود السورية مع تركيا في مازدين ونصيبين وديار بكر، لكن أغلبهم هاجر إلى إسطنبول ومدن أخرى، ويبلغ عددهم ٢٠ ألفاً، يتكلمون السريانية ولهجات أخرى مشتقة من الآرامية السورية، لكن الذين هاجر منهم خارج تركيا وخاصة إلى ألمانيا والسويد فيصل إلى حوالي ٤٥ ألفاً. تكاد تكون هذه هي أهم الجماعات الدينية الفرعية المنتشرة في تركيا، وهي جماعات تطبع المجتمع التركي بنوع من التنوع.

٥- التكوينات الإثنية

والمراد بهذه الإثنيات هو تلك الجماعات البشرية التي تشترك في الرابطة العرقية والثقافية أو القومية، كما تشترك في الوجدان العاطفي، وأهم الإثنيات المتواجدة على أرض تركيا هي:

١- الأكراد: وهم شعب من أصول هندية وإيرانية، ويتوزع وجودهم بين عدة دول هي تركيا والعراق وإيران وسوريا وبنسبة قليلة في لبنان وأرمينيا وآسيا الوسطى. يعتبر الأكراد أهم جماعة إثنية في تركيا، ويقدر

عددهم بحوالي ٢٠٪ أي بنسبة تصل إلى ١٢ مليون أو ١٣ مليون نسمة، ويتركز وجودهم في ١١ إقليمًا من جنوب شرق الأناضول.

إن تاريخ الأكراد في العصر الحديث مليء بالانتفاضات التي قادها زعماء محلّيون سفكت خلالها دماء كثيرة ومن أبرز انتفاضتهم انتفاضة الشيخ سعيد بيران سنة ١٩٢٥م، وانتفاضة آغري عام بين عامي ١٩٢٨م و ١٩٣٠م، وديزسيم عام ١٩٣٨م، لكن أبرزها حتى الآن هي انتفاضة حزب العمّال الكردستاني التي بدأت عام ١٩٨٤م، وكانت تطالب بالاستقلال، ثم تحول إلى مطالبة بالحكم الذاتي.

وتعتبر القضية الكردية من أهم القضايا التي تقلق بال السياسيين والمثقفين على حد سواء، وتمارس أوروبا ضغوطا كبيرة على الجهات الرسمية التركية من أجل الاعتراف بالحقوق الثقافية واللغوية للجماعات الإثنية، وخاصة حقوق الأكراد. وتبدو المسألة الكردية من أعقد القضايا التي تواجه تركيا في العصر الحديث، وهي إشكالية تفرض نفسها على رؤى مفكري الإصلاح، من خلال اقتراحهم لسبل تجاوزها ثقافيا وتربويا وفكريا.

٢- الروم أو العجر: الدراسات الانتروبولوجية ترجح أصل العجر في تركيا وفي أوروبا والعالم من الهند، حين هاجرت جماعات بشرية من شمال الهند إلى مناطق مختلفة من العالم، ووصلوا إلى تركيا منذ القرن التاسع عشر، ويقدر عددهم في تركيا بحوالي ٤٥٠ - ٥٥٠ ألفًا.

٣- يهود الدونمة: الدونمة، كلمة تركية تعني المتحول عن دينه إلى دين آخر، ويعني في إطار اصطلاحى اليهود الذين تحولوا إلى الإسلام رغبة أو رهبة في عام ١٦٦٦م، وتتضمن عقيدتهم عناصر يهودية وإسلامية، لكنهم

يعتبرون أنفسهم مسلمين ويُعترف بهم رسمياً على أساس أنهم كذلك. يصل عددهم إلى حوالي ١٥ ألف نسمة، وتؤكد بعض المصادر أنهم أدوا دوراً خطيراً في إسقاط الخلافة.. يتمركزون خاصة في إسطنبول وأدرنة وإزمير. وهناك اعتقاد سائد بأنهم يهود حتى النخاع، لكنهم يتظاهرون بالإسلام".

انخرط أفراد هذه الفئة في "تركيا الفتاه" وفي "الاتحاد والترقي" ونشطوا فكرياً في إصلاح الدولة العثمانية، ويشغلون اليوم في دوايب الدولة ولهم وزن كبير في السياسة العامة، وحققوا نجاحات مهمة في المجال الاقتصادي والمالي. ومع ذلك "لم يشكلوا جزءاً من الطبقة السياسية أو النخبة الاجتماعية لأن المسلمين واليهود لم يقبلوهم"^(٩).

٤-العرب: يتركز وجود العرب على وجه الخصوص في المناطق المتاخمة للحدود السورية في مناطق إسكندرون، وماردين، وإسعرود، وديار بكر، وأغلبهم سنّة بالإضافة إلى العلويين، وبعض المسيحيين الأرثوذكس. ويقدر عدد العرب بحوالي ٥ مليون نسمة.

أسالت قصة العرب مع الأتراك الكثير من الحبر منذ أواخر الدولة العثمانية، حتى صارت تخفي عداً في العمق، عمل أعداء الدولة العثمانية على إذكائه، وقد كان تنامي النزعة القومية لدى الأتراك وتوظيفها سياسياً منذ قيام الجمهورية سنة ١٩٢٣م أن تجذرت تلك النظرة العدائية للعرب، الأمر الذي نتج عنه انغلاق المجتمع التركي ضد العرب وتغييبهم عن المشهد السياسي للجمهورية. لكن في العقود الأخيرة أدرك الأتراك أن

(٩) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٨٣.

العالم العربي هو بعدهم الاستراتيجي، الأمر الذي سيؤدّي في المستقبل إلى الاهتمام بالإثنية العربية في تركيا، في إطار ما يخدم المصالح التركية العربية المشتركة.

ثانياً: التنوع الثقافي وسؤال الإصلاح

توطئة

لقد تعمّدنا التوسع في هذه المعطيات لأهمية ما تقدمه من معطيات عن طبيعة المجتمع التركي، وطبيعة التفاعلات المجتمعية المؤثرة بصورة مباشرة أو غير مباشرة في المشهد الفكري والثقافي. فمن الأكد أن أفكار الإصلاح ومشاريعه لا تعرض إلا بالارتكاز على اقتناعات فكرية محددة وإن كانت تراعي حتما المشروع الوطني بالنسبة للبعض، لكنها قد تركز على مصالح فئة ضيقة هي مصالح الجماعة الدينية أو مصالح الجماعة الإثنية في إطار عقدي أو في إطار لغوي. ومشهد فكري هذه شخصيته وطبيعته يخفي صراعا فكريا لا تدرك معالمه إلا من خلال البحث بين السطور والتدقيق في الأبعاد الاجتماعية والثقافية والفكرية لمشاريع الإصلاح في مداها القريب والبعيد كذلك. ومن هنا كذلك فإن أكثر المشاريع استدعاء لاهتمام الباحث والمهتم هو تلك المشاريع التي تستطيع تجاوز كل المشكلات والعوائق، وترفع عن الخوض مع الخائضين، مركزة على ما يخدم المشروع الوطني بغض النظر عن فئاته وإثنياته وجماعاته اللغوية والثقافية والسياسية والدينية وغيرها. وذلك بطرح رؤى تحتضن الجميع ولا تقصي أحداً وتفتح ذراعيها للجميع في

دائرة حوار بناء يخدم المصلحة العامة.

إن الوقوف على أهم التشكيلات البشرية والعقدية واللغوية، يتيح الوقوف على أهم التحولات، التي عرفها المجتمع التركي بعد سقوط الدولة العثمانية، وهي تحولات أدت فيها السياسة دوراً مركزياً، الأمر الذي يجعلها جديرة بالدراسة والتحليل وخاصة التحولات الثقافية والفكرية، والتحولات المرتبطة بها.

لهذا فإن التعرض لأهم معالم الفكر الإصلاحية، ولأهم المقومات الحركية للفاعلين الأكثر حضوراً في المجتمع التركي يفرض أولاً التعرض لأهم المؤثرات التي أفرزت الواقع الذي تعرف به تركيا اليوم، لأن الحاضر ظلّ للماضي، والأحداث التي عرفتها تركيا منذ ما يزيد عن مائة سنة قد أثرت بصورة مباشرة في الواقع في صورة تركيا اليوم، والجدير بالذكر أن هذه الأحداث منها ما يمكن اعتباره تأثيره أمراً طبيعياً وعضوياً فرضته طبيعة الأحداث نفسها وقابلية المجتمع للتفاعل مع ذلك. ومنها ما يمكن اعتباره تأثيراً مصطنعاً.

ومن هنا فإن مجموعة من الأسئلة تثار في هذا المقام، منها: ماذا خسرت تركيا بسقوط الخلافة العثمانية؟ وماذا كسبت؟ أو بالمقابل ماذا قدمت الكمالية لتركيا من عناصر إيجابية وماذا سلبتها؟ وهل هناك عناصر سلبية قدّمتها الجمهورية للواقع التركي؟ وإذا كانت الكمالية قد حجبت التحولات الأخرى التي عرفها المجتمع التركي، فما طبيعة المقومات الأخرى التي استطاعت المحافظة على شخصية المجتمع التركي دون صراع مع قيم الجمهورية والنظام العلماني؟

هذه أسئلة وغيرها سنحاول الإجابة عن بعض المعطيات المرتبطة بها

دون توسع لأنها ليست هي هدف هذه الدراسة. لكنها تضيء جوانب من هذه الدراسة.

١- صنع مجتمع جديد

إن بناء مجتمع عملية طويلة ومضنية، وهي في كافة الأحوال ليست مسألة إرادية، أي إن بناء مجتمع والصبر على نموه بصورة طبيعية يحتاج إلى وقت طويل، إذ تحتاج عملية اكتمال الهيئة إلى وقت معقول لا يمكن لإرادة البشر أن تتدخل فيه بعملية قيصرية تفرض التحولات بالقوة، وتحدد الهيئة التي ينبغي أن يكون عليها المجتمع، لأن التدخل بهذه الصورة هو بمثابة فرض الأداة والنتيجة في الآن معاً. أجل قد يُقبل أمر فرض الوسيلة، لكن أن يتم تحديد النتيجة مسبقاً والعمل على فرضها، فهذا مما تأباه السنن الكونية وترفضه وتمجه.

لقد سعى دعاة العلمانية و"الحدائث والتحديث" إلى صنع مجتمع جديد، وذلك قبيل انهيار الدولة العثمانية. فالمجتمع الجديد الحدائث الذي تافت إليه النخب المثقفة في الدولة العثمانية وعملت من أجله، لم يكن ثمرة تحول اجتماعي عام تلمس معالمه في ذهنية مختلف فئات المجتمع، بل كان عبارة عن إرادة "قصدية مسبقة لصنع" أمة "أو" قومية" وصولاً إلى صنع مجتمع يقول عبد الرحمان الشهبندر في نص له يعود إلى عام ١٩٣٤م: "أما وقد خطا الأتراك هذه الخطوات الواسعة في الميدان السياسي فلا عجب أن تتناول حربهم التجديدية الميادين الدينية والاجتماعية والتشريعية وما إلى ذلك من الأوضاع الأدبية، فالأساليب التي نجحت في الحرب وحقت للترك استقلالهم السياسي استهوتهم

أيضا في هذه الميادين"^(١٠).

يشير هذا النص -كما نصوص أخرى شبيهة- إلى أن قضية التغيير لم تكن حالة طبيعية فرضها التطور المنطقي للواقع الاجتماعي وإفرازا منطقيًا لتحول حقيقي عبرت عنه طبقات واسعة من المجتمع التركي، بل كان مجرد وقائع أرادت فئة ما فرضها على المجتمع بالقوة.. يقول عقيل سعيد محفوظ: "ورثت تركيا الراهنة تكويننا مجتمعيا متعددا وفسيفساء مركبا، ومن الصعب القبول أو التسليم بادعاء الأتراك أن دولتهم هي تجل سياسي لـ"مجتمع" أو "أمة" أو "قومية" بإطلاق أو حسب المعاني المعرفية لمسميات مجتمع وأمة وقومية... وليس معنى ذلك أن الخروج من سلطة الدولة يعني تلاشي "النزاعات القومية" لدى التكوينات الاجتماعية في تركيا وإنما يعني أن التدخل السياسي هو الذي قسر تلك التكوينات على التشكل "مجتمعيًا" وفق خطة سياسية تدعمها المؤسسة العسكرية والأيدولوجية القومية التركية"^(١١).

سعت الكمالية منذ قيامها إلى بناء مجتمع غير محدد الهوية، باستثناء الهوية التي أرادتها الكمالية، معتبرة ذلك شرطا مركزيا من أجل بناء دولة تستطيع الاستمرار في الوجود مع القدرة على الاندماج في المدنية الحديثة وفق نموذج يستلهم الحضارة الأوروبية. وهذا الطموح كان يقتضي وجود نخب سياسية وثقافية وفكرية وعسكرية تؤمن بالمشروع وبضرورة فرضه بالقوة أو تزويده "بقوة إكراه واعتباره مهمة جوهرية لا تنفصم عن

^(١٠) الدولة والخلافة في الخطاب العربي إبان الثورة الكمالية في تركيا، رشيد رضا - علي عبد الرزاق - عبد الرحمان الشهنندر، دار الطبيعة، بيروت.

^(١١) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٨٨.

بنية الدولة^(١٢). ويرى البعض في هذا المشروع أنه "مشروع إكراهي"^(١٣)، فقد استعملت الكمالية كل الأساليب المتاحة لها بما في ذلك التخلص من الإثنيات التي يصعب إدماجها كالأرمن، واليونان. وذهبت إلى استبدال المسلمين بالمسيحيين اليونانيين مع دولة اليونان، والنتيجة أن أغلب التكوينات صارت تؤمن بأن الدولة التركية والكمالية هي الحل، الذي يحل المشاكل أو بالأحرى يؤجلها. لكن السؤال العالق هو هل نجحت الكمالية في خلق هذا الجو المجتمعي، وهل نجحت في ترسيخه؟

لقد كان هذا الاختيار نتيجة منطقية لما استوردته الكمالية عن مفهوم المجتمع من الغرب وهو ما أدى إلى تشكيل مجتمع هجين، أو شبه مجتمع، يتميز بوجود فارق كبير بين الواقع المجتمعي الذي توصل الكماليون إلى صنعه، والمجتمع المثل الذي كانوا يحلمون به.^(١٤) وعلّة ذلك هي أن هذا المشروع لم يستطع رغم كل المحاولات النفاذ إلى صلب الرأسمال المعنوي الذي تشكل عبر صيرورة تاريخية طويلة تعتبر الحضارة العثمانية وما مثلته طرفا واحدا فيه ليس غير، لأن ما عجزت الكمالية عنه هو أنها لم تستطع أن تكون "نظاما عقديا أو أيديولوجيا واضحة".^(١٥) بمعنى أنها كانت مجرد صيحات تريد تحقيق نتيجة عاجلة دون أن تكون النتائج مؤسسة على مرام فكرية وثقافية دقيقة، ولهذا السبب فقد كان إلزاما على المعارضين للغزو الفكري والثقافي الغربي،

(١٢) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٨٩.

(١٣) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٨٩.

(١٤) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٩٠.

(١٥) جدليات المجتمع والدولة في تركيا، عقيل سعيد محفوظ، ص: ٩٠-٩١.

والمعارضين للداعين إلى طمس كل معالم الهوية التركية، والرافضين للتحديث وفق النمط الذي شكلت معالمه القوى المعادية للدولة العثمانية باعتبارها عنصراً موحداً لراية المسلمين... كان لزاماً على هذه القوى أن تنعزل لبعض الوقت لتعمل في هدوء على إعادة بناء ما تم تهديمه خلال عقود طويلة جداً، لقد أدرك المعارضون لهذا الغزو أن ما تعرض له المجتمع التركي هو أخطر من محاولة التصدي له بردود أفعال متسارعة، ولذلك رأى بعض أهل الحكمة ضرورة العمل على إعادة بناء ما تهدم في الإنسان في هدوء.

٢- اليوم ظل الأمس

وما ستحاول هذه الدراسة تبيّنه في الصفحات اللاحقة هو في الحقيقة رصد لأهم الوقائع والأحداث التي كان المجتمع التركي عرضة لها قبل أن تقوم الكمالية بالإطباق على المجتمع ومحاصرته والعمل على فرض مشروعها بالقوة والتسلط.. من خلال الإجابة عن أسئلة حول أحداث صَنَعَتْ تركيا الحديثة بكل تناقضاتها وبكل ما تحمله من عناصر سلبية وعناصر إيجابية.

إن اليوم ظل للأمس، فكيف بدأت الحملة التي أدّت إلى قيام الطوفان الكبير، الذي أسقط الخلافة ثم أقام الجمهورية. ولماذا سقطت الدولة العثمانية؟

يفسر بعض الدارسين العرب قضية سقوط الدولة العثمانية من خلال أفكار ابن خلدون (توفي ١٤٠٦م بالقاهرة) ونظريته في الاجتماع؛ وذلك منذ أن انتبه العرب إلى أهمية أفكاره في بدايات القرن التاسع عشر.

فرفاة الطهطاوي الذي أقام في باريس بين ١٨٢٦م و ١٨٣١م اكتشف أهمية ابن خلدون، ولذلك عندما عين مشرفاً على "مدرسة الألسن" نصح بنشر "المقدمة"، ليتم ذلك في سنة ١٨٥٧م. وعلى الرغم من أن العرب قد أعادوا التعرف على ابن خلدون خلال هذه المرحلة فإن الأتراك العثمانيين كانوا أحاطوه بعناية خاصة منذ وقت مبكر جداً مقارنة بالعرب، واستفادوا كثيراً من دروس "المقدمة". فقد فتح التعرف على أفكارها الباب لظهور العديد من الأفكار الإصلاحية، كما ارتكزت بعض الدعوات على هذه الأفكار. فقد نبه حاجي خليفة أو كاتب جلي (المولود سنة ١٦٠٧م والتوفي سنة ١٦٥٧م) في كتابه المعروف "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" إلى أهمية كتاب ابن خلدون: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من أيام العرب والعجم والبربر لقاضي القضاة عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون الإشبيلي الحضرمي المتوفى سنة ٨٠٨ هـ. وهو على مقدمة وثلاثة كتب...". فعناية حاجي خليفة بابن خلدون لم تقف عند حد التعريف بالكتاب كما هو منهج كتابه "كشف الظنون" بل سيحاول الإفادة منه وذلك بتوجيه رسالة إلى "محمد الرابع" عنوانها "دستور العمل لإصلاح الخلل"، وكانت هذه الرسالة جواباً على السؤال الذي وجهه السلطان لمعاونيه للبحث عن أسباب الخلل المالي الذي أصبحت تعاني منه الدولة. يقول حاجي خليفة: "إن الدولة مثل الأفراد تمر بثلاث مراحل: النمو، والركود، ثم الانحطاط"^(١٦). ويمضي مبيناً أن الدولة العثمانية قد عاشت طويلاً وبأن مرحلة الركود قد مضت بهدوء وبأن مراحل المرحلة

(١٦) العثمانيون وابن خلدون، المقدمة، تفسر أسباب انحطاط الدولة العثمانية، خالد زيادة،

الثالثة قد ظهرت ملامحها، لذلك يلزم إصلاح الخلل قبل فوات الأوان، يقول حاجي خليفة شارحا وجهة نظره: "ومن علامات الشيخوخة عند الرجل، الكسل وسوء الهضم، وكذلك هو شأن الدول.. وكما أن المرء عندما يشيخ يصبح أبيض الشعر، ففي مرحلة انحطاط الدول يزداد الترف والأبهة وتنتشر الألقاب في كل مكان، ويزداد تشبه الناس في ملابسهم وأثاث بيوتهم بالعامل فيزداد الإسراف"^(١٧).

يبرز هذا الكلام الصادر عن أحد أهم مثقفي الدولة العثمانية في بداية القرن السابع عشر أن خاصة المجتمع كانت تدرك أن خلافاً قد أصاب الدولة وأنه بات من الضروري البحث عن أسباب لذلك من أجل تدارك الحال، كما يبين النص كذلك أن السلاطين أنفسهم كانوا يحملون هم الإصلاح ويدفعون في هذا الاتجاه. ومن هنا نلاحظ بأن حاجي خليفة يستعير مفاهيم ابن خلدون عن نشوء الدول وقوتها ثم انحطاطها، موظفاً ذلك كله من أجل المساهمة في الإجابة عن أسئلة المرحلة.

يذكر خالد زيادة في مقاله جملة من العلماء والمفكرين المنتمين للقرن السابع عشر والثامن عشر الذين استفادوا من فكر ابن خلدون، وخاصة فيما يتعلق بنشوء الأمم والدول وانحطاطها، وهو ما يؤكد بأن خاصة المجتمع كانت تعي الواقع، الذي انحدرت إليه الدولة العثمانية، وكانت تحاول بكل جهد البحث عن أجوبة مقنعة للأزمة الوجودية التي وصل إليها الإنسان في ظل الدولة العثمانية خلال هذه المرحلة، ومن هؤلاء العلماء يذكر: أحمد بن لطف الله المعروف بمنجم باشا (توفي

(١٧) العثمانيون وابن خلدون، خالد زيادة، ص: ٣٤.

سنة ١٧٠٦م)، ومصطفى نعيمة وهو مؤرخ عثماني مشهور (١٦٥٥م - ١٧١٦م)، وتميز بعمله على إعادة صياغة نظرية ابن خلدون عن حتمية تدهور الدولة بالإشارة إلى أن الدولة العثمانية تستطيع الخروج من انحطاطها أو الخروج من الطور الخامس، فتمنع التدهور النهائي من خلال وجود ساسة أذكىء محنكين، من "عاقلي الذات" الذين يعملون وفق "سنة الله" لمنع انحطاط الدولة ووقفه.

تُرجم كتابُ ابن خلدون إلى اللغة العثمانية منذ مطلع القرن الثامن عشر وهو ما أتاح للأتراك الذين لا يعرفون العربية الاطلاع على أفكار ابن خلدون، وتوظيفها في دعواتهم الإصلاحية وربما حتى الترويج لفكرة حتمية نهاية الدولة العثمانية. وقد تزامن ترجمة "المقدمة" مع الاعتراف الصريح للسلطة الحاكمة أحمد الثالث (١٧٠٥-١٧٣٠م) بتدهور الدولة وضرورة العمل على إصلاح عسكريتها. وفي القرن التاسع عشر صارت أفكار ابن خلدون عن طريقة الترجمة معروفة لدى عدد من المفكرين والمؤرخين الأتراك كخَيْرِ اللهُ أفندي (متوفي ١٨٦٥م) الذي أكد في كتابه التاريخي الكبير (٣٢ جزءاً) أن مواجهة الانحطاط يجب أن تكون بغير الاعتماد على سلالة مالكة.^(١٨)

الشاهد فيما تقدم هو أن الشعور بأن الدولة العثمانية القوية لم تعد كما كانت وبأن مرحلة الانحدار قد ظهرت بوادرها، كان شعوراً عاماً وإحساس عدد كبير من المثقفين بتعبير هذا العصر، والعلماء بالتعبير

^(١٨) أول مترجم للمقدمة إلى اللغة التركية هو "صاحب زادة" أو "بيري زادة"، كان يحتل منصب شيخ الإسلام في إسطنبول (توفي عام ١٧٤٢م). وثاني مترجم هو "أحمد جودت باشا" المؤرخ (١٨٢٢-١٨٩٠م).

السائد آنذ. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فحتى السلاطين لاحظوا هذه الوضعية، ومنهم من دعا صراحة إلى ضرورة البحث في تحديد أسباب العلة ومكائنها، ولم تكن هذه الوضعية لتمرّ دون أن يلمس علماء الدولة العثمانية وأهل السلطان والسياسة أن خصما قريبا جغرافيا يقف على الحدود، وبأنه يترقب، وأن بوادر تفوقه بدأت تلوح وصارت ظاهرة للعيان، ولا يمكن القفز على ذلك.

٣- صدمة اكتشاف تفوق أوروبا المسيحية

متى اكتشف العثمانيون تفوق أوروبا المسيحية على المسلمين؟ سؤال مهم جدا لأن جوابه صادم، فلقد اكتشفت المسلمون بصفة عامة والدولة العثمانية على وجه الخصوص بما في ذلك السلاطين وأهل الحل والعقد هذا التفوق منذ وقت مبكر جدا. فكما أشرنا في كلام سالف فقد كتب حاجي خليفة سنة ١٦٥٣م رسالة يشرح فيها أسباب تدهور الدولة أطلق عليها عنوان "دستور العمل لإصلاح الخلل" وهي رسالة جوابية على طلب السلطان محمد الرابع بالبحث في أسباب الاختلال المالي والاقتصادي الذي باتت تعاني منه الدولة.

لعل أهم ما ساهم في تدهور الدولة العثمانية ودخولها في طور الثالث حسب نظرية ابن خلدون، هو أمر تدخل الانكشارية التي كانت -ولوقت طويل- أحد دعائم القوة في الدولة العثمانية في شؤون الحكم، وانحرفها عن المرامي التي أنشئت من أجلها وهي الدفاع عن حدود الوطن، وهذا هو ما يُستشفّ من بعض المصادر، التي تعرضت لعلاقة العسكر وخاصة الانكشارية بأهل السياسة وفي مقدمتهم السلاطين.

وكمثال على ذلك نجد "قوجي مصطفى بك" -وهو ألباني جاء إلى القسطنطينية في سن مبكرة وعاش في القصر السلطاني في حقبة كانت الدولة ما تزال قوية- يوجه رسالة في هذا الموضوع إلى السلطان مراد الرابع. فقد عاصر قوجي بك هذا مرحلة تاريخية عُرفت بتسلط الانكشارية وعجز السلطان عن إطلاق إرادته في الداخل والخارج. يقول خالد زيادة: "الحادث الهام الذي شهدته القسطنطينية في تلك الحقبة هو صراع السلطان الفتى عثمان الثاني مع الانكشارية ومقتله. ولد عثمان في سنة صعود والده إلى العرش في عام ١٦٠٣م، وبعد وفاة أحمد الأول عام ١٦١٧م تولى السلطنة شقيقه مصطفى، لكن عثمان الثاني المؤيد من شيخ الإسلام استفاد من ضعف عمه فخلعه وصعد إلى العرش في العام التالي ١٦١٨م، لكن السلطان الشاب الذي أراد أن يحكم بشكل مستقل فقد تأييد الانكشارية وتأييد العلماء وعطف العامة عليه، وقد تطورت الأحداث وازداد الجفاء بينه وبين زعماء الانكشارية حتى أدت تنظيماته إلى ثورة قادها آغا الانكشارية انتهت بمقتله عام ١٦٢٢م^(١٩). لكن معالم التدهور كانت آخذة في الظهور، لأن أول رصد لمعالم تدهور الإدارة كان في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠م-١٥٦٦م) من خلال رسالة كتبها وزير سابق اسمه "لظفي باشا" وعنوانها "أصاف نامة"، يرصد فيها بعض معالم الأزمة ويقترح فيها على السلطان بعض الحلول.

بعد هذه الأحداث الأليمة تولى مراد الرابع شقيق عثمان القليل منصب السلطان وكان سنه لا يتجاوز الحادية عشرة، واستمرت الانكشارية في

^(١٩) "أسباب انحطاط الدولة أربعة: الحكم، الإدارة، الجيش، العلماء"، خالد زيادة، مجلة المسيرة، العدد: ٦، المجلد: ١ (١٩٨٠م)، ص: ١٤.

التلاعب والتحكم في أمور السلطنة، وإحداث الشغب والتدخل في شؤون الحكم حتى اشتد عود مراد الرابع فاتخذ جملة تنظيمات بمساعدة أعوان شقيقه جعلت الكفة تميل لمصلحته، إذ بدأ خلال سنة ١٦٣٢م يعبئ كل الطاقات بفاعلية لا تصدق من أجل الحرب ضد فارس.^(٢٠)

هذه هي أسباب نزول رسالة قوجي بك، الذي أصبح يعتبر خلال هذه المرحلة مستشارا، بل ومرتبيا لمراد الرابع كما يقول خالد زيادة، وقد رفعت له هذه الرسالة الأثر سنة ١٦٣٠م، وانتبه إلى أهميتها بعد مرور حوالي مائة سنة من كتابتها، وكانت أول لغة أجنبية تترجم إليها هي اللغة الفرنسية، وكان ذلك سنة ١٧٥٠م وترجمها بوتّي دولاكروا "PETIS DE LA CROIX" وترجمت إلى العربية سنة ١٨٢٦م تحت عنوان: "التلخيصات المتعلقة بتدبير أمور سلطنة الدولة العلية العثمانية" وطبعت لأول مرة في إسطنبول سنة ١٨٦١م، وتتميز الرسالة بسرد وقائع توشي حيننا بالإيجابية، لكنها تخفي الإشارة إلى أن السائد على الوضع السياسي والاجتماعي هو عكس ذلك، ولا يتأخر قوجي بك عن إسداء النصح واقترح ما يراه مناسباً لسلامة الدولة، ولعل أهم ما يقترحه هو أن تكون للسلطنة الكلمة الأولى والأخيرة وألا تفتح الباب لمن لا تسمح له التقاليد السلطانية بأن يتدخل في شؤون تدبير الدولة وخاصة الجيش. وتشير الرسالة إلى عدم السماح للعجم واليهود وغيرهم من الذين لا إيمان ولا دين لهم ولا شريعة بالدخول إلى القصر. ويعلق خالد زيادة على ذلك بقوله: "وتتلخص أفكار قوجي بك في تفسيره لأسباب الانحطاط على الوجه

^(٢٠) أسباب انحطاط الدولة، خالد زيادة، ص: ١٥.

التالي: غياب السلطان عن رقابة "الحكومة" وتسليمه لأفراد حاشيته المناصب والمغانم، وعدم إخلاص الوزراء وتفضيلهم مصالحهم على مصالح الدولة. والتخريب الذي لحق بالإقطاعات العسكرية... وقد كانت من قبل تمتد الدولة بالمال والقوة المقاتلة، وأخيرا الفساد الذي لحق برجال الدين والجهاز التعليمي"^(٢١).

إن أهم ما يمكن استخلاصه من هذا الكلام أو من كلام "قوجي بك" هو إشارته إلى عدم بقاء المؤسسة السلطانية على التقاليد التي تمكنها من الإشراف المباشر على شؤون الدولة، وفتحها المجال أمام من لا تحركهم سوى المصالح الخاصة للتدخل في شؤون الدولة، بالإضافة إلى فتح المجال أمام غير المخلصين والمؤمنين والمعروفين تاريخيا بسوء طويتهم كالعجر واليهود من دخول القصر والتعرف على دواليبه والتحكم فيها. وتبدو هذه الملاحظة الأخيرة ذات أهمية كبيرة لأنها ستساهم بصورة مباشرة فيما بعد في سقوط الدولة وذهاب الخلافة وتشتيت الدولة العثمانية.

الشاهد فيما تقدم هو أن تنبيه المفكرين والمثقفين إلى ما كانت تعيشه الدولة العثمانية من بوادر الانحطاط، كان بدأ في وقت مبكر جدا، وصاحب هذا التنبيه دعوات إصلاحية كثيرة توجهت على وجه الخصوص إلى أعلى سلطة في البلاد، وهي السلاطين، لكنها لم تبرح مكانها لظروف كثيرة ليس هذا مجال تتبعها.

لقد ارتبطت هذه التنبيهات والدعوات ببروز موضوع التعرف على

(٢١) أسباب انحطاط الدولة، خالد زيادة، ص: ١٨.

التفوق الأوربي، لأن العثمانيين أدركوا التفوق الأوربي بحكم موقعهم المميز وكونهم أقرب الدول التي تدين بدين الإسلام إلى أوربا. ولما كانوا أول من أدرك التفوق الأوربي، فقد كانوا أول من حاول الاقتراب منه. في الوقت الذي تعتقد فيه فئات واسعة من المجتمع العربي أن العالم العرب وخاصة مصر أدركوا التفوق الأوربي قبل المركز في الدولة العثمانية، وأن سعي العالم العربي إلى الاستفادة من هذا التفوق كان أسبق زمنياً.

إن التنبهات التي قدمها كل من قوجي بك، وحاجي خليفة، وحسين هزازفَن (ولد ١٦٠١م - توفي ١٦٨١م) كان في سنة ١٦٦٩م من خلال كتابه "تلخيص البيان في قوانين آل عثمان"^(٢٢) تؤكد أن النخبة العارفة في المجتمع العثماني كانت على وعي بأن وضع السلطنة لم يكن على ما يرام، وكانت تحلم بإصلاح الوضع قبل فوات الأوان. وتؤكد ذلك مع هزيمة الدولة وجيشها الانكشاري سنة ١٦٩٩م في حربها أمام الروس والنمسا وفقدانها للكثير من الأراضي، وهي الهزيمة التي أكدت للطبقة الحاكمة أن التفوق الأوربي أمر واقع، كما أكدت أن تلك التنبهات التي تقدم بها المثقف التركي على مدى القرن السابع عشر كانت تنبيهات في محلها وكان يتوجب أخذها بعين الاعتبار.

٤- عهد الزنبيق (عهر التوليپ)

كان السلطان أحمد الثالث ذا طبيعة خاصة، ميالة إلى السلم، كانت شخصيته تخفي رغبة طماحة إلى إعادة بناء الدولة العثمانية على أسس

^(٢٢) "أول محاولة إسلامية لتنظيم التقدم الأوربي"، خالد زيادة، مجلة المسيرة، العدد: ٨، المجلد:

سليمة تتجاوز الانحطاط، وكانت طبيعة الاختيار تقتضي مرحلة سلم تبعد المتربصين بالبلد وبالمسلمين على حد سواء، وقد تأتى له ذلك عندما اهتدى إلى وزير يشاطره الرؤية نفسها وهو المصلح إبراهيم دَامَادُ باشا، وكان ذلك في سنة ١٧١٧م.. إذ كانت لهما رغبة كبيرة في معرفة أوروبا من الداخل فأرسل السلطان سفيره محمد أفندي إلى أوروبا عام ١٧٢٠م، وإلى باريس تحديدا. ومن أهم منجزات عصر التوليب أو الزنبق هذا هو تمكن المسلمين من استعمال الطباعة إذ طبعت بها بعض الكتب.^(٢٣)

كانت المطبعة دخلت إلى الدولة العثمانية قبل هذا العصر بوقت طويل، وكان اليهود أول من أدخلها حين سمح لهم السلطان باستعمالها في طبع كتبهم الدينية، وكان دخول المطبعة بصورة واسعة في سنة ١٧٢٧م، وعهد لإدارتها لإبراهيم متفرقة. ويعتبر كتاب "أصول الحكم في نظام الأمم" المطبوع سنة ١٧٣١م لمؤلفه إبراهيم متفرقة - وكان أهدها للسلطان محمود (١٧٣٠م - ١٧٥٠م) - أول محاولة للتنظير للأخذ عن أوروبا والاستفادة من علومها وتقدمها.^(٢٤) والظاهر أن هذا الكتاب كان ألف في الفترة التي وقعت فيه الثورة على أحمد الثالث وعزله ثم عين محمود مكانه. يقول إبراهيم متفرقة في مقدمة الكتاب: "وهكذا انسحبت إلى زاوية، وفي ظلام الوحدة استسلمت لأفكاره وتدوّقت بسلام راحة

^(٢٣) رفع إبراهيم متفرقة سنة ١٧٢٦م رسالة بعنوان "وسيلة الطباعة" إلى الوزير أحمد الثالث إبراهيم داماد، وإلى شيخ الإسلام شرح فيها فائدة إدخال فن الطباعة واستعماله بالنسبة للمسلمين، وأدت هذه الرسالة دورها حيث سمحت بدخول الطباعة واستعمالها، لكنها كانت تحذر طبع الكتب الدينية، والمقصود بها الكتب الدينية الإسلامية.

^(٢٤) "أول محاولة إسلامية لتنظير التقدم الأوربي"، خالد زيادة، ص: ١٢.

النفس ونعيم الحياة الخاصة حتى قامت عام ١١٤٣هـ - ١٧٣٠م شمس سلطان البيت العثماني فوجدت ذهني قد توقف وامتلاً بالأفكار، كما امتلاً القلب بالألم لرؤية هذه العدوانية على امتداد تلك السنة والكوارث التي أحاطت فجأة بالدولة العثمانية^(٢٥). والسلطان المقصود هنا هو محمود الأول (١٧٣٠م-١٧٥٤م) الذي وصل إلى العرش بعد ثورة الانكشارية التي أطاحت بالسلطان أحمد، وقتلت وزيره إبراهيم، بسبب ميوله الإصلاحية، واتجاهه إلى تحديث الدولة.

ومن أهم ما تتميز به مقدمة متفرقة تلك الإشارة الواضحة إلى التفوق الأوربي، يقول: "ما دفعني إلى عملي هذا والذي فوق طاقتي، وأبعد من حدود عقلي هو هذا الشعب المسيحي النجس (يقصد الأوربيين)، بمقارنته مع المسلمين إذ كان منخفضاً جداً عن المسلمين في العدد وطبيعة جسمه وعقله، وهو جنس بائس. لكن منذ بضعة سنين انتشروا في كافة أرجاء العالم فلم يسيطروا على بعض المقاطعات فحسب، بل ظهروا عدة مرات منتصرين على الجيش العثماني"^(٢٦). فهذا النص واضح الإشارة إلى تفوق العنصر الأوربي، وفيه دليل على تراجع المسلمين عن دورهم الريادي. ويعلق خالد زيادة على محاولة متفرقة بالقول: "وكتاب متفرقة يتضمن أفكاراً تجعله أكثر من محاولة لاستعراض علوم أوروبا وتقديمها، بل هو محاولة للابتعاد عن الصيغ التقليدية للتفكير العثماني السائد والاقتراب من التفكير الأوربي حول مسائل الدولة والحكم والعلوم... ويدعو إبراهيم إلى ترجيح العقل في تناول مسائل الحكم؛ ويمكننا تلمس

(٢٥) انظر: "أول محاولة إسلامية لتنظيم التقدم الأوربي"، خالد زيادة، ص: ١٣-١٤.

(٢٦) "أول محاولة إسلامية لتنظيم التقدم الأوربي"، خالد زيادة، ص: ١٤.

أثر عقلانية الغرب في تفكيره من خلال دعوته التي تستقطب فكرة الكتاب الرئيسية وهي الفصل بين دين الأعداء، الذي لم يكن من محبذيه على الإطلاق، وبين ضرورة الاستفادة من علومهم... ويمكن القول بأن كتاب "أصول الحكم في نظام الأمم" هو أول محاولة نظرية من نوعها تطرح مسألة الاستفادة من علوم أوروبا العسكرية والإدارية واتباع طرائقها في الحكم والإدارة"^(٢٧).

وعلى العموم، فإن موضوع التعرف على التفوق الأوربي، وما سجله الرحالة والسفراء، وما سجله أدب الرحلة جدير بالاهتمام وهو من المواضيع التي تحتاج إلى الدراسة، مما نرجو أن يوفقنا الله للقيام به في المستقبل، في إطار دراسة أخرى.

إن موضوع دخول الدولة في مرحلة الانحطاط وسقوطها موضوع شائك ويحتاج إلى العديد من بحوث، ولكن مما لا بد من التعرض له هو ذلك الانقلاب الفكري وعملية التغريب التي كان الصرح العثماني مسرحاً لها. ولعل من أهم المواضيع التي تثير الاهتمام في هذا المجال هو صعود التيار القومي وتيار التغريب، وتعجيله بتفكيك الدولة العثمانية، ومساهمته في سقوط الخلافة.

٥- التيارات القومية

أ- التيار القومي العربي

يعتبر الشام هو المكان الطبيعي لتطور التيار القومي العربي الذي

^(٢٧) "أول محاولة إسلامية لتنظيم التقدم الأوربي"، خالد زيادة، ص: ١٦.

عمل الغرب المسيحي على دعمه، وإذكاء ناره وتوظيفه في بذر بذور
الفرقة والعداء بين العرب والأتراك العثمانيين. ولذلك تم التركيز على
"العرب المسيحيين" من أجل تدبير هذا المخطط من خلال اللعب على
وتر المشترك المسيحي بين أوروبا والعرب المسيحيين في المشرق العربي
وخاصة في الشام (سوريا والعراق حالياً).. بعبارة أخرى لقد "كانت
الرابطة الإسلامية تغلب على العلاقات بين عرب الشام المسلمين وبين
العثمانيين، بينما لا يجد النصارى في بلاد الشام أية روابط وصلات
تربطهم بالعثمانيين، فكانوا والحالة هذه التربة الخصبة التي نبتت فيها
الأفكار والجمعيات المعادية للدولة العثمانية، والتي استخدمت لتنخر
جسد هذه الدولة وتسعى لإسقاطها"^(٢٨).

ويرى بعض المثقفين أن ظهور التيارات القومية وخاصة تيار القومية
العربية، الذي ظهر في بلاد الشام على وجه الخصوص كان ظاهرة إيجابية
ساهمت في نشر الوعي وعوامل اليقظة والنهضة^(٢٩). لكنها في الحقيقة لم
تكن سوى عامل من عوامل التعجيل بسقوط الخلافة والتعجيل بدخول
الاستعمار إلى أغلب دول العالم العربي، بل إن القومية العربية كانت وسيلة
"لهدم ما كان بني وأسس على قواعد ثابتة من التفاهم والعمل المشترك،
الذي كان عنوان العلاقات العربية العثمانية خلال قرون سلفت، وكيف

^(٢٨) سقوط الخلافة، عرب بلاد الشام والدولة العثمانية، د. محمد علي الأحمد، دار الإسراء
للنشر والتوزيع، ودار حمورابي للنشر والتوزيع، عمان، ط: ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م،
ص: ١١٧.

^(٢٩) انظر: الجذور التاريخية للثورة العربية الكبرى، في "دراسات في الثورة العربية الكبرى"،
نقولا زيادة، الشركة الأردنية العالمية للنشر والتوزيع، ط: ١، عمان/الأردن، ١٩٦٩م،
ص: ١٩.

تكون عوامل نهضة ولم تأت بأي تقدم تكنولوجي أو مادي للبلاد العربية، بل جاءت بأفكار ومبادئ هدامة مخربة، سعى المبشرون الفرنسيون تحت راية الصليبية العالمية، وبرعاية الدول الرائدة في استعمار الشعوب كفرنسا وبريطانيا التي بثها ونشرها بين سكان بلاد الشام، كي تؤتي ثمارها وتزرع الفرقة والتباغض والتنافر بينهم وبين العثمانيين^(٣٠).

ومن العوامل التي ساعدت على بلورة هذا الاتجاه الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م، وما كان لها من آثار في مصر وبلاد الشام ثم باقي مناطق العالم العربي. يضاف إلى ذلك الإرساليات التبشيرية، التي أخذت تزداد إلى المنطقة العربية وخاصة إلى بلاد الشام منذ القرن الرابع عشر الميلادي في صورة موجات، زيادة على تأسيس المدارس والكليات والجامعات العلمية، ثم دعم الجمعيات العلمية والأدبية وتأسيسها كـ"جمعية الآداب والفنون"، و"الجمعية الشرقية"، و"جمعية شمس البر"، و"جمعية زهر الآداب" و"جمعية المقاصد الخيرية"، و"الجمعية العلمية السورية" و"جمعية بيروت السورية"، التي تعد أول عمل منظم في حركة القومية العربية، وأسسها نخبة من الشباب اللبنانيين ممن تلقوا تعليمهم في الكلية الأمريكية البروتستانتية في بيروت، وكانت تسير على خطى "جمعية العثمانيين الجدد" (يُنِي عُثْمَانِيَلِرْ) التي كانت تدعو إلى قطع العلاقة بين العرب والعثمانيين، ثم "جمعية النهضة العربية"، وآخر ما أسس من الجمعيات الداعية إلى الانفصال مباشرة "جمعية رابطة الوطن العربي" التي أنشأها نجيب عازوري سنة ١٩٠٤م الذي كان يوجه أفكاره

(٣٠) سقوط الخلافة، د. محمد علي الأحمد، ص: ١١٨.

من فرنسا التي كان لجأ إليها. ثم أسس خير الله "جمعية عصبة الوطن العربي" سنة ١٩٠٥م، وسارت على مسار الجمعيات السابقة في الدعوة والتحرير ضد الدولة العثمانية. ويضاف إلى كل هذه العوامل التي ساهمت في انتشار الفكرة القومية العربية ضد الدولة العثمانية انتشار الطباعة والصحافة، والمعروف تاريخياً أن المسيحيين كانوا أول من وظف هاتين الوسيلتين في بلاد الشام على الخصوص في نشر الأفكار والتعبير عن مواقفهم. وإذا كان دافع دخول المطبعة إلى الشام دينياً يتمثل في طباعة الكتاب المقدس فإن هذا الهدف ما لبث أن تحول إلى دعم الصحافة القومية الانفصالية.^(٣١)

ب- التيار الطوراني

لم يكن هذا التيار المتنامي، والتخطيط المحكم الذي مارسه أعداء الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية ليحصر نشاطه في الشام، بل كان يعي ضرورة أن يذكي نار القومية ونزعتها في مركز الدولة العثمانية نفسها بدءاً من الآستانة وامتداداً إلى مناطق أخرى في الأناضول والبلقان وغيرها من المناطق، وكان السلاح الأقوى في ذلك كله هو "الطورانية".

تعود نشأة حركة العثمانيين الجدد (بني عُثمَانِيلِيل) إلى منتصف القرن التاسع عشر، وكان ذلك بعد بداية حركة التنظيمات، والتي انطلقت في عهد السلطان عبد المجيد عام ١٨٣٩م، وكان اسم الجمعية التي تحتضنهم "ترقي واتحاد" ثم حولوها إلى "اتحاد وترقي"^(٣٢)، وتمكنوا في وقت وجيز

(٣١) سقوط الخلافة، د. محمد علي الأحمد، ص: ١١٩-١٥٤.

(٣٢) سقوط الخلافة، د. محمد علي الأحمد، ص: ١٦٢.

من الوصول إلى المناصب العليا، واحتلالها ليدخلوا في صراع مع السلطة الحاكمة، وكانوا قبل ذلك قد أقاموا في العواصم الأوربية الكبرى كجنيف وباريس ولندن، وكتبوا العديد من المقالات المشهورة بالعثمانيين وبالسلطين، والمتقدمة للدولة ولأوضاعها السياسية والاجتماعية والعسكرية، وطالبوا السلطان بالسير بالدولة في طريق الإصلاح لمواكبة النظم السياسية في أوروبا، بعد احتكاكهم بالغرب واطلاعهم على تراثه الفكري وتأثرهم بأفكاره. وكان أفراد هذا التيار قد انخرطوا في سلك "الحركة الماسونية العالمية" المسماة "البناء الحرّ" التي ظهرت في أراضي الدولة العثمانية منذ ١٧٣٨م، وحاربها السلطين العثمانيون، بتشريع القوانين التي تحظر على العثمانيين الانخراط في الجمعيات السرية، لما رأوا ما تشكّله الماسونية على الدولة العثمانية وعلى الأمة الإسلامية من خطر.^(٣٣)

تلقى أغلب الذين تزعموا التيار القومي التركي تعليمهم في المدارس والكليات التبشيرية، التي أنشئت قبل ذلك في أهم المدن العثمانية، ككلية "زويرت" في إسطنبول، وثنوية "غلطه سراي" وغيرهما.

كانت أغلب الجمعيات في بداية إنشائها حركات ذات أهداف إصلاحية تريد النهوض بالدولة العثمانية والخروج بها من الانحطاط، لكن يبدو أن هذا الغرض المعلن كان مجرد ستار لكسب الوقت من أجل الدعاية وتجميع المؤيدين والأنصار، ولتجنب رد الفعل لدى عامة الناس في أرجاء الدولة العثمانية. وقد كانت هذه الجمعيات تظهر أن

(٣٣) سقوط الخلافة، د. محمد علي الأحمد، ص: ١٦٢-١٦٣.

مبادئ الحركة لا تتعارض مع الإسلام ومع القيم الإسلامية، حتى لا يجدوا مقاومة ومعارضة فيقضى عليهم وهم في البداية. ولا يدل هذا على أن السلاطين العثمانيين كانوا يجهلون مخططاتهم، بل كانوا يعلمون ذلك وكانوا يحاولون مداراتهم والحيلولة دون تمكنهم من تنفيذ غرضهم بإعلان الجمهورية وإسقاط الخلافة، وقد أدى بعض السلاطين العثمانيين حياتهم ثمناً لذلك.

ويذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته ما يشير إلى مخططات الإصلاحيين هؤلاء، يقول: "كنت أعلم أن كمال بك وضياء بك ورشدي باشا وآخرين من رفاقهم يجتمعون كل مساء في قصر مدحت باشا يعاقرون الخمر ويتحدثون، وذات مرة قال مدحت باشا: "ليس في الأسرة المالكة العثمانية خير يرجى، ولم يبق إلا الاتجاه نحو الجمهور، تُرى كيف يمكن هذا؟..."^(٣٤). ومن يقرأ مذكرات السلطان عبد الحميد بإنعام لا بد من أن يقف على مستوى دقة المخطط الذي كانت الماسونية تقوم به وتعمل على تنفيذه.

لقد "استطاع السلطان عبد الحميد بمتابعته وحرصه أن يقدم الدليل القطعي على أن هدف الماسونية العثمانيين هو إسقاط الخلافة وإقامة نظام علماني يستبق الإسلام عن الدولة العثمانية ويعلنها جمهورية يتولي الحكم فيها هؤلاء المنتسبون إلى "تركيا الفتاة" من الأحرار الماسونيين العثمانيين الجدد"^(٣٥). كانت النزعة القومية هي الوسيلة التي لجأ إليها

(٣٤) مذكرات السلطان عبد الحميد، تحقيق وترجمة: د. محمد حرب، دار القلم، ط: ٣، دمشق

١٤١٢هـ / ١٩٩١م، ص: ١٠٦.

(٣٥) سقوط الخلافة، د. محمد علي الأحمد، ص: ١٦٦.

هؤلاء من أجل تفتيت أطراف الدولة العثمانية، وخاصة النزعة الطورانية والنزعة العربية، لكن حنكة السلطان عبد الحميد الثاني أجلت مخططات الجمهوريين ومخططات الإنجليز والفرنسيين لسنوات عديدة. وعموما فإن جمعيتي "الاتحاد والترقي" و"تركيا الفتاة" وقبلهما "العثمانيون الجدد"، قد أدت دورا خطيرا في إسقاط الخلافة، والتحول بتركيا إلى عالم آخر هو عالم التغريب وعالم الجمهورية العلمانية. ولا يمكن القول إن هذه النتيجة كانت عمل يوم وليلة، بل على العكس من ذلك إنه نتيجة غزو فكري طويل نفّذه أعداء الدولة العثمانية في الداخل والخارج، وما سنحاول تبينه فيما يأتي من الصفحات هو الوقوف على طبيعة الغزو الثقافي والفكري، الذي كان المجتمع التركي عرضة له منذ القرن السابع عشر وربما قبله، وإن كان السلطان عبد الحميد قد وقف سدا منيعا أمام تطور النزعات القومية واستغلالها للإيقاع بين العرب والأتراك، كما يشهد بذلك الذين أرّخوا للمرحلة.





المبحث الثاني: الغزو الثقافي الممنهج

أولاً: تمزيق الرابطة الإسلامية

توطئة

لقد كانت الدولة عبر جميع أطرافها عرضة لغزو فكري ممنهج، سيساهم بصورة مباشرة في إسقاط الخلافة وتشتيت أطراف الدولة بعد تمزيق الرابطة المعنوية الإسلامية، التي كانت تجمع بين مختلف أطراف الدولة. وقد تكاثفت العديد من العوامل في تسريع السقوط، لكن المتأمل في هذه العوامل يلمس أن أكبر خطر واجهته الدولة العثمانية هو الغزو الثقافي والفكري، الذي لم يترك مجالاً من المجالات إلا ودخله، بما في ذلك الوسط العائلي والأسري للسلطة الحاكمة، وما قد يؤسف له هو أن هذا الغزو قد تم في بعض الأوقات بأيدي أبناء الوطن، لقد سلم القائمون على الأمر وأهل الحل والعقد مستقبل الأمة كله لأعدائهم في غفلة منهم، ظنا منهم أنهم يحسنون لأنفسهم ولأوطانهم.

ومن أهم العوامل التي ساهمت في تعرض الدولة العثمانية للغزو الفكري والثقافي الأوربي نذكر على سبيل التمثيل:

١- الموقع الجيوسياسي

تركيا تتمتع بموقع إستراتيجي مهم، فهي تقع عند نقطة اتصال إستراتيجية بين آسيا وأوروبا، وتعتبر إسطنبول في هذا الإطار مدينة متميزة الموقع. ولذلك شكل فتحها حدثا تاريخيا أمد الدولة العثمانية بالقوة وسمح لها في الوقت نفسه بأن تطيل أمد الدولة لفترة زمنية طويلة. كما مكن فتح القسطنطينية العثمانيين من فرض سيادتهم على البحر الأسود والتحكم فيه، وقد جعل هذا الموقع الدولة العثمانية محط اهتمام أوروبا، وخاصة الدول التي كانت تعيش مرحلة النهضة والتقدم. ولذلك فقد عمل هذا الغرب الباحث عن متنفس جغرافي وسياسي على تمرير أنماط فكرية محددة تمهيدا للانقضاض على تركة "الرجل المريض".

وفي الإطار نفسه ينبغي ألا نتجاهل أن أوروبا ظلّت دائما تعتبر تركيا عمقا إستراتيجيا بالنظر إلى ما كانت تشكله القسطنطينية من أهمية تاريخية ورمزية. الأمر الذي يحتم عدم سيادة نمط فكري وثقافي مختلف عن فكر وثقافة أوروبا، التي تأسست بعد نجاح الثورة الفرنسية في تركيز مبادئها، وانتقال بريق تلك المبادئ إلى مختلف مناطق أوروبا.

٢- تطور تاريخ أوروبا الحديث وصدى الثورة الفرنسية

ومن أهم الأحداث التي ميزت تاريخ أوروبا وما تزال، انتصار مبادئ الثورة الفرنسية، التي أوجدت مبادئ العلمانية والقومية والحركة الدستورية. لقد كانت العلمانية من "نتائج الصراع الذي نشب بين البابوية والأباطرة أيهما أعلى، البابا أو الإمبراطور؟ فانهى هذا الصراع بعد قرنين

من الزمان بهزيمة البابوية وظهور العلمانية، وإصدار الدساتير لبيان حدود الحاكم والمحكوم، يعني ذلك تحلل أوربا من الإقطاع الذي خيم على أوربا خلال العصور الوسطى، وإيجاد الدولة الحديثة المنظمة، لاستحالة العودة إلى النظام الإقطاعي" (٣٦).

إن العلمانية - كما آمن بها المجتمع الأوربي - هي اعتبار أمر الحياة شيئاً يخص النشاط الإنساني بمعزل عن الدين، وعن أي مبدأ روحي آخر. فالعلمانية بهذا المنطق تعنى بالزمنية والدينيوية، لقد وقفت الأنظمة السياسية التي تأسست في أوربا بعد نجاح الثورة الفرنسية من الدين موقف المحايد دون أن تكون معه أو ضده، (٣٧) لكن التفسير السائد في أغلب الأدبيات العربية لا يخرج عن إطار رفض العلمانية للدين، وهو ما حاول الخصوم وبعض المحسوبين على العالم الإسلامي أن يؤسسوا عليه رؤيتهم الداعية إلى إعلان القطيعة بين الدين والعلم. ومن الأكيد أن هذا المفهوم هو الذي ساد خلال مرحلة الجمهورية وقيام الثورة الكمالية. لقد عرفت أوربا منذ ١٨٤٨م سنة نجاح الثورة الفرنسية حملة دستورية واسعة، وحركة قوية للحصول على أنظمة دستورية تثور على الأنظمة الاستبدادية. كان من الطبيعي أن تتسرب بعض هذه الأفكار إلى داخل الدولة العثمانية بسبب إيمان بعض السلاطين أنفسهم بمبادئ الثورة الفرنسية، وكانت المناطق الأوربية التابعة للسلطة العثمانية هي أول المناطق تأثراً بمبادئ الثورة الفرنسية، الأمر الذي ولد لديها رغبة في التحرر والاستقلال والخروج عن سلطة الدولة العثمانية.

(٣٦) سقوط الخلافة، د. محمد علي الأحمد، ص: ٢٢٩.

(٣٧) انظر: العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا، عبد الكريم المشهداني، ص: ٣.

يرى بعض الباحثين في التاريخ^(٣٨) أن نجاح الأفكار الفرنسية في الدولة العثمانية وفي العالم العربي وانتشارها يرجع إلى القوة المادية للغرب اقتصاديا وعسكريا وسياسيا. وهو ما لمسها العثمانيون أنفسهم حقيقته، الشيء الذي دفع عددا من السلاطين إلى العمل على تحديث الدولة وخاصة في مجال الاقتصاد والجيش.

٣- أطماع أوروبا في العالم الإسلامي

تُبرز كل العناصر السالفة الذكر مدى إصرار أوروبا على بسط يدها على ممتلكات الدولة العثمانية. وقد بدأ هذا الإحساس والتوجه يتقوى بعد الحملة الفرنسية على مصر مباشرة؛ فبعد الحملة تطلعت الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا بالإضافة إلى روسيا والنمسا إلى تركة الدولة العثمانية باصطناع الأزمات الداخلية وإذكاء نار الفتنة، وخاصة في المناطق الأوروبية لتشجيع النزعات الانفصالية، وشغل السلطة العثمانية، وتشتيت تركيزها.. ساهمت العوامل السالفة وغيرها في ازدياد أطماع الدول الأوروبية في إضعاف الدولة العثمانية تمهيدا لإسقاطها، والحصول على كل مناطق النفوذ التابعة لها نظرا لما كانت تزخر به هذه المناطق من ثروات يسيل لها لعاب القوى الصاعدة في أوروبا، كانت هذه المطامع تحتاج إلى مخططات مدروسة، وإلى زرع بذور الفرقة داخل الجسم العثماني، ومن أجل الوصول إلى تنفيذ المطامع كان الغزو الفكري والثقافي سبيلا من سبل بث الفتنة داخل المجتمع العثماني.

(٣٨) تاريخ المشرق العربي، عمر عبد العزيز عمر، ص: ٢٥٨.

وَحَدَّثَ كل من روسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا رغم ما بينهم من عدااء جهودهم من أجل القضاء على الدولة العثمانية. كانت سياسة بطرس الأكبر بعد وصوله إلى العرش هي فتح آفاق جديدة في بحر البلطيق وفي البحر الأسود، وسارت كترين الثانية على هذا النهج كما سار إسكندر الأول. كان حلم كاترين الثانية هو تحقق اليوم الذي تسير فيه إلى القسطنطينية من أجل اعتلاء عرش بيزنطة، بل كانت تعدّ حقيبتها لذلك حين مقابلتها للإمبراطور جوزيف الثاني ملك النمسا في كرسون (Kherson) حيث أقيم احتفال بهذه المناسبة، ومر الاثنان من تحت قوسٍ كُتِبَ عليه "هذا الطريق إلى بيزنتيوم" وهو اللقاء الذي تم فيه تقسيم أملاك الدولة العثمانية في أوربا بحيث يتكون من تساليا ومقدونيا وتراقيا والقسطنطينية إمبراطورية يونانية. وللوصول إلى الهدف فقد اتبعت كاترين ما أسماه بعض المؤرخين بـ"الميكافيلية المسكوفية" المرتكزة على إثارة الحروب الأهلية والاضطرابات في أملاك الدولة وخلق فرص للتدخل الأجنبي، ثم مقاومة أي حركة إصلاحية عثمانية قد تؤدي إلى القضاء على هدفها. (٣٩)

٤- أنشطة المنظمات الماسونية السرية

تمكّن اليهود من التغلغل في المجتمع العثماني، والتحكم في الاقتصاد والمال والسياسة، بعد مدة من طردهم من الأندلس في سنة ١٦٨٣م. وبغض النظر عن تاريخ تأسيس أول محفل ماسوني في تركيا

(٣٩) انظر: تاريخ المشرق العربي، عمر عبد العزيز عمر، ص: ٢٥١-٢٥٢.

فإن الماسونية قد أدت دورا فعالا في نشر مقدمات الغزو الفكري والثقافي، إلى درجة أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد رأى في وقت لاحق أن الماسونية تجديد للفكر والآراء وطلب من عدد من العلماء والمثقفين الانتساب إليها.^(٤٠) وتاريخ اليهود الذين تظاهروا بالإسلام من أتباع ساباتاي أو يهود الدونمة حافل بالأحداث التي تؤكد اشتغالهم على تخريب الدولة العثمانية؛ فقد شنوا هجوما على أجهزتها المختلفة وشلوا حركتها بإثقالها بالديون ثم التحكم في سياستها وفرض مراقبين غربيين بدعوى حماية ديونهم، لكن الغرض الحقيقي كان هو التجسس على الدولة وتوجيه دفة السياسة.

هذه أهم العوامل التي سهّلت الغزو الفكري والثقافي الذي تعرضت له الدولة العثمانية، ومن خلالها باقي أطراف الدولة، وخاصة العربية منها على الخصوص. ولا مبالغة إذا قيل بأن سبب سقوط الدولة العثمانية كان فكرياً بالدرجة الأولى وفي المرحلة الأولى، بمعنى أن الدولة العثمانية كانت سقطت ثقافياً وفكرياً - مهّد لسقوط رمزيتها التاريخية والدينية - قبل أن تسقط اقتصادياً وعسكرياً.

إن الدولة ممثلة في أكبر مؤسسة فيها وهي السلطنة كانت تعي ضرورة الإصلاح وتعني أن دواليب الدولة قد دب إليها الهرم والفساد ولزم إصلاحها، لكن التيار الثقافي والفكري كان أقوى ولم يفقه الناس آنثذ إلى المثل القائل "وداوني بالتي كانت هي الداء".

(٤٠) انظر: الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، خلف بن دبلان بن خضر الوديناني، منشورات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة،

ثانياً: مظاهر الغزو الثقافي

توطئة

وسنحاول فيما يأتي الوقوف عند أهم مظاهر الغزو الثقافي والفكري الذي كانت الدولة العثمانية عرضة له قبل حوالي مائة سنة قبل سقوط الخلافة لتستمر مظاهره بصرامة على يد أهل البيت أنفسهم بدءاً من سنة تاريخ إعلان الجمهورية (١٩٢٣ م) وإلغاء الخلافة (١٩٢٤ م).

١- السلاطين العثمانيون وقضايا التحديث

لقد تصور بعض السلاطين أن الإصلاح عملية تقنية هدفها الجيش ومظاهر الحياة العامة، ويتجلى ذلك في:

أ- الاستغراب

أشرنا في الصفحات السالفة إلى مظاهر الخلل التي بدأت تتسرب إلى عمق الدولة العثمانية، بالإضافة إلى ما صارت الدول الأوروبية تقوم به من إذكاء لمظاهر الفرقة والفتنة لإضعاف الدولة وإضعاف السلطة الحاكمة، وهو الوضع الذي جعل بعض السلاطين يقتنعون بإيحاء من بعض عملاء الدول الأوروبية بأن هناك خلافاً يتوجب إصلاحه، فتوجه السلاطين إلى اقتباس النظم العسكرية الأوروبية. ويبدو أن السبب المباشر الذي أدى إلى التفكير في الجيش هو الاعتقاد بأن جيش الانكشارية لم يعد يساير العصر ولم يعد يقوم بدوره المركزي بالنسبة للدولة العثمانية، بالإضافة إلى النفوذ الكبير الذي أصبح هؤلاء يتمتعون به إلى درجة أنهم طغوا

وأصبحوا يهدّدون أمن الدولة واستقرارها. وتميّزت جهود الإصلاح هذه بثلاث ميزات منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادي.

• الميزة الأولى: هي ميزة الاستلهام الكلي للنموذج الفرنسي، ومن خلاله استلهام النموذج الأوربي الذي أصبح حديث المنتديات ونموذجا مثاليا يجب الاقتداء به.

• الميزة الثانية: هي التركيز على الرفع من المستوى التقني للجيش وإعادة إعدادة وبنائه على النمط الأوربي.

• الميزة الثالثة: تبرير أسباب الإصلاح تفاديا للصدام بين دعاة الإصلاح والمعارضين له.^(٤١)

لقد ساهمت كل هذه العناصر وغيرها في إثارة جو من الفرقة بين مختلف فئات المجتمع، وبدأ أثر ذلك يظهر عندما عارضت الإنكشارية هذه الإصلاحات وأيدهم بعض العلماء المتعصّبين ممن اعتبروا بناء الجيش على النظام الأوربي كفرا، لارتداء البنطلون (السراويل) بدل "السّالوار" إلى غير ذلك من المظاهر التي كان بعض العلماء يعتبرونها مظاهر كفر ومظاهر خروج عن الدين دون سعيهم إلى تبيين الأسباب الحقيقية الكامنة خلف حالة التدهور التي وصلها واقع العسكر والسياسة والمجتمع والفكر والثقافة خلال هذه الفترة في الدولة العثمانية. "وفي الواقع إن التغيير كان في البداية في مجال التجهيزات للجيش وتنظيمه وتدريبه، ولم يكن هناك أي تفكير أو تدخل في الأمور السياسية مثل التعليم أو الصناعة أو الزراعة، بل إن حركة الاستغراب الحقيقية في

^(٤١) الدولة العثمانية والغزو الفكري، خلف بن دبلان بن خضر الوديناني، ص: ٢٩٤-٢٩٥.

عهد السلطان تركزت على المجال العسكري فقط، لإعادة تنظيم فيالق الجيش المختلفة، وتزويد بعضها بأسلحة جديدة. وقد اهتم السلطان كثيرا بالمدارس الفنية العسكرية، وعمليات الترجمة لبناء الوحدات العسكرية، المشاة والمدفعية، وخصص المهندسين لبناء السفن، وصناعة المدافع لمواجهة تسلط الإنكشارية على مؤسسات الدولة وفشلهم في خوض الحروب أمام القوى الأوروبية^(٤٢). فالسلطان ومن ولاةه وبعض فئات المجتمع لم يدركوا أن الإصلاحات التي عرفتها أوروبا كانت وليدة حركة اجتماعية واقتصادية وسياسية وأن لأوروبا خصوصية ليست هي خصوصية الدولة العثمانية.

الفكر الغربي دخل إلى صلب الدولة العثمانية دخولا غير سليم، فقد تسرب دون أن تكون الشروط الفكرية متوفرة وشروط الحصانة متأية، الشيء الذي سيؤدي بالدولة إلى الدخول في متاهة ستنتهي بإسقاط الخلافة.

ب- عصر التنظيمات

المقصود هنا هو تلك الإصلاحات التي أدخلت على نظام الحكم، ومؤسسات الدولة الإدارية والسياسية. وهي تستند إلى مرسومين سلطانيين صدر الأول في سنة ١٨٣٩م والمعروف بـ"منشور كُلمخانة"؛ وصدر الثاني سنة ١٨٥٦م وعرف بـ"مرسوم الإصلاحات".. وقد أضفى المرسومان على حركة الإصلاح والتغريب صبغة رسمية، وبدأت الدولة تستلهم الروح الغربية في الحياة وفي الفكر والتقنية والسياسة والإدارة، وتكررت

^(٤٢) الدولة العثمانية والغزو الفكري، خلف بن دبلان بن خضر الوديناني، ص: ٣٠٥.

لأصولها الحضارية وللشريعة الإسلامية التي كانت لزمن طويل سبب قوة الدولة العثمانية. وإذا كان السلطان عبد المجيد هو الذي وضع قطار التغريب على السكة، فإنه في الحقيقة كان خاضعا لتأثير وزيره مصطفى رشيد باشا الذي وجد في الغرب مثله الأعلى، وفي الماسونية فلسفته المثالية، وهو الذي أعدّ الجيل اللاحق له في أهم الوزارات وأعد رجال الدولة، وهو الذي ساهم بصورة قوية في دفع عجلة التغريب.^(٤٣)

ولا مجانبة للصواب إذا قيل إن الغرب هو الذي أدار عملياته التغريب هذه، إذ جعلها سيفاً ذا حدين: الحد الأول هو حد محمد علي باشا، إذ إن الإصلاحات التي قام بها في الجيش، جعلته يبدو في صورة قوية إلى درجة التفوق على جيش المركز.. وأما الحد الثاني فهو حد تسريب الإصلاح بنسب لا تتيح تفوق الجيش العثماني، وهنا وظف الحد الأول وهو جيش محمد علي لضرب محاولات بناء جيش عصري في الدولة المركزية.

كانت الدولة العثمانية لقرون رمز وحدة أغلب المناطق الإسلامية، لكنها ستقع منذ أواخر القرن السادس عشر وطيلة القرن السابع عشر فريسة النزاعات الداخلية، والأطماع الخارجية. وقد أدى هذا الوضع المتدهور إلى فتح الباب واسعاً أمام الغزو الفكري والثقافي، الأمر الذي سيؤدي في النهاية إلى قطع الصلة مع الأصول التي صنعت ولقرون عديدة قوة الدولة العثمانية لتدخل تركيا إلى ساحة العلمانية. يقول ياسر أحمد حسن معلّقاً على ما نبع مع "التنظيمات" من تحول في بنية الواقع

^(٤٣) الدولة العثمانية والغزو الفكري، خلف بن دبلان بن خضر الوديناني، ص: ٣١٧.

الاجتماعي والفكري لتركيا والأناضول: "من الآن فصاعدا ستشهد السلطنة انفتاحا هو الأكبر في تاريخها على الغرب الأوربي، الذي كان يعيش في ذلك الوقت حالة صعود الفكرة القومية؛ وإذ تبدو السلطنة مَعْنِيَةً بهذه الفكرة، بحكم كونها متعددة القوميات والأديان والمذاهب وبحكم التحدي الصادر عن بعض منها في وجه إسطنبول، فإن مقترحها السلطوي المتمثل في فرمان التنظيمات لن يقدم حلولا ناجحة تضع حدا لانتهيارها، بل ستمضي السلطنة من أزمة إلى أخرى، تجتاحها رياح التمرد والانفصال ذات البواعث القومية، ولن يكون النزاع مع مصر هو الأول في سلسلة الأزمات والصراعات الخارجية والداخلية، وسيكون جليا مع نهايات القرن أن "التنظيمات" لم تكن عهد تجديد قط، وإنما مثلت مقدمات للتمزق والانتهيار الذي تسارع مع بدايات القرن العشرين. لكن ذلك لا ينفي أن "التنظيمات" ستقدم بفعل ما أحدثته من حركة في المياه الراكدة رصيда محفوظا لمستقبل ليس ببعيد لانبعاث قومية تركية جديدة وخالصة، ستخرج من قلب عملية الانتهيار لتغير مسار ومستقبل أبنائها أولا، وشكل خريطة المنطقة التي يعيش فيها ثانيا، ولتفرض حسابات جديدة ومثيرة في محيط أوسع"^(٤٤).

٢- تركيا بعد سقوط الدولة العثمانية

ليس للبشر أن يغير سنن الله في كونه، ولن يغير الله سننه لسواد عيون جماعة من الجماعات، بل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا

^(٤٤) تركيا: البحث عن المستقبل، ياسر أحمد حسن، الدار المصرية اللبنانية، ط: ١، القاهرة

بأنفسِهِمْ» (الرُّغْد: ١١)، وينصلح حالهم. ومن هنا يبرز مفهوم الإصلاح بقوة. لم يكن من المتيسر إصلاح ما تم إتلافه وإفساده خلال حيز زمني طويل لا يقل عن قرنين من العمل السري والمنظم تنظيماً دقيقاً، ولذلك فالإصلاح كان في حاجة هو الآخر إلى حيز زمني طويل، وإلى رؤية ثاقبة تدرك مكامن الخلل وتحدد مكامن المرض. بعبارة دقيقة كان الوضع يفرض القيام بعملية تشريح للجسد المريض قبل وصف الدواء. ولا مغالاة إذا قيل إن بعض رجالات تركيا لمسوا هذه الحقيقة وتصدوا للقيام بها كل من زاوية نظره ومن جهة ما يؤمن به، فمنهم من نجح بقدر إخلاصه، ومنهم من كانت الأحداث معاكسة لمسعاه، فانتهى إلى باب موصد لتضيق الأفكار والمواقف في حمأة الأحداث رغم محاولات النهوض والانبعاث المتعددة.

إضافة إلى المعطيات التي حاولنا الوقوف على مضامينها وأبعادها في المباحث السابقة ينبغي الإشارة إلى أهمية المعطى والمسار المعاكس للانهيال الإسلامي العثماني، والذي مثله تأسيس الجمهورية والقطع مع الماضي بكل ما يمثله، والعمل على الانطلاق إلى المستقبل بروح أخرى اختار لها مؤسسو الجمهورية "العلمانية" شعاراً، والتغريب الأوربي طريقاً ومنهجاً. ومع ذلك فإن "العلمنة" قد أثارت العديد من الإشكالات والتناقضات في ظل عدم اكتمال ونضوج الشروط التاريخية والاجتماعية لتركيا في عشرينات وثلاثينات القرن الماضي وهو ما جعلها لا تمت بكثير صلة إلى العلمانية. "ولم تستطع، بالتالي، أن تكون ذات حضور مؤثر وحاسم بصورة طبيعية في مجتمع تشرب بالأيدلوجيا الإسلامية على امتداد أكثر من سبعة قرون. لهذا وجدت العلمانية نفسها بعد سبعين

عاما من الممارسة أمام تصاعد التيارات الإسلامية، رغم كل القيود القانونية^(٤٥).

ولا ينبغي في الإطار نفسه استبعاد دور الجيش في الحياة السياسية وغيرها. الأمر الذي يؤكد بأن النظام الديمقراطي الذي جرى تبنيه منذ ١٩٤٥م كان في الحقيقة نظاما شكليا من زاوية أن قوة الجيش سمحت لنفسها بالتدخل في كل وقت وحين لحماية المبادئ الكمالية بوساطة "مجلس الأمن القومي"، الذي نصت عليه الدساتير المتعاقبة منذ ١٩٦١م.^(٤٦)

لهذا يطرح السؤال: لماذا اندفع أتاتورك كل هذا الاندفاع نحو الأوربية ونحو دين أوروبا في العصور الحديثة "العلمانية"؟ ألا يمكن أن نلمس نوعا من الصدق والإخلاص فيما قام به؟ ألا يمكن أن نتصور أن إيمان كمال أتاتورك بضرورة مغادرة تركيا إلى أوروبا يحتم مغادرتها للإسلام والقطع مع هذا الإرث الذي جعل أوروبا التي كانت مجرد جغرافيا قبل فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م تتحول بعد ذلك إلى مصطلح سياسي وحضاري وثقافي وإلى مواجهة تخفي حربا صليبية.^(٤٧)

وليرز كون إلغاء الدين والإسلام من الحياة سدا للباب أمام الموقف الأوربي تجاه تركيا والإسلام بصفة عامة، لكن هل كان هذا الأمر كافيا لكي تتوقف أوروبا عن اعتبار تركيا عدوا باعتبار ماضيها التاريخي القوي؟

^(٤٥) تركيا الجمهورية الحائرة، مقاربات في الدين والسياسة والعلاقات الخارجية، محمد نور الدين، مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، ط: ١، بيروت ١٩٩٨م، ص: ١٥.

^(٤٦) تركيا الجمهورية الحائرة، محمد نور الدين، ص: ١٥.

^(٤٧) انظر: تركيا الجمهورية الحائرة، محمد نور الدين، ص: ٢١-٢٢.

ألا يمكن القول إن خطوات الكمالية هذه كانت نوعاً من الانسحاب خلف الستار من أجل إعادة ترتيب البيت وتنظيمه من أجل انطلاقة جديدة على أسس متينة. أليس من الإنصاف القول إن ما حدث كان فيه خير بالنسبة للفكر الإسلامي وبالنسبة للفكرة الدينية الإسلامية حتى تعيد تجديد نفسها وتعيد إنتاج ذاتها بما يتلاءم وشروط العصر الحديث؟ وفي الإطار نفسه ماذا تمثل تركيا اليوم بالنسبة لأوروبا وبالنسبة لباقي دول العالم الإسلامي، والعالم العربي جزء من هذا الكيان؟ ألا يحمل مشروعا حضاريا تعترف به أوروبا وتعتبره عاملا حاسما يمنع دخول تركيا إلى حظيرة السوق الأوروبية المشتركة.^(٤٨)

لقد سعى كمال أتاتورك بكل قوة إلى أوربة تركيا لأنه اقتنع أن هذا هو الحل، بل كان يؤمن إيمانا قاطعا أن هناك حضارة عالمية واحدة هي الحضارة الأوروبية. وينبغي اقتباسها كلها بورودها وأشواكها، ولذلك حرص كمال أتاتورك على التذكير في كل خطبه بضرورة الانخراط في مجموعة الأمم المتحضرة يقصد أوروبا، واضعا نصب عينيه التغيير الاجتماعي قبل التغيير السياسي.^(٤٩)

كان كمال أتاتورك يؤمن -كما يذكر ذلك الذين ترجموا له وكتبوا عن حياته وأفكاره- بضرورة تمتع الإنسان التركي بتركيبته وإنسانيته وكرامته بصورة تلقائية دون النظر إلى دينه. وكان يعتقد بأن "المرشد الحقيقي

^(٤٨) تركيا الجمهورية الحائرة، محمد نور الدين، ص: ٤٢-٤٥.

^(٤٩) أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، سليم الصويص، بدون دار طباعة، ط: ١، مارس

الوحيد في الحياة هو العلم"^(٥٠).

لقد كان شديد الحساسية اتجاه الفكرة الشرقية التي تربط التفوق الحضاري حسب تصوره بالمذهب الديني، فالقديم وحضارة الأجداد وحضارة الترك الغابرة لا تحقق النهضة، يقول: "إن حضارتنا القديمة لن تمنحنا الحياة. وإن لكل جيل حضارته، ومتى صنعنا حضارة لنا أصبحنا جديرين بالانتماء إلى الأجداد،"^(٥١). والأجداد هنا ليسوا هم العثمانيين بل هم الأتراك القدامى.. وأما النموذج الذي يحقق ذلك فهو النموذج الأوربي، يقول: "والحضارة التي يجب أن ينشئها الجيل التركي الجديد هي حضارة أوربية مضمونا وشكلا، لأن هناك حضارة واحدة هي الحضارة الأوربية، هي الحضارة القائدة، والحضارة الموصلة إلى القوة والسيطرة على الطبيعة. وخلق الإنسان السيد والأمة السيدة المتحررة من السلطة الفردية والسلطة التيقراطية. وإن جميع أمم العالم مضطرة إلى الأخذ بالحضارة الأوربية لكي تؤمن لنفسها الحياة والاعتبار"^(٥٢).

فالأوربة في صورتها الكاملة كما طبقت في أوروبا ونجحت، ينبغي تنزيلها في الواقع التركي. وحتى يتحقق ذلك ينبغي إعداد التربة التي ستساعد على نموها نموا طبيعيا، حتى تعطي ثمارا تشبه الحضارة الأوربية. وإعداد هذه التربة يفرض محاربة العقليات المتحجرة وخاصة العقليات الدينية، يقول: "إن هدف الثورة هو أن تخلق في تركيا الجمهورية مجتمعا عصريا، متحضرا روحا وشكلا، هذا هو قطب هدف الثورة، ويجب أن

^(٥٠) أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، سليم الصويص، ص: ٢٣٨.

^(٥١) أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، سليم الصويص، ص: ٢٣٩.

^(٥٢) أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، سليم الصويص، ص: ٢٣٩.

نهزم العقليات غير القادرة على تقبل هذه الحقيقة، هناك عقليات تमित الأمة. ولهذا يجب غسل عقول الناس من الأسطورة والخرافة، وبدون ذلك لا يمكن إدخال نور الحقيقة إلى عقول الناس"^(٥٣).

ولتحقيق هذه الغاية أعلن كمال أتاتورك حملة اجتثاث لكل الطرق والتكايا وكل المظاهر الدينية، وأعلن قائلاً: "سأعلق كل التكايا.. نحن نستمد قوتنا من الحضارة والعلم والمعرفة ونسترشد بها"^(٥٤). فهل نجح كمال أتاتورك ودعاة الأوربة في قطع تركيا عن جذورها، وهل إغلاق التكايا ومحاربة الطرق الصوفية ومحاربة الفكر الديني ومحاصرته كفيل بالقضاء على الروح الدينية المتجذرة في لاوعي الإنسان التركي؟ لقد أكدت الأيام أن الخيار صعب التحقيق لأنه مضاد للطبيعة الإنسانية ومضاد لسنن الكون.

٣- القطع مع الماضي ومنظومة مجتمعية جديدة

استمرت حملة التغيير الساعية إلى بناء منظومة مجتمعية متحررة من إرث الماضي، ودعت إلى تبني الفكر الطوراني أو النظرية الطورانية. وإذا ما سجل التاريخ الحديث من حدث فلا بد أن يسجل توجه كمال أتاتورك إلى دعم نظرية أسطورية ترجع كل لغات العالم إلى أصل واحد هو اللغة الأترابية تمهيدا لجمع الأتراك حول لغة موحدة، فأعلنت الحرب على كل ما يوجد في اللغة العثمانية التي كانت هي لغة أغلب سكان

^(٥٣) أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، سليم الصويص، ص: ٢٦٠.

^(٥٤) أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، سليم الصويص، ص: ٢٦٠.

تركيا وخاصة في الأناضول. فأدخلت ألفاظا جديدة واستبدلتها بالألفاظ الإسلامية الأصل، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، ويذكر صويص أن هذه الخطوة لم تكن بدافع فكري أو ثقافي بل كانت بدافع سياسي يقول: "حين قررت الجمهورية التركية استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني كذا... كان الوازع إلى ذلك سياسيا وليس ثقافيا، ولم يكن ذلك جزءا من حركة التتريك التي سادت تركيا بعد التحرير، بل نتيجة ما حدث في الأقطار المجاورة لتركيا نفسها. فحين قامت الثورة الاشتراكية سنة ١٩١٨م تبنت حكومة الاتحاد السوفياتي الحرف اللاتيني في أذربيجان وشمال قفقاسيا، وصدر بذلك مرسوم جمهوري سنة ١٩٢٥م يفرض الكتابة بالأحرف اللاتينية في هذه المناطق، التي يتكلم سكانها اللغة التركية، وفي سنة ١٩٢٦م عقد مؤتمر "باكو" وقرر منع استخدام الحرف العربي لدى الناطقين بالتركية في الاتحاد السوفياتي.

وكان هدف الاتحاد السوفياتي من هذه السياسة هو إضعاف نفوذ الإسلام في السكان، ثم فصم الرابطة بين هؤلاء الأتراك القاطنين في الاتحاد السوفياتي وأبناء جلدتهم القاطنين في تركيا الذين كانوا يستخدمون الحرف العربي"^(٥٥).

ويرى فريق آخر أن كمال أتاتورك لم يكن في البداية يهتم لمصير أذربيجان وغيرها من المناطق الأتراكية بل كان مهتما من خلال إلغاء الحرف العربي بالقطيعة مع الماضي بكل ما يمثله، حتى يتسنى للأجيال

^(٥٥) أتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، سليم الصويص، ص: ٢٢٥-٢٢٦.

اللاحقة الإقبال على المستقبل بروح متجددة.

٤- إعادة قراءة صورة الإسلام في تركيا

هل استطاعت تركيا بعد كل هذا القضاء على ماضيها في صلب لاوعي المجتمع التركي؟ وهل تمكنت من أن تطفئ جذوة الإسلام والدين في القلوب؟ وكيف تبلور الفكر الديني في الواقع التركي؟ وإلى أي حد استطاعت الفكرة الدينية التكيف مع واقع علماني ولاديني لا يتسامح؟ وهل استطاعت الفكرة الإسلامية الصمود في وجه التغيير والتفاعل معه، وكيف تم لها ذلك؟

لن نبالغ إذا قلنا إن الفكرة الإسلامية هي الأقوى حضوراً في الواقع التركي اليوم بمظاهر مختلفة وتوجهات متنوعة. الحدث التركي اليوم يصنعه الجيش بسلطته القوية، وتصنعه الأحزاب السياسية ذات الأيديولوجية الإسلامية وخاصة حزب العدالة والتنمية. ويصنعه مجتمع مدني قوي متشبع بالفكرة الدينية، ومتشبع بضرورة توظيفها من أجل تركيا قوية.

وبداية لا بد من الإشارة إلى أن الجو الديمقراطي الذي تبلورت معالمه في العقدين الأخيرين والذي سمح لبعض حركات الإسلام السياسي من الوصول إلى إدارة الشأن السياسي بنوع من النجاح، قد جعل تركيا محط اهتمام الباحثين والمهتمين، وخاصة المتتبع العربي وفئات واسعة من المجتمع من مثقفين وسياسيين وحتى الشارع، وانتقل هذا الاهتمام إلى نوع من الإعجاب ورغبة في معرفة حقيقة تركيا الجديدة، والمتأمل فيما يتجاذبه الناس من أحاديث حول تركيا يجدها تنقسم إلى انطباعين اثنين:

• الانطباع الأول هو أن تركيا الحديثة هي نتيجة التوجه العلماني الذي تأسست في ضوئه الجمهورية، وأهل هذا الرأي يؤكدون بأن تركيا اليوم نتاج الأجواء العلمانية، التي عاشت في ظلها تركيا منذ ٧٠ سنة خلت. الشيء الذي يؤكد في نظر هؤلاء أن العلمانية هي سبيل النهضة والانبعاث.

• الانطباع الثاني يعتبر أن تركيا تمكنت من الحفاظ على هويتها وبأن معاول الهدم والتخريب التي طالت المجتمع التركي لم تستطع النيل من هذه الهوية، بل هناك من ينظر لتركيا على أنها تملك كل شروط قيادة الشرق الإسلامي إلى النهضة والانبعاث. وهناك من يعتبر قيادة تركيا اليوم عثمانيين جدداً، وهناك من يذهب أبعد من هذه الرؤية حين يعتبر تركيا مطالبة بأن تتحمل مسؤولية الانفتاح على العالم العربي، ومطالبة بالنظر إلى العالم العربي على أنه عمقها الاستراتيجي، في ضوء إيجاد توازن استراتيجي جديد في المنطقة. العالم العربي الذي يشعر بنوع من الاستضعاف، يحلم بأن بتركيا حليف قادر على بث الدفء في العلاقات العربية التركية. ومن المستحيل أن يتم تجاهل المشترك الديني، في ظل الاختيارات المناهضة لأوروبا بالنسبة لإيران، لأن التوجهات التي تطبع إيران تجعل الإنسان العربي لا يطمئن كثيراً لما قد يأتي به المستقبل.

كان الإسلام هو دعامة الحكم، والسلطان في الدولة العثمانية، بل إن الدولة العثمانية قد تمكنت في وقت من الأوقات من أن تقوم على أساس التقاليد الإسلامية السائدة وعلى أساس تفسير نصوص القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ، تقول د. مرغريت حلو: "الشرعية التي وضعت في القرون الأولى للإسلام والتي جسدت الأعراف والتفسير لسيرة

النبي بنيت على التقاليد السائدة في مجتمع يختلف كل الاختلاف عن المجتمع الذي توالد من توسع الإسلام، ومن هنا فمن الطبيعي أن تبقى أمور عديدة لا تلحظها الشريعة أو تفصل الكلام عليها. في الفترة السابقة للحكم العثماني لم تكن ممارسة الكثير من الأشياء مستندة إلى أي قانون تنظيمي، بل كانت عرفية برمتها، ثم تغيرت بتغير الزمان والمكان، ويعزى الفضل إلى السلاطين العثمانيين في:

١- خلق حكم مفصل، وجعل الدولة أكثر ميلا إلى السلالة الملكية منها إلى الدينية الشعبية.

٢- تفعيل الشريعة من خلال جعلها القانون المطبق في الدولة.^(٥٦)

وفي هذا الإطار لا ينبغي التغافل عن ملاحظة مهمة جدا وهي أن أهم الدراسات المنجزة حول تركيا العثمانيين أنجزها باحثون غربيون، الأمر الذي يدل على أهمية تركيا بالنسبة للغرب، وهذا ليس من منطلق العداء أو الصراع الحضاري فحسب، وإنما باعتباره اعترافا بقوة هذه الدولة وأهميتها بالنسبة لأوروبا.

ويؤكد بيرنار لويس في كتابه نشوء تركيا الحديثة (The emergence of Modern Turkey)، أن للإسلام العثماني يدا واضح المعالم في التنظيم القضائي وخاصة فيما يتعلق بالإقرار بسلطة القضاء، ويظهر كذلك في تنظيم الهياكل الدينية، وإقرار سلطة مشيخة الإسلام التي كان لها الحق في عزل السلطان.^(٥٧) ويضيف بيرنار لويس في الكتاب نفسه أن الأتراك في

^(٥٦) الإسلام والسياسة في تركيا، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، مرغريت حلو، مركز الدراسات الأمريكية، لبنان، ص: ١٦.

^(٥٧) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ١٤.

ظل دولة العثمانيين لم يكرهوا على الإسلام، وكان اختيارهم له عن قناعة ومحض رغبتهم، ولذلك فهو لا يحمل في طياته أي مؤشر من مؤشرات النقمة أو الخوف. فقد ذاب الأتراك في الإسلام ونسوا ماضيهم، وانتسبوا للإسلام وحده دون غيره، وصار لقب تركي مرادفا للمسلم.^(٥٨)

كل هذه المقومات طبعت المفهوم العثماني للإسلام، وتجلت ذلك في: "تفاني الإمبراطورية العثمانية، منذ نشأتها حتى زوالها، في الدفاع عن الإيمان، والحفاظ على قوة الإسلام من خلال محاولاتها بالدرجة الأولى توسيع دار الإسلام باتجاه أوروبا وغيرها من المناطق، ومن خلال محاولتها بالتالي صد الهجمات الغربية، والحيلولة دون تغلغل الغرب في دار الإسلام، كما تجلّى أثره أيضا في إحلال الهوية الإسلامية محل الهوية التركية إحلالا شبه كامل"^(٥٩).

وليس هذا فحسب، فقد اعترف السلاطين العثمانيون اعترافا مبدئيا بكفاءة الشريعة في تسيير الحياة العامة،^(٦٠) ومما ينبغي الإلحاح عليه كذلك في هذا المقام هو ما كان يتمتع به غير المسلمين من حرية الاعتقاد والتصرف وحرية الحفاظ على هويتهم الثقافية والعقدية، وهذا معاكس لما يذهب إليه بيرنارد لويس الذي يؤكد بأن أتباع الديانات الأخرى كانوا معزولين ولم يكن بمقدورهم الاختلاط بالمجتمع الإسلامي بحرية،

⁽⁵⁸⁾ Lewis Bernard, The emergence of modern Turkey, P: 11.

⁽⁵⁹⁾ الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ١٨.

^(٦٠) انظر:

REED Howard, Revival of islam in secular Turkey, Middle east journal. Summer 1954: P 267.

ولذلك لم يتمكنوا حسب رأيه من المساهمة في الحياة الثقافية العثمانية إسهاما واضحا، وهذه مغالطة كبيرة جدا لأن الدولة العثمانية كانت من بين الدول القليلة التي استقبلت اليهود بعد طردهم من الأندلس، ليعيشوا بعد ذلك في مناطق مختلفة من الدولة العثمانية، ولتكون لهم اليد الطولي في إسقاط الخلافة، بالنظر إلى المكانة التي أعطيت لهم، والمناصب التي وصلوا إليها في ظل السلطنة العثمانية.

وقد توحى تحليلات بعض من درس هذا الموضوع واهتم به أن الصورة الجديدة لتركيا العلمانية والمقطوعة عن ماضيها وتاريخها، والمتجهة بكل إصرار وقوة إلى الأوربية، هي في الحقيقة حالة محصورة في المدن الكبرى بين طبقات المثقفين والتجار والقيادات الإدارية والسياسة وقادة العسكر. لكنه لم يتجاوز هذه الطبقات لكي يصير خيارا شعبيا واقتناعا يوميا.^(٦١) لكن السواد الأعظم من الشعب ظل معزولا عن التيارات الجديدة لأسباب في طبيعتها اتساع المساحة وصعوبة الاتصال والمواصلات، وطبيعة الحياة القروية، وعلاقة سكان هذه القرى بالدولة ومؤسساتها، وارتفاع نسبة الأمية، وتعلق القرويين بالدين، وتنظيمهم الاجتماعي القبلي العشائري، ورغبتهم في الحفاظ على عزلتهم، وولائهم لمناطقهم وللدين ورموزه (الخلافة) وتمسكهم بكل ما هو تقليدي ومحافظ. فأهل القرى هولاء كان لبيئتهم ولاء مباشر للإسلام، ولم يكن بمقدورهم التفكير في احتمال التناقض بين متطلبات الدين ومتطلبات الدولة، والحقيقة أن هذه الظاهرة ما تزال بارزة حتى اليوم.^(٦٢)

(٦١) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ٣٢.

(٦٢) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ٣٢-٣٣.

كل هذه المعطيات تؤكد بأن المجتمع التركي كان وظل مجتمعا مرتبطا بهويته ولم تستطع كل حملات التغريب والأوربة أن تقضي على هذه الشعلة. والراجح أن التحولات التي عرفتها تركيا قد طبعت الارتباط بالهوية بروح جديدة ومكنتها من أن تعيد صياغة نفسها صياغة جديدة وهذا ما سنحاول تبينه في مباحث آتية في هذه الدراسة.

٥- الحرب الثقافية على الإسلام

يؤكد برنارد لويس (Lewis Bernard) أن تضخيم الإصلاحات التي قام بها كمال أتاتورك أمر مستبعد، ذلك لأن السلاطين العثمانيين أنفسهم قد سبقوه إلى الكثير من تلك الإصلاحات.^(٦٣) وهنا نرجع إلى السؤال الذي كنا طرحناه سابقا وهو "هل يكفي تغيير القوانين للقضاء على الدين والإيمان في القلوب، وهل اقتباس القانون الفرنسي أو القانون السويسري يكفي لجعل الناس فرنسيين أو سويسريين؟". الجواب جلي إذ "لم يكن اعتماد الحكومة التركية القانون المدني السويسري كفيلا أو كافيا لجعل تركيا سويسرا الشرق الأوسط، ولم يكن بالتالي كفيلا أو كافيا أيضا لجعل الجيلين التركيين، الجيل الذي عايش الإمبراطورية الإسلامية في آخر أيامها، والجيل الجديد الذي ترعرع في مطلع عهد الجمهورية، قادرين على الفصل بين انتمائهما التركي وانتمائهما إلى الإسلام،"^(٦٤) ودليل هذا هو عدد الطلبة الذين سجلوا أنفسهم في كلية الإلهيات. فقد كان

^(٦٣) The emergence of Modes of modern Turkey: P267.

^(٦٤) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ٩٤-٩٥.

عددهم ٢٨٧ بين سنة ١٩٢٧م وسنة ١٩٣٢م، ثم تقلص إلى عشر فقط سنة ١٩٣٣م الأمر الذي عجل بإغلاقها سنة ١٩٣٦، ليعاد فتحها سنة ١٩٤٩م^(٦٥). ويمكن أن تتصور علة هذا الفشل وهو ما كانت هذه الكلية تقدمه من معارف، إذ كان الأتراك على العموم يعتقدون أنها تعلم الإلحاد والمروق عن الدين والإسلام.

وبعد وفاة مهندس الثورة الكمالية ومؤسس الجمهورية سنة ١٩٣٨م دخلت تركيا مرحلة جديدة في العلاقة مع الإسلام، حيث ستشهد السنوات والعقود التي تلت وفاته نوعا من التحسن في نظرة العلمانية للإسلام وللممارسة الدينية بصفة عامة دون أن يكون ذلك تراجعاً عن مبادئ العلمانية^(٦٦). كانت السلطة الحاكمة تشعر بخطورة ما قد يجلبه التركيز على عقلانية الفرد، وعلى الجوانب المادية من فراغ روحي وعاطفي قد تستغله الحركات الدينية المتطرفة. بالإضافة إلى ما قد تخلفه الأزمات من عدم قدرة على التفسير والتحليل وخاصة في الأوساط الشعبية والطبقات المهمشة والبسيطة. الأمر الذي يجعل الدين وسيلة للهروب وملاذا للعزاء.^(٦٧)

ولتفادي هذه الوضعية وكسياسة استباقية قررت الجمهورية في سنة ١٩٤٠م إلحاق الأئمة بالجيش، وفي السنة نفسها ظهرت أولى بوادر معارضة دينية تمثلت على الخصوص في معارضة إقدام وزارة التربية في سنة ١٩٣٩م على نشر النسخة التركية من دائرة المعارف الإسلامية

(٦٥) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، الهامش: ٦٠، ص: ٤٧.

(٦٦) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ٤٨.

(٦٧) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ٤٩.

"Encyclopedia-of Islam" عندما قام مجموعة من الأتراك المتدينين بقيادة أشرف أديب (الذي كان محررا بجريدة إسلامية في عهد تركيا الفتاة) بالاعتراض على نشر هذه النسخة، مشددا على أنها ليست مع الإسلام بل ضده، لأنها إنتاج الإرساليات المسيحية الرامية إلى تهديم أسس الإسلام، وانتقد هؤلاء وزارة التربية لدعمها مشروعاً مناهضاً للدين الإسلامي. ظهرت هذه الانتقادات أولاً في رسائل وجهت إلى المسؤولين، ثم في مقالات نشرت في وسائل الإعلام، وأخيراً في دورية تولى المعارضون إصدارها بأنفسهم.^(٦٨)

وستقوم هذه المعارضة بنشر الموسوعة الإسلامية التركية (Turk Islam Ansiklopedisi) لتكون منافسة لتلك التي قامت الحكومة بنشرها من قبل، ولتكون معبراً عن وجهة النظر الإسلامية.^(٦٩)

ويلاحظ المتابع لحقيقة هذا التغيير ثلاثة أشكال من الممارسة التي تجسد الرجوع إلى الإسلام:

• الشكل الأول هو الشكل الشعبي وهو أكثر بروزاً وأقوى حضوراً لأنه متصل في المقام الأول بالسواد الأعظم من الشعب التركي. ويتمثل على الخصوص في تمويل المساجد وترميمها، وجمع التبرعات والزكوات لتمويل مدارس الأئمة والخطباء، بالإضافة إلى تزايد عدد الراغبين في الحج وزيارة البقاع المقدسة دون إهمال المظاهر الثابتة الأخرى في الممارسة الإسلامية من صوم وصلاة واحترام للباس

^(٦٨) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ٤٩.

^(٦٩) انظر: برنارد لويس نهضة تركيا الحديثة،

الإسلامي. يضاف إلى كل ذلك تزايد الإقبال على المقتطفات الدينية والأحاديث النبوية وتزايد عدد المنشورات ذات الطابع الإسلامي وتكاثر الإقبال على الجماعات الدينية، إضافة إلى تزايد اهتمام بعض وسائل الإعلام بالمناسبات الدينية كعيد المولد الشريف، بنشر قصائد وأشعار في مدح الرسول ﷺ، والاهتمام ببعض المواسم ذات الطابع الصوفي. وما يمكن أن يسترعي الانتباه في هذا المقام هو تزايد النقاش حول القضايا الدينية، التي كان العامة يخوضون فيها، مطالبين بضرورة إيجاد رجال دين أكفاء وتحسين وضع الإرث الروحي.^(٧٠)

• وأما الشكل الثاني فهو الشكل الذي برز فيه جمهور السلطة الحاكمة نفسها والذي تمثل على الخصوص في رفع القرار المانع للأذان باللغة العربية في سنة ١٩٥٠م. وبعده بدأت الإذاعات الرسمية تذيع بثا منظما لتلاوة القرآن الكريم، كما سمح بتعميم تعلم حصص المادة الدينية للجميع إلا من رفض ذلك.

وقد نتساءل هل كان هذا التسامح نوعا من الثورة ضد مبادئ كمال أتاتورك أم كان مجرد سياسة وقائية وخطة حمائية من جهة أن المنع الصارم يؤدي إلى ظهور ظواهر غير محسوبة النتائج وغير مقدور على التحكم فيها.

• وأما الشكل الثالث فقد مثله بروز بعض الحركات الإسلامية ذات البعد السياسي رغم ارتكازها على مرجعية روحية كالطريقة التيجانية التي برزت قبل الحرب العالمية الأولى ليخفت صوتها منذ ١٩٢٥م، لتظهر

⁽⁷⁰⁾ REED Howard, Revival of Islam in Secular turkey: Middle east journal, p:271-272.

بعد الحرب العالمية الثانية، ولا يخفى في هذا الإطار التطور الكبير الذي عرفته تركيا على أثر رغبتها في التحول إلى دولة صناعية؛ الأمر الذي نتج عنه هجرة عدد كبير من الباحثين عن ظروف أفضل للعيش، الأمر الذي زاد من عدد السكان في المدن الكبرى وزاد معه حاجتهم وتوسعت معه مصالحهم ومطالبهم وأدى كذلك إلى نشوء طبقة متوسطة مع ما يمثله هذا النشوء من تحول في العقليات وفي نمط التفكير.

وأما الطبقات الأخرى وخاصة الدنيا فكانت هي الأخرى ذات تطلعات خاصة لا تختلف كثيرا عن تطلعات الطبقة الوسطى. وهكذا بدأت التحولات الاقتصادية والتعليم العلماني والتحديث الاجتماعي ينافس القيم الدينية وظهر ذلك على الخصوص في وسط الطبقة العمالية، حيث صار العامل التركي أكثر انفتاحا على المفكر والسياسي الذي يحثه على ضرورة المحافظة على التوجه الغربي، بل لقد كان لهذه الطبقة (الطبقة العمالية) مطالب لم يستطع الحزب الديمقراطي الحاكم التعاطي معها.

حاولت حكومة عدنان مَندَرِيس أن تتقدم بإصلاحاتها من أجل صورة جديدة لتركيا، لكن الأمر ما لبث أن تداعى بإعلان انقلاب ٢٧ ماي ١٩٦٠م الذي أطاح بالحكومة المدنية التي كان مندريس يرأسها.^(٧١)

وستعرف فترة ١٩٦١م-١٩٦٥م عودة للحياة الديمقراطية وشكلت العديد من الحكومات الائتلافية، أقرت أغلبها بشرعية مطالب الطبقة المتوسطة والتي يشكل العمال الجزء الأكبر منها، وتمكنت الطبقات العمالية من "سن المواقف الرسمية من الحركة العمالية، ومن إصدار

^(٧١) Histoire de la Turquie contemporaine, Editions la découverte, p:59.

التشريعات التي جعلت من العمال المؤطرين في اتحادهم مواطنين مشاركين وفاعلين في تحديد المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وتحديد حل لها شواهد معبرة.^(٧٢) "والذي لا شك فيه أن هذا الأسلوب نجح في التغلب على إرث عثماني، كانت الجمهورية عاجزة عن تخطيه، إنه نجح في ردم الهوة العميقة بين الشعب والمفكرين والقادة"^(٧٣).

وإذا استثنينا محاولات "حزب الخلاص الوطني" الذي حصل على نسبة ١٢٪ من أصوات الناخبين في انتخابات ١٩٧٣م والذي لم يستطع أن يتجاوز نسبة ٨,٦٪ في انتخابات ١٩٧٧م، فإن الأحزاب ذات التوجه الديني لم تستطع التميز واستقطاب الأصوات ولم تكن قادرة على إثارة التخوف من تنامي الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام السياسي، الأمر الذي فسره البعض على أنه نجاح للسياسة العلمانية واستمرارها على الصعيد الشعبي. وقد ترجم ذلك في دستور ١٩٧٢م من خلال التنصيب على أن الجمهورية التركية دولة علمانية.^(٧٤)

٦- رفع القيود على الدين

وعلى العموم يمكن القول بأن مرحلة تعدد الأحزاب قد عرفت رفع العديد من القيود المفروضة على الدين، وحصل نوع من الانبعاث الإسلامي، الأمر الذي أدى إلى ظهور أحزاب تخاطب المشاعر الإسلامية. "وقد أصبح الآن من المسلم به في تركيا أن العلمانية لم تعد من المسائل

^(٧٢) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ٥٧.

^(٧٣) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ٥٧.

^(٧٤) الإسلام والسياسة في تركيا، مرغريت حلو، ص: ٥٩.

الجدلية التي فيها أخذ ورد، غير أن الجدل استمر حول العديد من الأمور التي لها علاقة بالإسلام^(٧٥).

و هناك أسباب كامنة وراء عودة الأتراك إلى الإسلام وخاصة في الفترة الأخيرة، ومن هذه الأسباب نذكر:

١- اقتناع الكثير من المفكرين والفلاسفة بعدم جدوى الاهتمام بالفلسفة الوضعية العلمانية منذ الحرب العالمية الثانية، وجعلها المسار الوحيد في منظومة التفكير.

٢- تخوف السلطة الحاكمة من قيام أو حدوث ثورة تقيم نظاما إسلاميا يؤدي إلى سيطرة إيديولوجية تقليدية.

٣- انتشار المبادئ الديمقراطية التي عمقت الوعي السياسي لدى سكان البوادي، ونمت إحساسهم بالحرية وخاصة حرية المعتقد وحرية التفكير.

٤- الخوف من انتشار الفكر الشيوعي في ظل التهديد الذي مارسه السوفييات على تركيا بعد الحرب العالمية الثانية، وهو ما دفع الأتراك إلى التفكير بجدية في ضرورة منح المجتمع حصانة أخلاقية وروحية واجتماعية.^(٧٦)

ويمكن القول بأن لهذه العودة أسبابا وليس أسراراً، ولعل من أهم الأسباب استمرار جذوة الفكر الإصلاحى الإسلامى على مدى سنوات

^(٧٥) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا حاضرها ومستقبلها (دراسة حول الصراع بين الدين والدولة في تركيا)، أحمد نورى النعمى، دار البشير، ط: ١، عمان/الأردن، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، ص: ٧.

^(٧٦) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، أحمد نورى النعمى، ص: ٣٦.

طويلة؛ فالدور الذي لعبه الفكر الحركي الإسلامي بمختلف مشاريعه كان حاسما في المحافظة على بقاء المجتمع التركي على صلة بالهوية الإسلامية دون التهاون في التفاعل الإيجابي كلما دعت الضرورة إلى ذلك مع المستجدات الثقافية والفكرية والاجتماعية التي عرفها المجتمع التركي في مرحلة الجمهورية، وخاصة العلمانية.

ينقسم الفكر الإصلاحى المتصل بالخلفية الإسلامية في تركيا إلى قسمين كبيرين:

القسم الأول اختيار المجال السياسى أو ما يسمى بالإسلام السياسى معتركا للإصلاح، واعتبار الوصول إلى السلطة سبيلا يسهل عودة تركيا إلى جسدها الإسلامى.

القسم الثانى اعتبر الانخراط فى المجتمع والعمل المدنى والاجتماعى والابتعاد قدر الإمكان عن العمل السياسى ومعتكره هو الأساس الذى يحقق إيجاد مجتمع فعال منخرط فى العصر. وفى ظنى أن مثل هذا التوجه هو الذى يتوفر على القوة الأكبر تأثيرا فى مختلف مكونات المجتمع والواقع بما فى ذلك السياسة.

وسنحاول فى الفقرات الآتية التحدث عن أهم هذه التيارات من زاوية أن الموضوع الرئيسى فى هذا البحث هو الحديث عن شخصية تعتبر اليوم من أكثر الشخصيات تأثيرا فى الواقع التركى بفكره وحركته وأتباعه، وهى شخصية يعترف بها العدو قبل الصديق والمنافسون قبل الأتباع، "الأستاذ فتح الله كولن".

من يتعرض للحديث عن الفكر الإصلاحى ذى الاتجاه الإسلامى فى تركيا اليوم لا بد له من الوقوف عند شخصية الأستاذ فتح الله كولن، ولا

بد له من أن يقف عند شخصية "الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي" الذي كان ملهمًا لحركة إصلاحية بارزة للعيان. والحديث عن الحركة هنا لا يعني أن الرجل قد سعى إلى بناء كيان منظم ومهيكل، فهذا لم يحدث ولم يسمح الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي به، إذ كان يلحّ دائمًا على ضرورة الالتفاف حول "رسائل النور" التي كان يعتبرها فيضا من فيوضات القرآن الكريم.

ولد النورسي سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٦م في قرية نُورُس (NURS) التي يُنسب إليها، حتى صارت هذه النسبة علماً عليه عرف بها في تركيا وخارج تركيا. تلقى تعليمه الأول على يد مشايخ وعلماء شرق الأناضول حتى حصل على الإجازة في سن الخامسة عشرة، ثم انتقل إلى إسعُرد (Siirt) في جنوب تركيا، ومنها إلى مازدين (Mardin) في جنوب شرق تركيا (١٣١٠هـ / ١٨٩٢م)، ثم إلى وَاَن (Van) في ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م، وهناك ركز على تعلم العلوم التي لم يتلقاها على شيوخه في شرق الأناضول، فدرس التاريخ والجغرافيا والرياضيات والجيولوجيا والفيزياء والكيمياء والفلك، والفلسفة.^(٧٧)

وقد شهد له بموهبة الخارقة وقدرته الكبيرة على الحفظ والاستيعاب "ومن الجدير بالذكر أن "سعيد" لم ينتسب إلى أية طريقة صوفية كما هو المعتاد في الأناضول"^(٧٨)، فقد كان له مواقف مشككة في قدرة الطرق الصوفية على إكساب الإسلام حيويته، ولكنه مع ذلك فقد تأثر إلى حد كبير بمتصوفة الأناضول. ويذكر شريف مازدين (Şerif Mardin) -وهو

^(٧٧) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، أحمد نوري النعيمي، ص: ١٥٧.

^(٧٨) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، أحمد نوري النعيمي، ص: ١٥٧.

أحد علماء الاجتماع الأتراك البارزين - أن سعيد النورسي هو نتاج النشاط الصوفي النقشبندي في الأناضول، لكنه يمثل انعطافاً،^(٧٩) ولا ينبغي لهذا الرأي أن يحجب أن سعيد النورسي آمن بأن مناهج التعليم التقليدية التي كانت سائدة في تركيا أواخر الدولة العثمانية كانت عاجزة عن إنتاج نموذج بشري يستطيع الإجابة عن أسئلة العصر، وهذا الذي جعله يجتهد بكل قوة في سبيل إنشاء "مدرسة الزهراء" التي كان يتطلع لأن تكون على غرار الجامع الأزهر في مصر، وأن يجمع منهج التدريس فيها بين العلوم الشرعية والعلوم الطبيعية، وأن يدرّس فيها علماء أكراد وأتراك بغرض خدمة الإسلام في الأناضول.^(٨٠)

٧- النورسي نموذج المصلح المتفتح

تمكن سعيد النورسي بحكم تمكنه من مخالطة الأوساط المثقفة والنافذة في الدولة العثمانية من أن يتعرف على الأفكار الأوربية ورأبها في الإسلام وفي الدولة العثمانية، وأن يدرك مدى التفاوت بين الواقع الحضاري الأوربي وواقع المسلمين بصفة عامة والدولة العثمانية على وجه الخصوص. ولذلك لم يرفض الأفكار الأوربية وسعى " لتطوير نمط تفكير نقدي داخل التقاليد العثمانية بدلا من أنماط التفكير الأوربي. ووجد أن ذلك النمط الجديد يستوجب لهجة خطاب جديدة يوائم بين العقلية الأوربية والتقاليد العثمانية الإسلامية"^(٨١). ولهذا السبب أيد المشروطة

^(٧٩) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، أحمد نوري النعيمي، ص: ١٥٧-١٥٨.

^(٨٠) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، أحمد نوري النعيمي، ص: ١٥٨.

^(٨١) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، أحمد نوري النعيمي، ص: ١٥٨.

وتفاعل معها من زاوية أنها قد تكون وسيلة من وسائل بث روح التجديد في المجتمع الإسلامي على وجه العموم والمجتمع العثماني على وجه الخصوص.

وقد ألقى بهذه المناسبة خطبة في ميدان الحرية بمدينة سلانيك (Selanik) بث فيها مفهومه لـ "الحرية الشرعية" التي يضع الشارع ضوابطها ويبين حدودها في مقابل "الحرية الفوضوية" التي لا تتضبط لأي ضابط. وألح في الخطبة نفسها على ضرورة الاستفادة من التقدم العلمي واقتباسه من الغرب، لكن دون أخذ الجوانب السلبية في الحياة الاجتماعية للغرب. ثم ألح على أن تأخر الدولة العثمانية ترجع مسؤولته إلى ثلاث فئات هي: فئة علماء الدين، وفئة المتعلمين (الذين لم يفهموا الغرب فهما صحيحا)، ثم فئة أصحاب التكايا الذين انغلقوا على أنفسهم واتهموا الناس بالكفر والخروج عن الدين.^(٨٢)

ولذلك سعى سعيد النورسي إلى إيجاد نوع من التوافق بين الرؤية الإسلامية والمشروطية من خلال البحث عن عناصر الالتقاء؛ الشيء الذي يكشف مدى انفتاح رؤيته وتفاؤله بالمشروطية على اعتبار أنها قد تحمل حلا لأزمة الأمة. وما يدل كذلك على هذا التفاؤل هو محاولته بعد إلغاء السلطنة سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م، والخلافة سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م، توجيه السلطة الجديدة نحو إعطاء أهمية كبرى للدين في السياسة الداخلية، مع اتباع سياسة واضحة ذات رؤية إسلامية نحو الاتحاد الإسلامي.

وتعتبر زيارته لـ "أنقرة" العاصمة في نهاية سنة ١٩٢٢م مرحلة حاسمة

^(٨٢) انظر: رجل القدر في حياة أمة، أورخان محمد علي، ص: ٣٧.

في حياته، لأنه سيدخل بعد ذلك في مرحلة جديدة، حيث لاحظ بأن الإيمان في خطر، وأدرك أن الوضع يحتاج إلى من يحول دون الإجهاز على ما تبقى من روح إسلامية في المجتمع التركي، ولذلك سيعلن ميلاد "سعيد الجديد" قاطعا العلاقة مع السياسة، ومنبريا لإنقاذ الإيمان. ولم يعمل النورسي خلال هذه المرحلة الجديدة على توجيه محبّيه إلى معارضة الأفكار العلمانية بصورة علنية بل "وجّههم لتشكيل عالم ذاتي لا تصله هذه التغييرات، والمحافظة على هذا العالم من تدخل الدولة. وطالب سعيد النورسي المسلمين بإصلاح حياتهم والانشغال بأنفسهم وعالمهم الداخلي" (٨٣).

لقد ركز النورسي في هذه المرحلة على أمرين:

- الأول هو إيجاد مساحة معنوية تكون بمثابة الحصانة ضد التغييرات التي كانت الجمهورية تجتهد في إدخال كل الأتراك في إطارها من خلال فرض الفكرة العلمانية بالمفهوم الذي فهمه كمال أتاتورك. وأما المستهدف في مشروع النورسي فهو "الفرد المسلم والأسرة المسلمة، وأوضح أن دينك المستهدفين لا يمكن للحكومة مجابتهما، ولا التدخل في خصوصيتها؛ فالحكومة والنظام الأمني يتعامل مع الملموس ولا يدخل القلوب، ومن هنا جعل كفاحه متعمقا، مستهدفا الفرد، ناظرا إليه على أنه نواة الأمة وآلية الحياة" (٨٤).

- الثاني السعي إلى إيجاد رؤية إيمانية تراعي معطيات الواقع العصري الذي حققت فيه العلوم الطبيعية تقدما كبيرا يفتن الألباب ويأخذ

(٨٣) رجل القدر في حياة أمة، أورخان محمد علي، ص: ١٢٦.

(٨٤) رجل القدر في حياة أمة، أورخان محمد علي، ص: ١٢٦.

العقول، ووظفت توظيفاً من أجل نشر الشبهات حول الإسلام. وقد تمكن من خلال رسائل النور أن يبني منظومة من الأدلة المستقاة من القرآن الكريم ومن التدبير المتأنّي في الظواهر الكونية أو ما كان يطلق عليه "القرآن المنظور".

تمكن سعيد النورسي خلال سنوات طويلة من المنافي والسجون أن يؤلف مجموعة من الرسائل في حقائق الإيمان أطلق عليها فيما بعد "رسائل النور". وقصة انتشار هذه الرسائل في أرجاء تركيا جديرة بالاهتمام، فأمام الحصار الذي ضرب على بديع الزمان سعيد النورسي وبالنظر إلى الحصار الذي مارسه السلطة الحاكمة على كل ما له علاقة بالإسلام وخاصة نشر الكتب الإسلامية، كان النسخ باليد هو الوسيلة التي لجأ إليها النورسي في نشر رسائله بين الناس في مختلف أنحاء تركيا؛ وذلك بالاعتماد على شبكة من النساخ مقتنعين بفكر النورسي وبفكر الرسائل. وبسبب هذه الرسائل حوكم النورسي بتهمة المس بأمن الدولة والعمل على تكوين دولة إسلامية، لكنه كان في كل مرة يبرأ ولا تستطيع لجان الفحص العديدة التي فحصت الرسائل أن تعثر على ما يدين النورسي ويدين الرسائل حيث أكدت العديد من الخبرات التي أنجزتها اللجان العلمية بأمر من السلطات القضائية والسياسية خلوها من أي إشارة إلى قضايا سياسة واقتصارها على إبراز حقائق الإيمان.

وبناء على ما تقدم يمكن القول إن مشروع النورسي الإصلاحية قد

اعتمد على المرتكزات الآتية:

أ- الفهم العميق لحاجة المجتمع

بعد قيام الجمهورية وتمكنها من بسط سلطتها على كل مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية، ويأس النورسي من أي أمل يرجى في الحكام الجدد وإدراكه بأن الواقع في حاجة إلى ما هو أقوى من مجرد مقالات صحفية ومواجهة السلطة الحاكمة المتسلطة بالمعارضة، أي إلى نوع آخر من المواجهة، لأن الذي قامت السلطة الجديدة كان ثورة استهدفت تغيير العقليات والثقافة، وكان من اللازم -كما تصور النورسي- دون الإفصاح عن ذلك مباشرة هو القيام بثورة أخرى تستهدف إعادة ربط المجتمع بهويته العقديّة والإيمانية. يقول طارق عبد الجليل السيد: "مع تأسيس الجمهورية التركية وحدوث الانقلابات الاجتماعية والسياسية داخل تركيا، أحس سعيد القديم بأن أنشطته القديمة في إصلاح الدولة عن طريق كتابة المقالات من الصحف والمجلات والمشاركة السياسية في الهيئات والجمعيات، وكذلك جهوده في الدفاع عن قضايا الوحدة الإسلامية، لم تعد تجد شيئاً، وأن مرحلة جديدة بدأت في الحياة السياسية والاجتماعية بتركيا غيرت سلم الأولويات، وقلبت الموازين الاجتماعية والقيمية والتوجهات السياسة الخارجية رأساً على عقب"^(٨٥).

ولذلك فقد رأى بأن إنقاذ الإيمان هو السبيل إلى ذلك وبأنه هو العنصر الذي يعتلي سلم الأولويات بالنسبة للإصلاح، كان يعتقد بأن المنهج يجب أن يكون منسجماً مع الفطرة وقوانينها التي هي نفسها

(٨٥) الحركات الإسلامية في تركيا المعاصرة، طارق عبد الجليل السيد، دراسة في الفكر والممارسة، جواد الشرق للنشر والتوزيع، القاهرة ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ص: ١٧٥.

القوانين المتحكمة في الكون.^(٨٦)

إن أهم ما يستشف من توجه النورسي الجديد هو القيام بنوع من الجهاد المعنوي الذي يستهدف بناء المجتمع. وهذا هو تفسير إلحاحه على الاهتمام بالرسائل باعتبارها إلهاما من الله، مع حرصه على أن تكون هي الغذاء الفكري الوحيد الذي يسمح للناس بأن يحافظوا على حصانتهم العقدية والإيمانية، وبأن يتمكنوا من الوقوف في وجه الأمواج العاتية الصادرة عن الفكر الطبيعي والتوجه العلماني للدولة.

ب- تربية الأجيال على هذه الروح المعنوية

يقول إحسان قاسم الصالحي في تقديمه لـ"الملاحق" عن طبيعة المرحلة من حيث طبيعة التوجه التربوي: "ومن هنا نرى أن مرحلتي "بارلا" و"قَسْطُمُونِي" (١٩٢٧م-١٩٤٤م) وكذا أميردَاغ تتميز بالعمل السري التام والتأسيس السري الصامت، والتأكيد على الحذر الشديد لإرساء القواعد وتربية طلاب يتحلون بالإخلاص الكامل والتفاني في العمل، والوفاء الخاص والشغف بالدعوة والارتباط المتين بها"^(٨٧). لم يكن النورسي في أي لحظة معنيا بأن يكثر الأتباع بقدر ما كان معنيا بالكيف، فالعمل الذي استقر في داخله إنجازُه أو بالأحرى ألهمه الله إنجازُه هو إيجاد جماعة من المخلصين المؤمنين بالفكرة، الأقوياء في ذواتهم، والواثقين بوعد الله. وتربية هذا الجيل التأسيسي لا بد له من الشقيين وهما الرجل والمرأة؛ فلقد آمن النورسي بأن الاعتماد على شق واحد قد يكون عنصر تكسير

^(٨٦) انظر: المكتوبات، سعيد النورسي، ص: ٣٦٢؛ صقييل الإسلام، سعيد النورسي، ص: ٢١٥.

^(٨٧) الملاحق في فقه دعوة، سعيد النورسي، المقدمة، ص: ٧-٨.

لشوكة العمل لعلمه بأن توحد جهود الطرفين معًا ستكون عنصر قوة للعمل.

وفي الإطار نفسه نلاحظ أن النورسي دائم الإلحاح على أهمية الشباب وضرورة إعدادهم الإعداد اللازم للقيام بالمهمة الجليلة، وذلك لأنهم يمثلون المستقبل؛ وعدم إنقاذ إيمان أجيال الشباب، يعني أن المستقبل لن يكون على الصورة التي كان النورسي يطمح إليها. ونظرا لأهمية عنصر الشباب، ونظرا كذلك لمعرفة النورسي بالمخاطر التي تحف بهم في ظل الواقع الجديد، كان النورسي (رحمه الله) كثير الإلحاح على توجيه الخطاب إليهم حاثًا إياهم على الالتزام بروح الدين وتحذيرهم من مغبة الانزلاق إلى الشرك الكثيرة جدا المنصوبة لهم في كل مكان وفي كل وقت وحين.

وكما اهتم النورسي بالشباب اهتم بالمرأة لكونها العنصر المكمل لدور الرجل، بل لأن المرأة في نظر النورسي هي المجتمع كله، ولذلك ألح على ضرورة العناية بها وضرورة اشتراكها في المشروع الإصلاحية الذي آمن به، لعلمه بأن إعداد المرأة الإعداد اللازم هو إعداد لمجتمع المستقبل، وهو كذلك إعداد للقاعدة الأساسية لصالح المجتمع.

وفي الإطار نفسه وجدنا النورسي يلح على ضرورة الاهتمام بالأسرة والبيت المسلم، وضرورة إعداد أفرادها إعدادا يتناسب مع توجهات القرآن الكريم، ومع السنن الكونية. واهتمام النورسي بهذا المكون هو في العمق اهتمام بمكون مركزي في المجتمع، لأن إصلاح المجتمع لا يتأتى إلا بإصلاح المكونات الصغرى، والأسرة أهم هذه المكونات الصغرى.

يعتبر النورسي محطة ذات أهمية كبيرة جدا لا يمكن المرور عليها عندما يتعلق الأمر بالفكر الإصلاحى الحديث فى تركيا. فلقد أثر بوجه أو بآخر فى جهود العمل الإصلاحى فى تركيا الحديثة أو فى تركيا الجمهورية. لقد كانت أفكار النورسى من خلال رسائله منارة ترسم منهج إعادة بناء المجتمع وبناء الإنسان بصورة هادئة دون صدام أو مواجهة مع السلطة الحاكمة. ولقد كان إيمانه بهذا الهدف السامى هو المحرك القوى الذى جعل "سعيد الجديد" يلعن السياسة ويتعوذ منها بقوله: "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة". ولا ينبغي فهم ذلك على أنه هروب من المواجهة، بل هو الحكمة التى تعرف أن دخول معركة من المعارك دون وسائل وأدوات تعتبر معركة فاشلة وخاسرة، ولذلك فإن ترك السياسة بالنسبة للنورسى هو فى العمق ترك لما يحول دون العمل الحقيقى وهو البناء. لأن السياسة مصدر للخلاف والتنازع ونشر الفرقة، والاشتغال بها هو اشتغال بما يفرق، ويؤدى إلى النزاع، ويلهى عن العمل الحقيقى وهو بناء المجتمع.

لم يكن النورسى بصورة ما بعيدا عن السياسة، لأنه ظل حاضرا فى جوهرها، لكن بصورة غير مباشرة. وبغض النظر عن الأجيال المؤمنة التى ربطت بالقرآن وبالإسلام الصافى فإن أفكاره قد أثرت بصورة مباشرة فى رؤية العديد من الحركات المدنية والسياسية. وهنا كذلك لا يمكن القول بأن أفكاره قد أثرت فى الحركات ذات الاتجاه الإسلامى فحسب بل إن تأثيره قد امتد حتى إلى التيارات الأخرى الليبرالية والماركسية وغيرها، إما بدفعها إلى تغيير أفكارها بما يتلاءم وجود أفكار النورسى المنتشرة بين مختلف فئات المجتمع وطبقاته، وإما بالاقتراس من أفكاره ومنهجه، وإما

بالتماس ود الجماعة سواء على حياته (مرحلة سعيد الثالث) أو بعد وفاته. ولا يمكن تجاهل الدور الذي أدته الدعوة النورية بصورة غير مباشرة في تغيير النظرة النمطية التي تحكمت في السلطة الحاكمة منذ إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م. فقد كانت أفكار النورسي وعمق انتشارها في المجتمع دافعا للسلطة السياسية في أن تعيد النظر في الكثير من مظاهر محاربة الإسلام في المجتمع التركي. رفض النورسي الانخراط في السياسة حتى لا يكون الدين مطية للسياسة ولأجل ألا يكون أيديولوجية لتحقيق أهداف عابرة وليس نتائج دائمة.

ت- التركيز على الجماعة

كان النورسي في إطار منهجه الإصلاحية دائم الإلحاح على ضرورة العمل الجماعي وأفضليته على العمل الفردي، بل كان دائم الإلحاح على أن القوة حليفة العمل الجماعي والضعف حليف العمل الفردي، ولهذا كان النورسي حريصا على أن يذكر أصحابه وطلاب النور بضرورة التمسك بأسباب النجاح في العمل، وهي:

- التعاون والاتحاد وعدم الاختلاف،
- الإخلاص وابتغاء وجه الله.

وربما كان هذا الشعور هو الذي جعل النورسي ينوء بنفسه عن الرد على الخصوم وكذلك صار طلبة النور بعد وفاته رحمه الله. فلم يعرف على النورسي أنه رد على خصومه أو دخل معهم في جدل، والعلة كذلك واضحة؛ حيث يمكن اعتبار الرد على الخصوم ومجادلتهم

نوعاً من التناقض مع المراكز التي اعتبرها النورسي أساسية في مهمة الإصلاح، وهي محاربة الفرقة التي هي إلى جانب الفقر والجهل أهم أعداء الإنسان والمجتمع، والتي لا يتأتى إصلاح المجتمع دون محاربتها، ولذلك فالدخول في الجدل سبيل إلى إرساء الفرقة وبث النزاع بين فئات المجتمع.^(٨٨)

يقول طارق عبد الجليل: "ولعل صفة "جماعة العمل" عند النورسي بما فيها من مرونة في التعامل مع معارضيه، هي التي مكّنت حركة النور من الانتشار داخل الحياة الاجتماعية في تركيا ووصولها إلى فئات عديدة من الشعب، والنخب المثقفة، وكذلك سهلت لها الاستفادة من الخدمات المؤسسة بأجهزة الدولة. وخاصة كذلك بصورة لا تشعر النظام بالقلق اتجاهها، وكذلك مكنت لها الانتشار خارج حدود تركيا في آسيا الوسطى وفي أوروبا وأمريكا وكذلك التواجد في الوطن العربي"^(٨٩).

٨- دعوة فتح الله كولن

من الأسئلة الأساسية التي تطرح عندما يتعلق الأمر بالأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، الأسئلة المتعلقة بمدى ارتباط دعوة الأستاذ فتح الله كولن بحركة النور. فشخصية الأستاذ فتح الله كولن شخصية ذات مؤهلات وقدرات خاصة، خطابية وكتابية، بالإضافة إلى مؤهلات أخرى ستعرض لها لاحقاً.

أهم ما يربط دعوة فتح الله بالحركة النورية هو الرسائل؛ فأدبيات

^(٨٨) انظر: الملاحق، سعيد النورسي، ص: ١٩٩، ٢٨٥.

^(٨٩) الحركات الإسلامية في تركيا المعاصرة، طارق عبد الجليل السيد، ص: ١٩٤-١٩٥.

الأستاذ فتح الله تشير في كثير من المواطن إلى أهمية رسائل النور وتشير إلى قيمتها التربوية، وهي موجودة ضمن المصادر المقررة إن صح هذا التعبير في منهج التربية المعتمد لدى المجموعة. وما يؤكد ذلك هو أن للأستاذ فتح الله مقالات حول شخصية الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.

إن تأثر الأستاذ فتح الله بالنورسي من خلال رسائل النور لا يمكن إنكاره ولا يمكن تجاهله ولا يمكن لأحد مهما بلغ من التعصب للأستاذ فتح الله كولن أن ينكر هذا التأثير. وهذا ليس بالأمر المستغرب لأن النورسي استطاع التأثير في أجيال من الأتراك وطبع الحياة الروحية والحياة الاجتماعية بطابع خاص لا يمكن إنكاره. ولكن مع كل ذلك فإن فتح الله كولن كما استفاد من الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، استفاد من غيره من أعلام الفكر في مختلف الحقول الدينية منها والصوفية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية. وقد مكّنته ثقافته العميقة والمتنوعة بالإضافة إلى شخصيته الحركية من أن يتفرد برؤية خاصة تمكنت من التغلغل في ثنايا المجتمع، واستطاعت أن تبني حركة مدنية جديدة بالاهتمام وجديرة بالدرس والتحليل. وهذه الحركة الحية ليست وليدة يوم وليلة بل هي وليدة عمر صرفه الأستاذ فتح الله في خدمة المجتمع وفي بناء الإنسان. لقد نذر حياته كلها لهذه المهمة السامية، بل يمكن القول: إن الأستاذ فتح الله قد حقق وصية الأستاذ بديع الزمان التي كانت تحث على أهمية رسائل النور التي هي تفسير للقرآن الكريم كما يقول إحسان قاسم الصالحي، بالإضافة إلى أن الأستاذ فتح الله قد استطاع بكل ما حصل عليه من معارف أن يُنزل فكر الأستاذ بديع الزمان إلى

الواقع من خلال إقناع الناس بإنشاء المشاريع الحضارية النافعة التي تبني الحضارة وتعود بالنفع على الإنسان، واستطاع تقديم إضافات نوعية تجديدية إلى فكر سعيد النورسي.

يعتبر "مشروع الخدمة" مجالاً يثير اهتمام علماء الاجتماع في العالم كله. ولا يكاد يمضي يوم دون أن يتم تنظيم ندوة أو مؤتمر أو تقديم محاضرة حول الأستاذ فتح الله في مختلف مناطق العالم، وخاصة في أمريكا وفي أوروبا. الأمر الذي يفسر الأهمية المعرفية التي يكتسيها موضوع "الخدمة"، وفكر الأستاذ فتح الله كولن.



الفصل الثاني:
الأستاذ فتح الله كولن العالم المفكر



المبحث الأول: شخصية معرفية متعددة

توطئة

أكبر إشكال معرفي يواجه الباحث في فكر الأستاذ فتح الله كولن، هو صعوبة تصنيف الرجل معرفيا، نظرا لأن كل مفاهيم تصنيف الرجال والأعلام لا تستطيع استيعاب الطبيعة المعرفية المركبة للرجل. ويبقى العنصر الناظم لكل مواهبه المعرفية هو قدرته على التأثير، وهي الميزة التي صُنِّفَ على أساسها الشخصية المثقفة الأكثر تأثيرا في الناس في القرن العشرين، من خلال استطلاع مجلة السياسة الخارجية Foreign Policy الأمريكية المعروفة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية.

يفرض التناول العلمي والموضوعي ألا نستعرض من شخصية فتح الله كولن المعرفية إلا المعارف الكسبية التي اكتسبها منذ طفولته، وأثناء شبابه والمراحل الأخرى؛ لأن المتنعم في مجموع حياة الرجل سيلمس أن جوانب وهبية في شخصية الرجل حاضرة بقوة، وهبت لفتح الله برياضة روحانية ألزم نفسه بها، ومسلك صوفي معتدل ومتوازن تظهر ملامحه في شخصيته وكتاباته ومواظبه وخطبه، فهذه الجوانب موجودة في شخصية الأستاذ لا يمكن إنكارها.

وأما الجوانب الأخرى الكسبية فتكشف بأن الرجل قد كتب له في

طفولته أن يتحصل معرفة تقليدية رصينة ساهم فيها العديد من مشايخ المدارس العتيقة المنتشرة في بوادي الأناضول، والتي كانت تقدم المعارف الإسلامية بأسلوب عتيق وتقليدي، وساهم فيها الأسرة وخاصة الجد القوي الشخصية والجددة كذلك صاحبة الروحانية العالية.. ثم الوالد الذي أبى إلا أن يكون أبا وصديقا لفتح الله الفتى القوي الشخصية، وأن يصاحبه في طلب العلم ويشجعه عليه.. أما الأم فلم تدخر جهدا في أن يتقن الطفل فتح الله القرآن الكريم منذ سن مبكرة. والحاصل أن فتح قد أتيح له أن يتربى تربية إسلامية أصيلة رغم الظروف القاسية التي كانت تجثم على الواقع وتحاصره.

أولاً: التعدد المعرفي في شخصية فتح الله كولن

بالنظر إلى مختلف المصادر المعرفية التقليدية التي درسها على شيوخه^(٩٠) أو التي درسها وحده، فقد أكسبه هذا كله استحقاق صفة "العالم". ولذلك فإن فتح الله عالم من علماء الشريعة المجتهدين، جلس للإفتاء ودرس العلوم الشرعية وتخرج على يده ثلة من الطلبة والعلماء هم اليوم فرسان في الحركة الطيبة التي تأسست بفضل صدقه وإخلاصه، وبعبارة أخرى إن شخصية العالم وفق المنظور الإسلامي الدقيق تتسجم كلية مع الأستاذ فتح الله.

^(٩٠) انظر في هذا الإطار ما كتبه فريد الأنصاري عن الأستاذ في "عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن، رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب"، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م؛ وانظر كذلك البحث الذي قدمه إبراهيم البيومي غانم، في مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، معالم في سيرة "خوجا أفندي: محمد فتح الله البسام الأناضولي"، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩. دار النيل، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص: ٢١٥-٢٥٦.

لكن هذا التصنيف مع ذلك يظل بعيدا عن أن يوفي الشخصية المعرفية للأستاذ حقها، لأن الرجل كان مسكونا منذ طفولته بحب المعرفة وحب المطالعة، فلم يوفر جهدا في سبيل تحصيل معارف أخرى، ولذلك لم ير الأستاذ إلا بين الكتب أو في شأن له علاقة بها، فتعرف على العديد من المجالات المعرفية كالفلسفة وعلم الاجتماع والآداب العالمية المختلفة بإبداعها ونظرياتها ومناهجها، ومن أبرز من قرأ لهم من مفكري الغرب "وليام شيكسبير"، "بلزاك"، "فولتير"، "جان جاك روسو"، "كانط"، "زولا"، "غوثة"، "ألبير"، "كاياموس"، "سارتر"، "بنارد"، "راسل"، "بوشكين"، "تولستوي"^(٩١) وكانت له وقفات عميقة ودقيقة مع العديد من النظريات العلمية وخاصة تلك التي تعارض المعرفة الدينية والسنن الكونية، والتي غزت بعض العقول فأفسدتها.

استطاع فتح الله بفضل عصاميته وبفضل ثقافته الأصيلة أن يقف على مواطن الخلل في كل هذه النظريات وأبطل ادعاءاتها بخطاب علمي منطقي عقلاني^(٩٢)، بالإضافة إلى استحضاره روح القرآن الكريم، وبعبارة أخرى يمكن القول إن الأستاذ فتح الله قد حصل ثقافة عصرية تصنفه في دائرة المثقف العصري، لكن هذا المفهوم يحمل حمولة غريبة لأنه صيغ في ظل الفكر الحدائي الذي ساد في أوروبا منذ القرن السابع عشر، ولا أظن بأن هذا المفهوم يساعد على تصنيف الرجل معرفيا بالإضافة إلى أن

(٩١) انظر: الدرس ومنهج التديس، جوانب مجهولة في فكر الأستاذ فتح الله كولن، أركون جابان، مجلة "الأمل الجديد" (بني أميت)، العدد: ٨٩، يوليو ٢٠١٠م.

(٩٢) تبرز خبرته في هذا المجال في كتابه "حقيقة الخلق ونظرية التطور"، دار النيل، ط: ٤، القاهرة

الأستاذ نفسه قد لا يقبل أن يصنف في هذه الدائرة. وللاستاذ مواهب أخرى تضاف إلى شخصية العالم، ويتيح بعضها الآخر تصنيفه في دوائر معرفية مختلفة، فالمعروف أن الأستاذ خطيب مفوه وقدرته على التأثير في الجموع كبيرة، بالإضافة إلى مهارته في الحوار، دون الوقوع في الجدل حتى مع أشرس المعارضين والخصوم، وهذه في حد ذاتها أوصاف كان السلف الصالح وعلماء الأمة السابقون يتصفون بها.

والأستاذ إلى جانب كل هذا كاتب لا يتوقف قلمه، فهو مؤلف ماهر يحتل المقام الأول في مجاله من خلال كتابته للمقال الرئيس في العديد من المجلات والصحف، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والمؤلفات، يزيد عددها عن ستين كتابا ترجم بعضها إلى لغات أخرى كالإنجليزية والألمانية والروسية والفرنسية. وبالنسبة للعربية فقد ترجمت بعض كتبه، والقارئ العربي والمهتم على الخصوص متشوق لمعرفة جديد الأستاذ فتح الله.

إن الطابع الفكري الذي يغلب على جانب التأليف قد يسمح بتصنيف الأستاذ على أنه مفكر معاصر، لكن هذا التصنيف كذلك لا يستجيب لخصوصيات الرجل في هذا المجال، لأن فتح الله المفكر لا يحصر رؤيته في نطاق ضيق، بل يتجاوز ذلك إلى اعتبار نفسه مسؤولا عن جميع أفراد المجتمع الإنساني، ومسؤولا عن إنقاذ إنسانية الإنسان والسير بالجميع إلى بر الأمان والخلاص، ولذلك فهذا التصنيف أضيق من أن يستوعب الرجل؛ فهو مفكر لكنه ليس مفكرا عاديا، إذ يبدو في كثير من المواطن أكبر من المفكر، لحرصه على جعل فكره ورؤيته إطارا يعكس بدقة عالمه

الروحي المشحون دائماً، ولا يمكن تصور الرجل يكتب أو يحاضر أو يعظ أو يخطب دون أن يكون في حالة توتر روحي. وبالنظر إلى أن الأستاذ لا يكون إلا في حلقة درس أو موعظة أو صحبة أو مجيباً عن سؤال في مجلس إفتاء، أو في حلقة الدرس يلقن طلابه، فإن كل حياته هي نوع من السمو الروحي الذي تظهر ملامحه بارزة بقوة فيما يقوله ويكتبه. وإلى جانب هذه الشخصية تبرز شخصية الأديب الشاعر والعارف بدروب الكتابة. والأستاذ فتح الله ليس مجرد متذوق للأدب الرفيع والفن الرفيع، بل أديب شاعر مرهف الإحساس، قصائده الشعرية تنبض بالحياة يلمس فيها المتلقي حرارة المشاعر وصدقها، ويجد في كل نصوصه قلباً واسعاً يحتضن العالم كله بالحب والإخلاص. ولا تكاد مقالة من مقالاته ولا كتاب من كتبه يخلو من إشارة إلى الأدب الرفيع والفن الراقي الجميل.

وبالإضافة إلى ذلك ففتح الله كولن منظر من مستوى راق جداً في مجالي الفن والأدب. وقد عرض في كتابه "البيان" أهم تصوراتته حول الأدب والفن في دائرة التصور الإسلامي، وعرض فيه كذلك مجموعة من التصورات النظرية التي تؤسس لفن وأدب جميلين يراعيان الفطرة الإنسانية والقيم الأخلاقية السامية.. والمتأمل في إبداع الأستاذ وفي أفكاره النظرية يسمح بتصنيف الرجل في دائرة في الأدب والفن، لكنه أديب من طينة خاصة تعتمد الإشراقات الروحية المتعالية وعلى جعل الأدب والفن وسيلة للرفقي بالإنسان، فهو يجمع بين ملكة الإبداع وملكة التنظير وملكة النقد. فهل نعتبره شاعراً أديباً أم منظرًا أم ناقدًا، أم هو شيء جديد يستوعب شموليته؟!

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن لفتح الله رؤاه المميزة في علم الاجتماع وفي علم النفس وفي السياسة والاقتصاد، والفلسفة المعاصرة والقديمة، الإسلامية وغير الإسلامية، بالإضافة إلى معرفة دقيقة بتاريخ الأمم والحضارات، وبعلم صعود نجم الحضارة وأفولهما.. وهو عندما يتحدث في المجال تحسبه مؤرخا متخصصا في تاريخ الحضارة والمدنية وال عمران.

والأستاذ فوق كل ذلك رجل تربية وتعليم، وصاحب تجربة عميقة في هذا المجال؛ فقد مارس التعليم بصنوفه المختلفة العصرية والتقليدية، وألف في هذا المجال، وكتابه التعليمي "تعليم العربية بطريقة حديثة" أكبر دليل على أنه رجل تعليم، يستحق أن يصنف كذلك، دون إغفال تلك الأفكار الناضجة التي يثيرها حول التعليم والتربية في مقالاته وكتبه.

وفي الحقيقة كلما أوشكنا على ختم الحديث في مجال معرفي للأستاذ فيه موطن قدم، يبرز مجال آخر جدير بالذكر وجدير بأن يهتم به.

ومن هذه الحقول المعرفية يبرز حقل فكر الحوار والتسامح الذي كوّن فيه الأستاذ رصيذا هو اليوم محط اهتمام العديد من الباحثين ومراكز البحث والجامعات والمعاهد. فهو رجل الحوار بكل امتياز تدل على ذلك أفكاره المتقدمة، والمنجزات التي رعاها بالإشراف والتوجيه. ويُعرّف الأستاذ فتح الله عند المثقف التركي بكونه مؤسس صرح الحوار الوطني في تركيا، ونجاحه في تفعيله تفعيلا إيجابيا انتهى بتنازل العديد من المثقفين والتيارات الفكرية والسياسية عن خلافاتهم وبناء دعائم حوار دائم من خلال ملتقيات "أبنت" و"وقف الصحفيين والكتاب". إضافة إلى انفتاحه على الخارج من خلال زيارته للفتاكان واجتماعه بالبابا الراحل

جون بول، واجتماعه بشخصيات دينية أخرى يهودية ومسيحية وغيرها. من هذه الزاوية فإن فتح الله كولن أهم مفكري الحوار والتسامح في العصر الحديث، إذ يتفوق بروحه المُحِبَّة لكل إنسان في كل مكان كيفما كان دينه وثقافته وجنسه، لأنه مخلوق من مخلوقات الله تبارك وتعالى، ومن هذه الزاوية فهو يعتبر نفسه مسؤولاً عن كل إنسان في هذا العالم. وعلى العموم فإن شخصية مركبة بالمعنى الإيجابي كشخصية الأستاذ فتح الله يصعب أن تصنّف في خانة معرفية محددة، ولكن الوصف الذي ينطبق على الأستاذ فتح الله ويمكن تصنيفه هو كونه مجدد العصر الذي تنطبق عليه الكثير من مقومات الشخصية التي ستغير أفكاره وجه العالم في المستقبل.

هناك صفة أخرى تجمع كل مواهبه المعرفية الكسبية، هي كونه حكيم العصر. والحكمة تعني إدراك مقامات متقدمة في النضج الفكري والمعرفي، ولذلك أرى أن الأستاذ هو حكيم الأمة ومجدد العصر.

وأما الإشكال المعرفي الآخر الذي يواجهه الباحث في شخصية الأستاذ فتح الله، فهو إشكال الجوانب التطبيقية المرتبطة بفكر الأستاذ فتح الله؛ فالخدمة" -برجالها ومؤسساتها وحركتها الدؤوبة المستمرة- انعكاس لفكر الأستاذ وللشحنات الروحية التي ظل الأستاذ على مدى خمسين سنة يشحن بها فرسان الروح والقلب والحركة، ولذلك جاز القول بأن الخدمة ومؤسساتها هي الصورة العملية لرؤية فتح الله الإصلاحية ورؤيته الفكرية. ولا يمكن لمس شمولية المشروع الذي دشنته فتح الله إلا بربط الفكر بصورته المنزلة، لأن من أهم مميزات شخصية فتح الله الفكرية هو حرصه الشديد على الانتقال من مرحلة "إشباع الأذن" إلى

مرحلة "إشباع العين"، وأهم مظاهر صور الفكر المطبقة هي النماذج البشرية التي تلقت من الأستاذ وتربّت على يده، والتي تساهم في تفعيل وتأطير مختلف مؤسسات الخدمة من مدارس، وجامعات، ومؤسسات ثقافية وفكرية، ومؤسسات الحوار، وقنوات الإذاعية والتلفزة، وصحف ومجلات ودور نشر ومراكز للدراسات والبحوث، ومستشفيات، وغير ذلك من المؤسسات التي لا يمكن استيعاب رسالتها الحضارية إلا في ظل المشروع الحضاريّ للأستاذ في شموليته. ليس هناك أدنى شك في أن للأستاذ مشروع حضاري يعمل على إنزاله بتدرج وفق خطة مرسومة قبلا في أعماقه، ولعل هذا ما قصده فريد الأنصاري بالسر الذي لا يبوح به لأحد.^(٩٣)

وعلى العموم فالإحاطة بشخصية محمد فتح الله كولن الفكرية والحركية تحتاج إلى عمل فريق من الباحثين والدارسين، بل إن الظاهرة في شموليتها في حاجة إلى أن تدرس في الجامعات وأن يسترشد بها في كثير من المجالات وخاصة المجالات المتعلقة بالإنسان مباشرة. ومن هنا فالباحثون مدعوون إلى كشف وإبراز خصوصيات الخطاب الفكري وآليات اشتغاله، وتفكيك كل مكونات مؤسسات الخدمة وتحديد الخلفيات الحضارية والفكرية المحركة.. وستحاول هذه الدراسة مقارنة بعض من هذه الجوانب.

^(٩٣) يقول فريد الأنصاري: "فتح الله لديه سرّ ليس يبوح به.. فتح الله لديه سرّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحدا.. فتح الله يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي، حتى احتار الدمع لمأتمه.. فتح الله وارث سر، لو ورثه الجبل العالي لانهدّ الصخر من أعلى قمّته، ولخزّت أركان قواعده رهبا!" (عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ١٣).

لا توجد عبارة دقيقة تلخص شخصية الأستاذ فتح الله، لكن عبارة "المتقف الإصلاححي" أو "المفكر الإصلاححي"، قد تضع إطاراً منهجياً لمقاربة عالمه. ففتح الله عالم ومفكر ومثقف، صاحب معرفة واسعة عميقة يوظفها من أجل إنسانية الإنسان، ومن أجل سعادته. أفكاره تدهش الباحثين وتلهمهم.. تقول الباحثة الأمريكية جيل كارول "عشت مع كولن من خلال كتاباته... وما زالت أفكاره تلهمني، ولقد عرفت بعد لقائه لماذا ألهم هذا الرجل ما يقرب من ثلاثة أجيال في تركيا ومنحهم الدافع -رجالاً ونساءً- لبناء عالم جديد. إنه رجل بداخله قدر هائل من الروحانية والإخلاص والتعاطف، وهو شيء واضح للغاية في كتاباته وفي شخصيته"^(٩٤).

وبقدر ما تبدو فيه قضية الموسوعية أمراً يسهل تناول شخصية الأستاذ فتح الله كولن في ضوءها، بقدر ما تظل جوانب أخرى خفية، خاصة بالنسبة لمن يريد الإمساك بالمنظومة التي تصل مختلف الحقول والمجالات التي نجد فيها للأستاذ فتح الله كولن موطئ قدم.

فتح الله كولن خطيب وواعظ مفوه يتقن منهج التأثير في الجموع ويتقن استمالة ألبابهم، وهي مهمة تستوجب معرفة دينية واسعة وعميقة، حصلها منذ طفولته الأولى بأساليب تقليدية خاصة وعامة. وهو كذلك مثقف ينتمي إلى ثقافة العصر لأنه درس أغلب الأفكار الفلسفية والاجتماعية، ومختلف النظريات في مجالات مختلفة أدبية وفنية وفكرية وعلمية، وغيرها.. ودراسته لم تكن سطحية، بل غاص في عمقها، وحللها تحليل

^(٩٤) محاورات حضارية، حوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني، د. جيل كارول، (ترجمة: إلهام فتحي أحمد سعيد)، دار النيل، القاهرة ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ص: ١٦٥.

من يبحث عن مكان القوة والضعف فيها.

وهو مستوعب لتاريخ العلوم الطبيعية مع قدرة كبيرة على شرح حقائقها، وتقريبها من الأفهام والأذهان. ورغم اتساع هذه الحقول ودقتها فهو يستطيع طرح اقتناعاته المركزية دون تناقض ولا تضارب بين الأفكار والحقائق. ومرد ذلك كله هو أن الرجل صاحب عقلية فذة، ورؤية بعيدة الغور، بل هو عالم مؤتمى له للقيام بمهمة محددة هي وضع قطار الإصلاح على "خط السير" وتعهده أثناء سيره حتى يصل إلى محطة وصوله.

كل هذا وغيره يجعل الإمساك بعالم الأستاذ فتح الله أمراً صعباً، لكنه ليس محفوفاً بالمخاطر، وليس فيه أي منزلقات، نظراً لانسجام رؤيته ووضوح معالمها الفكرية والمنهجية. فمن يريد البحث في عالم الأستاذ فتح الله كولن مجبر على التسلح بالصبر المعرفي وعدم الاستعجال في قطف الثمار فحسب.

ما هي الجوانب التي يجدر بأن يركز عليها؟ هل يركز على الرجل وفكره وشخصيته الكاريزمية - إن كانت هناك كاريزما معينة-، أم على الحركة التي صارت اليوم مرتبطة بأفكاره، والمعروفة في كل مكان بـ"الخدمة"، أم عليهما معاً..

وهل يمكن تصور شخصية الأستاذ بعيداً عن الحركة التي استلهمت أفكاره؛ من جهة أنه لولا حركة الخدمة التي تنشط اليوم وتتميز في مجال العمل المدني ما كان لشخصية فتح الله أن تثير الاهتمام.. بعبارة أخرى هل معرفة حركة الخدمة تغني عن معرفة شخصية الأستاذ؟

إن الأستاذ فتح الله كولن ومدرسته الفكرية وما تنتجه هذه المدرسة موضوع معرفي واحد، لأن القضية تتعلق بشخصية عالم خبر التراث

الإسلامي واستوعب كل مصادره ومقوماته وفهم مكوناته، ليخرج بخلاصة هي أن الصورة المثالية التي بنتها أجيال الرعيل الأول من الصحابة الكرام، قابلة للتحقق في هذا العصر.

المفكر الحق هو من استوعب العمق المعنوي للتجربة السعيدة في العهد النبوي، ثم بلورها في قيم ومفاهيم وأفكار ومصطلحات يسهل تداولها وتحويلها إلى حركية وفعل. بعبارة أخرى لقد فهم الأستاذ المنظومة التي تربى فيها الرعيل الأول، وعمل على نقلها إلى الأجيال الحاضرة، لكن بمفاهيم العصر ومصطلحاته وبمنهج متجدد. ولا يتأتى ذلك إلا لمستوعب لخصوصية العصر في كافة المجالات، وخاصة الأخلاقية والمعرفية والاجتماعية، بالإضافة إلى عنصر الواقعية.

وإذ نؤمن حقا بأن الأستاذ فتح الله رجل مؤتًى له كما كان الأستاذ بديع الزمان النورسي، فإن روحانيته تجيز التنازل عن بعض من العقلانية في تحليل بعض أفكاره ومواقفه. إن رؤى فتح الله كولين نابعة من عمق التصور الإسلامي ومن روحانيته، ونابعة من القرآن والسنة وسيرة الرسول الكريم ﷺ وصحابته الكرام. وهذه ميزة يشارك فيها كبار علماء الأمة في القديم والحديث الذين اكتسبوا تلك الطاقة الدافعة التي تحرك السواكن وتهز الجوانح، فهو مثل هؤلاء مملوء بطاقة روحية هائلة تحركه من حيث لا يدري. ولهذا نقول مع "محمد أنس أركن" بضرورة التخلي عن حواسنا وفكرنا المتسم بالعقلانية إذا شئنا النفاذ إلى الأعماق الروحية للأستاذ فتح الله كولين الذي يدعو "الجماهير إلى أمور أسمى من الأمور اليومية الصغيرة التي ينشغل بها الإنسان في حياته اليومية، وإلى القيام بخدمات أسمى وأهم، وإلى مشاعر متأججة، وإلى قيم إنسانية عليا. هذا

هو لب نضاله وجوهره، أي يناضل ضد الارتخاء والارتماء في أحضان الدنيا.. إنه استصغر الدنيا وملذاتها ونذر نفسه من أجل الآخرين، مما يعني التوجه نحو الأزلية^(٩٥).

ثانياً: العالم المفكر لا المفكر الأيديولوجي

قد يظن الذين يصدرون أحكام القيمة قبل النفاذ إلى عمق المحكوم عليه وتبين حقيقته أنّ الأستاذ فتح الله صاحب أيديولوجية إسلامية ترمي إلى التحكم في المجتمع التركي وتوجيهه وفق نمط محدد يحقق في النهاية أهدافا سياسية أو دنيوية.. بل هو على عكس من ذلك كله وليد التقاليد الإسلامية الصرف، يتذوق لذة التحلي بها، ويعيشها كما عاشها الصحابة الكرام وهم في كنف من نزل عليه الوحي محمد ﷺ. فقد ألزم نفسه بأن يعيش روحانية الإسلام متأسباً بالرسول ﷺ وكما عاشها الصحابة الكرام في "عصر السعادة" كما يطلق عليه. فالأستاذ فتح الله كوالن ليس مجرد وسيط ينقل روحانية هذا العصر، بل هو رجل ألزم نفسه بنظام دقيق من التزكية الروحية، وبنظام غذاء روحي يُسكّت النفس ويصفرّها. بهذا النظام الصارم استطاع الأستاذ فهم حقيقة ما عاشه الصحابة الكرام وهم في مدرسته ﷺ، ولم يشأ أن يظل هذا الخير المعنوي الذي أدركه حكراً عليه وحده، بل سعى بكل رسوخ إلى إقناع الناس بأهمية العيش في هذا الجو الروحاني العجيب ولم يشك لحظة واحدة في تحقيق ذلك معتبراً الإنسان - في كل مكان، وكيفما كان لونه ودينه وجنسيته - موضوعاً يجب

^(٩٥) فتح الله كوالن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنه، (ترجمة: أورهان

أن يصل إليه هذا الخير.

عندما تنظر إلى الأستاذ فتح الله تشعر بأنه رجل يحمل همًا ثقيلًا جدًا، يتجاوز همومه الخاصة وهموم المجتمع التركي، إلى هموم المسلمين في كل مكان وإلى هموم المجتمع الإنساني بأكمله. حزنه عميق دائم. يشعر كل من يقرب منه أنه يتألم ويئنّ ويبكي ويتضرع ويتأوه من أجل الآخرين. فأى عقل يستطيع الانكباب على هذه النفسية الخاصة والمركبة وتفكيك مكوناتها وضبط آليات منجزاتها. إن العقل ليعجز عن تقديم تفسير لهذه الحالة الخاصة، ولم يبق سوى الجانب الروحي ملجأً للتفسير والاقتراب من هذا العالم الفسيح فساحة عالم الإسلام الروحاني.

وإذا كان هاتف العقل يدعونا إلى أن ضوابط البحث تفرض الاتكاء على الملموس في فهم الشخصية فإن هاتفا آخر من داخل العقل يقول قد يعسر إيجاد تفسير عقلي منطقي لبعض جوانب هذه الشخصية، لأن الجواب على ذلك يوجد في عالم الأرواح أو في عالم المعنى. وهذا لب ما عبر عنه الأستاذ فريد الأنصاري في عمله الأدبي الرائع عن سيرة الأستاذ فتح الله كولن الذي اعتبره "رائدا للفرسان القادمين من وراء الغيب" حيث افتتح السيرة أو الرؤية بالقول: "فتح الله لديه سر ليس يوح به.. فتح الله لديه سر تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحدا.. فتح الله يحمل في قلبه ما لا طاقة له به، ولذلك لم يزل يبكي حتى احتار الدمع لمأتمه.. فتح الله وارث سر لو ورثه الجبل العالي، لأنهد الصخر من أعلى قمته ولخزت أركان قواعده رهبا.. فتح الله فارس ليس تلين عريكته، ولا تضعف شكيمته.. ولصوته في الكر أشد من قرعة الرعد.. يقاقل في النهار

حتى تذوب الشمس في دماء البحر، فإذا خلا لأشجان الليل بكى!!^(٩٦). هذا الاستهلال الذي افتتح به الأستاذ فريد الأنصاري رواية أو سيرة الأستاذ فتح الله كولن، يؤكد بأن جوانب من شخصية الأستاذ فتح الله لا تدرك من خلال استحضار صرامة العقل. وبعبارة أخرى إن جوانب من العالم الروحاني للأستاذ فتح الله كولن تدرك بالانغماس الروحاني في عالمه الروحاني.

وبناء على ما تقدم فإن دراسة الأستاذ فتح الله من الناحية الإجرائية تفرض الوقوف على أهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيته، وتنقسم هذه العناصر إلى:

- أهم المحطات في حياته
- أهم المصادر التي أثرت في تكوين شخصيته
- شخصيته الحركية وأهم الجوانب التي تمثل هذه الحركية وتوجهها
- الحركة التي تأسست حول رؤيته الفكرية

ثالثاً: مصادر بناء معالم شخصية الأستاذ فتح الله

ومن هنا فإن ما سي طرح لنا من قضايا وأفكار هو "ما هي المصادر التي تدل على شخصية الأستاذ فتح الله كولن؟".

يحددها الدكتور إبراهيم بيومي في ثلاثة مصادر أساسية، أو بالأحرى يحدد ثلاثة معالم أساسية تدل على العالم المصلح بقول: "ثلاثة يعرفوننا على الداعية الإسلامي: محمد فتح الله كولن... والثلاثة يأتون

^(٩٦) عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن.. رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب، أ.د.

بهذا الترتيب من حيث الأسبقية، والشهرة في ساحات الواقع بأبعاده المتعددة، ومشكلاته المتكاثرة، وتحدياته المتجددة. ويخرج هذا الترتيب عن المألوف في سير أغلب كبار العلماء المجددين وقادة الحركات الإصلاحية، حيث تكون كتاباتهم وأقوالهم أسبق وأشهر من أعمالهم وإنجازاتهم، ثم يكون تلامذتهم ومحبوهم وأنصارهم... معبرين قولاً وسلوكاً وعملاً عن عمق تأثرهم بهم، وأخذهم بتوجيهاتهم ووصاياهم. وبحسب الترتيب الزمني، كانت كلمات وكتابات "خوجا أفندي" هي الأسبق ظهوراً، تلاها تلامذته ومحبوه، ثم ظهرت بعد ذلك مؤسسات "الخدمة" ومشروعاتها بالعشرات في مجالات متنوعة.^(٩٧)

ومن هنا فإن الدليل الأول للتعرف على قوة الأستاذ فتح الله المعرفية والحركية، يكون بالنظر في شخصية وأخلاق وسمت وعلم تلاميذ الأستاذ فتح الله كولن، وهؤلاء قد بدأوا في الانتشار عبر مختلف مناطق العالم شرقاً وغرباً، من خلال عملية هجرة فعلية تتطلع إلى تحقيق مفهوم الهجرة وتوابعها كما هاجر الرسول ﷺ وصحابته الكرام. وهذه الهجرة تحركها نية "الخدمة"، و"الخدمة" فلسفة خاصة يقيم عليها الأستاذ فتح الله، والمقتنعون بفكره فعاليتهم وحركتهم، فهم يأتون إلى الناس "بخدمة" يقدمونها بكل حب وإخلاص وبكل تفان وإتقان، لا يريدون سوى مرضاة الله تبارك وتعالى، في شكل عمل تربوي وتعليمي، وفي شكل أعمال إغاثية، وفي شكل عمل ثقافي، وفي شكل تنمية بشرية ومحاربة الفقر

^(٩٧) معالم في سيرة "خوجا أفندي: محمد فتح الله البسام الأناضولي"، إبراهيم البيومي غانم، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩. دار النبل،

ومساعدة ذوي الحاجة، أو في شكل حوار بين أتباع الديانات المختلفة وغير ذلك من أنواع "الخدمة".

وفي هذه الخدمة يبرز الجانب الثاني الذي يفسر جوانب عديدة من شخصية الأستاذ فتح الله كولن، وهو تلك المنجزات التي وجه الأستاذ فتح الله محبيه وتلامذته إليها فأنجزوها، وهي تعتبر اليوم من أقوى المؤسسات تأثيراً في تركيا وفي أماكن عديدة في العالم كله وخاصة في أمريكا وفي أوروبا.

كل من تعرّف على هذه المنجزات يؤكد على أهميتها وعلى أهمية الرؤية الحضارية التي تحركها. ولذلك فإن كل الذين يتعرفون على هذه المنجزات يزدادون احتراماً لمن دفع الناس إلى إنجازها وتحقيقها. وهنا تكمن ملاحظة مهمة جداً وهي أن الذي يتعرف على هذه المنجزات، يجد نفسه مدفوعاً بكل قوة إلى معرفة الرجل بغرض استيعاب المنهج الذي حرك الناس وحولهم وصنع منهم طاقات فاعلة تنفع مجتمعاتها، وتنفع المجتمع الإنساني عامة.

رابعاً: بطاقة هوية فتح الله كولن

هو محمد فتح الله كولن "الأناضولي الموطن، والتركي الجنسية، ولد يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٨م وهناك تاريخ آخر هو تاريخ ٢٧ أبريل ١٩٤١م، وهو تاريخ الرسمي أو التاريخ الإداري.^(٩٨)

^(٩٨) من المفيد تسجيل ما يلي حول تاريخ ميلاد الأستاذ فتح الله كولن نظراً لورود تواريخ مختلفة في بعض المصادر قد توقع القارئ في حالة من اللبس، ولعل هذا التوضيح يزيل اللبس الموجود حول هذا الموضوع. لقد ولد الأستاذ فتح الله كولن يوم ١١ من شهر نوفمبر ١٩٣٨م، فذهب والده رامز أفندي إلى إدارة تسجيل المواليد ليسجله، وكان ذلك

هذا الاختلاف في تاريخ الميلاد يتضمن بعض الدلالات التي قد تحيل على طبيعة العلاقة التي كان الأهالي وخاصة في القرى البعيدة ينظرون بها للمظاهر التي تسبغ الشرعية على النظام الحاكم في أنقرة. إذ كانوا يعزفون عن تسجيل مواليدهم بسرعة بدوافع متعددة، منها عامل عدم الاعتراف الداخلي والنفسي بأن السلطة المركزية العلمانية تمثلهم حق التمثيل.

ويمكن قراءة هذا الاختلاف من زاوية أخرى وهي بعد الإدارة عن المناطق النائية، إذ لم تكن السلطة الإدارية المركزية بعد مرور عشر سنوات على الثورة قادرة بعد على الإشراف الكلي والمباشر على جميع

في عهد حكم الحزب الواحد حيث سيادة الفكر السلطوي العلماني مستحكمة. وما أن سمع الموظف باسم "محمد فتح الله" حتى ثار محتدا وقال "ممنوع تسجيل هذا الاسم". فغضب الوالد وعاد إلى قريته خاوي اليدين. بعد عامين ونصف ولد لرامز أفندي مولود آخر أحب أن يسميه "صبغة الله"، فلم يذهب إلى إدارة التسجيل إلا بعد عام ونصف، أي بعد ولادة فتح الله بأربعة أعوام، ولكن هذه المرة استعان بضابط مخفر القرية الذي كان يحترم رامز أفندي ويحبه. فذهبا معا إلى مصلحة التسجيل، وعندما اعترض الموظف مرة أخرى، صرخ الضابط في وجهه وطلب منه أن يسجل الاسم، وفق طلب الوالد، ثم غادر المصلحة. ولكن الموظف أبي إلا أن يسجلهما كما يحلو له، حيث سجل "صبغة الله" بـ"سيف الله".. وسجل "محمد فتح الله" بـ"فُتُ الله" (بحذف الحاء وحذف محمد)؛ كما سجل تاريخ ولادتهما في نفس العام، أي ١٩٤٢. فكان تاريخ ميلاد محمد فتح الله ٢٧ أبريل ١٩٤٢ في السجلات الرسمية، بدلا من ١١ نوفمبر ١٩٣٨ م. وفي عام ١٩٥٩ م قَدِم الأستاذ فتح الله طلبا في مدينة أدرنة ليتّم توظيفه إماما في أحد المساجد، فبدا أن عمره لم يتجاوز ١٧ سنة حسب التسجيل الرسمي، ومن ثم يتعذر عليه أن يتولى وظيفة رسمية، حيث إن شرط التوظيف أن يكون عمره ١٨ سنة، فراجع المحكمة، فتم تكبير عمره سنة واحدة، وتم تغيير تاريخ الميلاد إلى ٢٧ أبريل ١٩٤١، وذلك هو المسجل رسميا في بطاقة هوية الأستاذ فتح الله كولن اليوم. (المحرر)

المناطق التركية وخاصة في عمق مناطق الأناضول البعيدة وفي القرى النائية. ولهذه القضية دلالتها التي تفيد الباحث في الإجابة عن مسألة بقاء الأتراك في هذه المناطق النائية محافظين على صفاء العلاقة بالإسلام، أو بالأحرى مسألة بقاء الإسلام والاعتقاد فطريا في نفوس فئات واسعة من المجتمع التركي.

ويكشف هذا الأمر عن جانب آخر متعلق بما حققته محاولات التحديث في تركيا منذ عهد التنظيمات، إذ الظاهر أن آثار التحديث كانت محدودة، واقتصرت على بعض المدن الكبرى والمراكز الكبرى والمدن، وأما المناطق البعيدة فظلت بعيدة عن هذه التحولات، وبعبارة أخرى لقد ظلت القرى التركية والوادي والمناطق الجبلية منعزلة عن التحولات وعمليات التحديث التي عرفتها المدن الكبرى.

الشاهد هو أن الأستاذ فتح الله ولد في ظل واقع لا يمت لواقع الجمهورية الحديثة ثقافيا بصلة تذكر، وهو العامل الذي يمكن أن نعتبره عاملا مساعدا في تكوين شخصية الأستاذ فتح الله.. فالبيئة كانت بيئة محافظة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، بل هو عامل مساعد على تنشئة تُقدِّم لمن يولد فيها ويتعرع حصانة ضد ثقافة التحديث التي كان المجتمع التركي ينظر إليها نظرة شك وتخوف.

ويوحي يوم ميلاده الفعلي (أي ١١ نوفمبر ١٩٣٨م) بإشارة مهمة جدا لا تجد لها أي داعم عقلي، لكنها في الإطار المعنوي ذات دلالة خاصة وهي أنه اليوم التالي الذي توفي فيها مؤسس الجمهورية، أتاتورك. وفي هذا الاتفاق دلالة ما، وهي أن يكون القدر قد كتب لتركيا ميلادا آخر يوظف الواقع الجمهوري بكل ما له وما عليه إلى حالات إيجابية تعود

بالفائدة الحضارية على الإنسانية كلها.

خامساً: الأقدار ترعى الفتى

نسج القدر خيوطاً ستهيئ لفتح الله كولن أجواء تدل على أن الله تبارك وتعالى كان راعياً لهذا الرجل قبل أن يولد. فقد ولد في قرية "كُورُوجك" وهي قرية من قرى قضاء "حصن قلعة" في محافظة "أرضروم"، وهي قرية مكونة من مجموعة من الأسر (حوالي ٧٠ أسرة) هاجرت إليها من منطقة "أخلاق التاريخية"، وستظل هذه النسبة موجودة في أسرة آل كولن إلى اليوم. فهو إذن فتح الله كولن الأناضولي الأخلاطي، إذ كان جدّه معروفاً بالأخلاطي نسبة إلى هذه المنطقة التي تقع بين الجبال، وفي أحضانها. عرفت هذه المنطقة الإسلام منذ العهد العباسي وتشعبت بروح القرآن، فكانت ثمار التعرف على الإسلام أجيالاً من المؤمنين المعترزين بهويتهم الإسلامية.

انحدر فتح الله كولن من صلب رهط سكن الجبال وألف الأعالى وهي بيئة تطبع لا محالة سكانها بطباع خاصة استمرت في كل من انحدر من أصلاب هؤلاء، وفتح الله أحدهم. وكان منهم الأستاذ فتح الله وخاصة جده ووالده اللذان سيقومان بدور كبيرة في تهيئته وتكوين شخصيته، يضاف إلى هذه الرمزية رمزية أخرى هي رمزية القرية والقضاء، الذي كانت تنتمي إليه قريته، فاسمها يدل على أنها كانت فعلاً قلعة محصنة لأنها استطاعت أن تحافظ على صفاء طويتها، وأن تحافظ على فطرتها من كل الاختراقات الثقافية والفكرية التي كانت تركيا عرضة لها خلال عقود من الزمن.

ولا تقف عناية القدر عند هذا الحد بل تتجاوزه إلى الجذور، فأسرة فتح الله كولن تنحدر من بيت النبوة، وكانت هاجرت إلى المنطقة ضمن السادة الأشراف الذين هاجروا زمن العباسيين تجنبا للفتن التي عمّت الجزيرة العربية واتقاء لشر الخوض في هذه الفتنة.

سادساً: القلوب المطمئنة

اسمه إلى جده الرابع هو محمد فتح الله، بن رامز أفندي، بن شامل، بن الملا أحمد، بن خورشيد، بن خليل. واسم فتح الله كولن يوافق أسلوب التسمية الذي جاء مع قيام الجمهورية، وهو يحمل الكثير من الدلالات ذات البعد التاريخي ويعكس في الوقت نفسه مستوى الحرب التي مارسها النظام العلماني على المجتمع التركي، وكل مكوناته وفي المقدمة الإنسان المتعلق بهويته العقديّة والثقافية. يذكر إبراهيم بيومي في الدراسة المشار إليها سالفاً إلى أن الأستاذ استعمل ترجمة كولن بالعربية وهي "الضحاك" لتوقيع مقالاته في صورة اسم مستعار.^(٩٩)

عائلة فتح الله من العائلات الممتدة في تلك المنطقة، وحال العائلة كان بين الغنى والفقر، أو لنقل إنها حالة العائلة متوسطة الحال، لكن مكانتها العلمية كانت كبيرة، وكان طلب العلم ثروتها الفعلية والحقيقية، فقد عرف سكان المنطقة وأهلها بشغفهم بطلب العلم وحبهم وأهلها، كما يذكر ذلك بعض تلامذة الأستاذ فتح الله كولن.

^(٩٩) انظر: معالم في سيرة "خوجا أفندي: محمد فتح الله البسام الأناضولي"، إبراهيم البيومي غانم، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩، ص: ٢١٥-٢٥٦.

كان جده الأكبر لأبيه "خورشيد بن خليل" فلاّحاً معروفاً بحب العلم والتقوى والورع، تحكي أخبار قريته أن جده هذا لم ير في آخر ثلاثين عاماً من عمره نائماً في وضع الاضطجاع، إذ كان يضع يده على خده لينام قليلاً، وكان يمضي أغلب وقته في العبادة بين العمل والذكر والصلاة.^(١٠٠) ويتحدث الأستاذ عن جده شامل بأنه كان محترماً في القرية، وكان ضحكه التبسم، وكان عصياً على البكاء، لكنه بكى مرة محتضناً محمد فتح الله.. لقد كان لهذا الحادث أثر إيجابي على نفسية الطفل، فأن يعلق في الذهن والذاكرة هذه الصورة القوية لجد سمته الوفاق والجدية والحرص على الظهور بكل مظهر لا يوافق الرجولة والانتماء إلى عمق الإسلام، يترك أثره البالغ في نفسية طفل ذا همة عالية. ولهذا فإن الأستاذ فتح الله قد سجل في ذاكرته حدث بكاء جده الوقور العابد، لأن الحدث في حد ذاته يستحق أن يسجل في الذاكرة ويستحق أن يذكر أمام التلامذة والمحبتين، ويستحق أن يذكر لأنه يسجل النموذج الإنساني الأناضولي الذي ظل معتزاً بهويته وثقافته الإسلامية، وظل حريصاً رغم التحول الذي عرفه الواقع على الظهور بمظهر إسلامي قوي. وهنا لا بد من أن نشير الانتباه إلى أمر مهم جداً وهو أن اجتثاث الإسلام من هذه التربة لم يكن بالأمر الهين، وهذا ما يريد الأستاذ فتح الله كولين التنبيه إليه من خلال سرده لهذا الحدث.

وكما تحدث الأستاذ فتح الله عن جده الذي طبع شخصيته بالجدية والوقار، تحدث كذلك عن جدته "مؤنسة" بالحب نفسه الذي كان يكتنه

^(١٠٠) التجديد في الفكر الديني المعاصر في تركيا، نموذج دعوة محمد فتح الله كولين، أبو زيد عبد الرحيم عبد العاطي، ص: ٢٠ (رسالة ماجستير، ٢٠١٠م، مصر، غير مطبوعة).

لجده، وربما تكون جدته "مؤنسة" أقوى أثرا في شخصية الأستاذ نظرا لأن جانبا منها ظل ملازما للأستاذ فتح الله إلى اليوم، هو "البكاء" ورقة القلب ورهافة الإحساس. فإذا كانت صفة البكاء ملازمة لشخصية الأستاذ فتح الله نظرا لكثرة بكائه خشوعا لله وخشية منه، فهو أمر متصل في العمق بما تركته فيه جدته مؤنسة من أثر إيجابي، يقول عنها: "كانت تعيش حياة روحية خاصة، فهي كثيرة التفكير والبكاء، وتحترم المشايخ والعلماء الكبار، لم أرها مرة واحدة تنظر إليّ نظرة غضب، كانت رقيقة القلب لينة الطبع، لها عمق البحر المحيط، مؤمنة بربها، ورعة تقية، وشخصية أصيلة."^(١١٠)

البكاء ميزة تُمَيِّز فتح الله عن كثير من الدعاة والمفكرين، بل إن البكاء قد يكون عنصرا من عناصر التأثير في الجماهير، لأن بكاء الأستاذ فتح الله كولين بكاء يدل على أشياء كثيرة جدا، منها ثقل الهم الذي يحمله هذا الرجل، ويدل على عمق الإخلاص الذي يكنه لما يؤمن به من قيم ورؤى يتطلع إلى غرسها في قلوب الناس وفي عقولهم. إن بكاء الأستاذ فتح الله كولين بكاء ذو نغم خاص ونكهة نادرة. فهو بكاء وجودي يحقق به الأستاذ وجودا نظيفا بعد أن يغسله بدموعه ويسقيه بالعبرات المتدفقة من مقلته لعل الثمار التي غرسها تنمو وتثمر. يقول أديب الدباغ: "فتح الله كولين عبقرية غلابة لا شك في ذلك، ولكنها عبقرية حزينة بعض الشيء، غير أن حزنها عذب وبنّاء ومعطاء؛ فأى يقظة ذهنية إذا ما اتسعت وأخذت أعظم

^(١١٠) معالم في سيرة "خوجا أفندي: محمد فتح الله البسام الأناضولي"، إبراهيم البيومي غانم، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩. دار النيل،

مدياتها صاحبها آلام روحية وجسدية عانى منها "فتح الله كولن" السنين الطوال؟! ومع كل هذه الآلام فإن تفكيره في ارتفاع دائم، وشعوره بالقوة والحيوية لا يوصف، ومغالبته لأوجاعه وآلامه أمر يكاد لا يصدق^(١٠٢).

توفي جده وجدته معا في يوم واحد سنة ١٩٥٤م، ويقول فتح الله كولن بأنه بكى عندما وصله خبر وفاتهما معا في يوم واحد وقد أشعره فقدانهما بالغربة: "إن جدي شامل كان كل حياتي، أما جدتي "مؤنسة هانم" فما كنت أتخيل أنني أستطيع مواصلة حياتي من دونها، وإذا بي أفقدهما معا في يوم واحد.. فكيف أقوى على تحمل حزني وأساي على فراقهما؟ حتى إنني تضرعت إلى الله قائلاً: إلهي توفني وألحقني بهما"^(١٠٣).

القضية لا تتعلق بمجرد حب بريء يستطيع كل طفل أو شاب أن يكنه لجده وجدته، فهذا إحساس طبيعي، خاصة إذا كان لهما أثر ما في حياة الطفل أو الشاب، لكن القضية بالنسبة للفتى فتح الله كولن أكبر من ذلك وأعمق بفقدانها، وحرصه على أن يذكر الحدث وأن يسطر عليه بكل قوة فيه إشارة إلى أن فقدانها بالنسبة له هو فقدان لعنصر الاتصال بتلك الصورة الصافية الأصيلة التي كان أهل الأناضول يمثلونها، وهي صورة مستمدة من عصر بعيد قريب سيعمل الأستاذ فتح الله حياته كلها على بعثها في نفوس وعقول وأفئدة الناس في هذا العصر، أو في العصر الذي تحكمت فيه الحداثة، ومظاهر العصرية التي لا تقوم على أصل ثابت.

(١٠٢) الضاريون في الأرض، أديب الدباغ، دار النيل، ط: ١، القاهرة ١٤٣٣هـ/٢٠١٢، ص: ٤٢.

(١٠٣) عالم في سيرة "حوجا أفندي: محمد فتح الله البسام الأناضولي"، إبراهيم البيومي غانم، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩. دار النيل،

ألم يؤمن الأستاذ بإمكانية استرجاع عصر السعادة أو عصر الصحابة كما سنبين ذلك لاحقاً، ونذر حياته كلها من أجل ذلك، بل سعى إلى أن يبني حياته كلها على تحقيق هذه الصورة في نفسه قبل غيره؟! ومن هنا فإن جانباً من الجوانب التي تفسر عمق إيمانه بتحقيق ذلك يكمن فيما كان يراه في جده وجدته من مظاهره وأحاسيس صادقة تذكر بذلك العصر السعيد.

سابعاً: والد ووالدة مضعان بالأمل والقوة

وإذا كان الجد "شامل أفندي" رجلاً قروبياً أمضى حياته كاملة في قرية "كوروجك"، فإن والد الفتى "رامز أفندي" قد تنقل بين عدد من القرى والمدن، وعمل في الخدمة العسكرية في بداية العهد الجمهوري، لأنه كان يجيد القراءة والكتابة، وكان وُظف ليعلم الجنود الأميين القراءة والكتابة، وهي مهمة دقيقة، فرغم انخراط الوالد في الجندية لم يكن انخراطه مجرد انخراط فحسب، لأن انخراطه كان في الأصل أعمق من الجندية، وهي التربية والتعليم، وغير مستبعد أن يكون لهذا العامل تأثيره في نفسية الفتى فتح الله. أتم "رامز أفندي" حفظ القرآن الكريم وهو في الثلاثين على يد الشيخ "خليل أفندي"، ولهذا الحدث دلالاته الخاصة المؤثرة في شخصية الطفل فتح الله، هي حب العلم وحب طلبه والإصرار على ذلك حتى سن متقدمة. وأما حرص رامز أفندي على تعليم الجنود القراءة والكتابة فخصلة طيبة ورثها الأستاذ فتح الله، وظل طيلة حياته محباً لها وحريصاً على تطويرها. فمهمة التربية والتعليم كانت أجل ما تلقاه من والده، وأظن بأن الأستاذ فتح الله كولن لو خُيّر في المهنة التي يحب لكانت هي مهنة التربية والتعليم.

شَغْفُ "رامز أفندي" بالعلم والمعرفة يفسره اقتناؤه بعض الكتب والدواوين الشعرية عربية وفارسية. وما يؤكد هذا الشغف رحلته إلى قرية "مصلحت" والإقامة فيها لمدة عامين من أجل حضور دروس "خليل أفندي" رغبة في إتقان اللغة العربية واللغة الفارسية.

حُرْص رامز أفندي على تعلم اللغة العربية والفارسية يخفي تجذر التقاليد الثقافية العثمانية في لاوعِي الإنسان التركي في منطقة الأناضول، ويدل على أن مصدر شغف الأستاذ فتح الله كولن باللغة العربية وبالأدب والفن يرجع إلى حرص الوالد. لقد ورث الأستاذ من والده حبه للعلم وحبه للقرآن وحبه للغة العربية.^(١٠٤) ويذكر إبراهيم بيومي أن رامز أفندي كان محبا للشعر، وكان كثير التردد لقصيدة البردة في مدح الرسول ﷺ للإمام البوصيري، حتى حفظ الأستاذ فتح الله هذه القصيدة سماعا من كثرة ترديد والده إياها^(١٠٥). وسلوك هذا ديدنه يغرس في قلب طفل حب الشعر وحب قراءته وحفظه وترديده، والأهم من ذلك حب الرسول ﷺ وحب آل البيت.

ورثة الأستاذ لهذا السلوك الطيب أت من عمق محبة الوالد لشخص الرسول ﷺ، وإلا كيف نفسر إصرار الوالد على ترديد نص في مدح الرسول ﷺ، يعد من أهم ما أبدع في مدحه ووصف خصاله وشمائله أمام الابن اليافع سوى أن تكون الحب والرغبة في نقل هذا الحب إلى أبنائه.

^(١٠٤) للأستاذ كتاب وضع فيه خلاصة تجربته في تعليم اللغة العربية.

^(١٠٥) معالم في سيرة "خوجا أفندي: محمد فتح الله البسام الأناضولي"، إبراهيم البيومي غانم، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩. دار النيل،

تلقى الأستاذ فتح الله كولن حب الرسول ﷺ منذ طفولته الأولى وهو في كنف جده وجدته ووالدته والده. كيف لا يحب الرسول ﷺ وقد كان والده يرتعش كلما سمع اسم الرسول ﷺ أو سمع ذكر أحد الصحابة الكرام.

رافقت أحوال محبة الرسول ﷺ الأستاذ طيلة مراحل حياته، فحبّه للرسول ﷺ يفوق التصور، وكذلك حبه للصحابة الكرام. ويمكن ملاحظة الأحوال التي يكون عليها فتح الله كولن عندما يذكر شخص الرسول ﷺ، فهو دائماً يقف إجلالاً للرسول ﷺ عندما يذكر. لقد غُرست هذه الخصال في قلب فتح الله منذ الصبى، وتَشَبَّع بها، لأنها كانت سلوكاً طبيعياً في الوسط العائلي والأسري، وحتى في الوسط القروي الذي عاش وترعرع فيه.

حفظ الأستاذ فتح الله في ذاكرته صورة كتب سير الصحابة شبه ممزقة من كثرة قراءة الوالد لها ومن فرط تعلقه بهم. يقول الأستاذ: "كنا نحب الصحابة ﷺ وكأنهم أفراد عائلتنا، وعندما يتحدث أبي عن الصحابة كان ينهمر في البكاء وكأنه يعيش في عصرهم".

إن لكل شيء أصلاً.. ومحبة الرسول ﷺ، ومحبته للصحابة الكرام إلى درجة الهوس، تجد أصلها في الوسط الذي عاش فيه الأستاذ فتح الله كولن وتجد أصلها في التربة التي غدّته. ووسط هذا ديدنه عامل تأثير إيجابي في مثل نفسية فتح الله كولن.

وكما أثر الوالد رامز أفندي في فتح الله، أثر فيه سلوك أمّه وتقواها، إذ يظهر من حديثه عنها أنها وافقت الوالد في سلوكات وخصال كثيرة. ويبدو مما يحكيه عن والدته أنه ورث منها كثرة البكاء وكثرة التضرع إلى

الله والمداومة على الذكر.

صاحبت الأسرة وبعض أفراد العائلة فتح الله في جميع أطوار حياته وعنهم تلقى صلابة الإيمان وقوته، فعلاقته بهم لم تكن علاقة قصيرة، بل طالت مدة من الزمن ليست بالقصيرة. وهذا الطول في المصاحبة والعشرة من شأنه أن يصنع نموذجا إنسانيا متميزا. يقول إبراهيم بيومي: "قدر الله له أن يصاحب جدّه وجدته أكثر من ستة عشر عاما، وأن يعايش والديه لسنوات عديدة، بلغت ستا وثلاثين عاما من عمر أبيه، وحوالي ستين عاما من عمر والدته التي توفيت في ٢٧ من ذي الحجة ١٤١٣هـ / ١٨ يونيو ١٩٩٣م. ومثل هذه المدة الطويلة تتيح للابن أن يتشبع من خصال آبائه وأجداده، وبقية أقرابه الذين عاصروهم في محيط العائلة، وأن يرتوي تماما من أخلاقهم، وأن يتطبع بكثير من طباعهم، كانت الأم هي مدرّسته الأولى، وكان الأب هو معلمه الأول"^(١٠٦).

من يشاهد الأستاذ وهو يعظ على المنبر وهو يبكي لا تكاد عيناه تتوقفان عن الدموع، يدرك بأن لهذا الحزن العميق ولهذا البكاء الغزير أصلا في عائلة الأستاذ وأسرته، بل يدرك أن في عائلته سلسلة من البكائين عيونهم كثيرة الدمع خشية الله، تبدأ السلسلة من الجد "الملا أحمد" والجدّة "مؤنسة" هانم، ثم الوالد "رامز أفندي" والوالدة "رفيعة" هانم، وتستمر مع "فتح الله كولن"، الذي أضحى كبير البكائين المعاصرين، إذ لا يكاد يلقي موعظة أو درساً دون بكاء...

^(١٠٦) معالم في سيرة "خوجا أفندي: محمد فتح الله البسام الأناضولي"، إبراهيم البيومي غانم، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩، ص: ٢١٥-

كل هذا الذي تقدم يؤكد لنا أن الكثير من الجوانب البارزة في شخصية الأستاذ فتح الله إنما اكتسبها من وسطه الأسري.

ثامناً: حال اجتماعية متواضعة

ويذكر الأستاذ إبراهيم بيومي أن أسرة الأستاذ تنتمي بالكاد إلى الطبقة المتوسطة، فقد كانت أسرة تعيش ظروف حياة لا تنحدر إلى حد الفقر، ولا ترتفع إلى حد الغنى والترف، ولكن لها من الاعتزاز بالقيم والعادات والتقاليد، القدر الكثير بالإضافة إلى حب طلب العلم، واعتبار ذلك ثروة كبيرة لا تقدّر بثمن. وفي مثل هذه الأوساط تردهر "النزعات الساعية للتغيير والإصلاح، إلى جانب التطلع الدائم نحو المستقبل عبر بناء الذات، وبذل أقصى ما في الوسع للنجاح فيما تمارسه من أعمال ومهن مختلفة"^(١٧). ولهذا فإن الأستاذ فتح الله كولن ظل طيلة حياته وإلى اليوم يعتبر أن ثروته الفعلية هي العلم وإسعاد القلوب وابتغاء مرضاة الله والسعي في ذلك بخدمة الآخرين وإرشادهم إلى ما يخلص إنسانيتهم ويمكنهم من الفوز بآخرتهم، فالجاء الأصلي عند الأستاذ هو جاه العلم ومكارم الأخلاق، والسيرة الحسنة.

وسط محافظ، وأسرة أكثر محافظة على الدين والتقاليد، وملزمة بالقيم، كل هذه المكونات الإيجابية، أثرت على أسلوب تحصيل فتح الله كولن للعلم والمعرفة. فتحصيله يخفي بعض التوافقات المعنوية تستشف

^(١٧) معالم في سيرة "خوجا أفندي: محمد فتح الله البسام الأناضولي"، إبراهيم البيومي غانم، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩، ص: ٢٢٧-

من بعض الأحداث التي طبعت مساره الدراسي، ومن جوانب أخرى قد يشترك فيها مع أغلب أقرانه ممن ينتمون إلى الفئة الاجتماعية نفسها، وخاصة في الوسط القروي الذي ترعرع فيه، ومن ذلك أنه كان يمكنه الانتظام في سلك التمدرس الرسمي، وأن يشق طريقه كما يشقه شخص مميز في ذكائه ورجاحة عقلية، فتكون الحصيلة هي غير حال الأستاذ فتح الله اليوم، لكن القدر أراد له مساراً يكون فيه التحصيل الأول على الصورة التقليدية ونموذجها المكتمل. ولهذا فإن جو التكية وجو المدارس التقليدية العتيقة كان تديراً إلهياً من أجل تهيئة الفتى فتح الله لأمر عظيم.





المبحث الثاني: رحلة طلب العلم والمعرفة

أولاً: عشق للطلب العلمي والمعرفي

كان فتح الله كولن عاشقا للعلم وطلبه، وكان كغيره ممن يعشقون العلم وطلبه يحمل بين جوانحه قلبا خفاقا يتطلع إلى الاعتراف من كل الينابيع المعرفية المتاحة بنهم مشروع، بما في ذلك المعرفة في مظهرها العصري.

كان التعليم الرسمي تعليما يتغنى بتكوين أجيال لا تربطهم بهوية أي صلة، بل يرتبطون بالفكر المادي وبالفلسفة الطبيعية، وإنكار الحقائق الدينية، بدعوى تكوين إنسان عصري قادر على استيعاب الحداثة والتفاعل معها. وكان قبل ذلك قد تم منع المعاهد الدينية والمدارس التقليدية بعد قيام الجمهورية، وبعبارة أخرى لقد عملت العلمانية التي تبنتها الجمهورية على تقويض كل أشكال التعليم الديني في البلاد.

كان المعلم الذي يدرّس فتح الله كولن في هذه المدرسة الرسمية، ممن هيئوا لتنفيذ الرؤية الحداثية الجديدة في مجال التربية والتعليم، وقد راعه أن يكون فتح الله الطفل النجيب حريصا على أداء الصلاة، فأخذ يطارده ويضايقه لأجل ذلك، وكان يسخر أمامه عنوة من الدين، وجعل يُنعتُه بـ"المُلاّ" وهو لقب يطلق على من تخرّج من المدارس الدينية العتيقة في

تركيا. يذكر فريد الأنصاري أن هذا السلوك لم يزد فتح الله إلا إصرارا على سلوكه وعلى التشبث بمسلكه الديني السليم، وهو السلوك الذي يتصور أنه يحتاج إلى وقفة تأمل؛ فغير الأستاذ قد يضعف أمام وقاحة المعلم، وربما تنصح الأسرة بأن يتظاهر أمام المعلم بما يحب أن يرى، لكن هذا لم يحدث من الأستاذ فتح الله، لأن جو البيت كان يشعره بالقوة والدعم النفسي الذي يحتاج إليه طفل في مثل سنه. والأسس التربوية التي تلقاها في وسطه الأسري لم تكن مظهرا خارجيا أو مظهرا سطحيا، بل مسلكا متجزرا. ولم يكن الفتى ليصرّ على الظهور بما يكره معلمه لو لم يشعر بأن أسرته وخاصة الجد والولد وباقي أفراد أسرته يدعمونه ويسندون أزره. وقبل هذا وذاك فإن مظاهر التدين هذه لو لم تكن إرضاء لأمر الله وهو ما آمن به الأستاذ، لما وجد الداعم النفسي الذي يقويه. وعلى الرغم من تركه الدراسة الرسمية إلا أنه تمكن من الحصول على الابتدائية عن طريق المشاركة الحرة وهو في أرضروم سنوات بعد ذلك.^(١٠٨)

ثانياً: الإسلام الواسطي منهج حياة

ترتبط شخصية الأستاذ فتح الله كولين بتوجهه فكري واحد لم يحد عنه طيلة حياته وإلى اليوم، وهو الإسلام الواسطي المتشبع بمعرفة دقيقة وعميقة بالأصول، ومعرفة واسعة بالتراث الثقافي والفكري والصوفي للأمة، عربيا كان أو عثمانيا.. إضافة إلى معرفة دقيقة بالفكر المعاصر بما في ذلك الفكر الغربي، زيادة على إحساس عميق جدا بروح العصر وما يحتاج إليه من شروط ومقومات، وهذا الإحساس يتجاوز حدود المعرفة

^(١٠٨) عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٦٨.

بالعقل إلى إدراك الصلب بالروح والوجدان.. وهذه أحكام لا تطلق دون تمحيص بل قائمة على ما يؤكدتها بعدد لا يحصى من الأدلة، وبشهادة العديد من المفكرين والباحثين الذين تواصلوا علميا مع فكر الأستاذ.

ثالثاً: والد وابنه معا في رحلة طلب العلم

اختار الوالد مصاحبة ابنه النجيب في رحلة طلب العلم، فشغفه بطلب العلم ومحبه لأهله من المشايخ والعلماء جعله يتخذ من البيت محجاً لهم. وكان فتح الله معجبا بهذا الجو، محبا للظهور بمظهر الرجال، بل إن نضجه المبكر قد سمح له بأن يكون أهلاً لمجالسة الكبار. فكان والده والكبار لا يرون في اندساسه بينهم ما يضر، واعتبروا ذلك علامة من علامات النبوغ والتميز.. كيف لا وهو الطفل الذي لم يجالس أقرانه ولا رؤي وهو لاه معهم. فقد عاش طفولته كلها مع الكبار وتطبع بطابعهم، وتحلى بأخلاق الرجولة وسجايا الفحولة وهو الطفل الصغير.^(١٠٩)

قد يكون ما تلقاه الأستاذ من والده قليلاً من حيث الكم، لكنه ثقيل جدا في دلالاته وفي معناه؛ فلقد تلقى عن الوالد المبادئ الأولى في اللغة العربية والفارسية، وكان يجلس معه لحفظ القرآن الكريم.. لكن أهم ما يمكن أن يؤثر في طفل في مثل سن فتح الله هو أن يقدم الوالد على حفر نفق يصل بين البيت والمسجد يتسرب منه شيوخ القرآن الكريم ليلقنوا الطفل والوالد القرآن الكريم. ولهذا الحدث دلالاته القوية التي لا يمكن إغفالها في دراسة شخصية الأستاذ. فقد أقام الوالد هذا النفق من أجل تمويه بعد أن اشتد التضييق في هذه الفترة على تعليم القرآن والعلوم

^(١٠٩) عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٤٧.

الشرعية، وبعد أن احتدم التضييق على الدين والمتدينين. انتقل الوالد إلى قرية "ألوار" (التابعة لمدينة "أرضروم") التي عين بها إماماً لمسجدها. وكانت هذه السنة سنة توقف فتح الله عن ارتياد المدرسة الرسمية، لكنها ستكون بداية مرحلة التعليم التقليدي أو التعليم الأصيل. وقد ينظر بعضهم إلى الأمر نظرة لا تستشعر أي دلالة أو معنى في هذا الحدث، لكن الله قد دبر لفتح الله مصيراً يبدأ بمحاولة غير مكتملة مع التعليم الرسمي ولتستمر مع رحلة في التعليم الأصيل بما له وبما عليه. وكأن الله تبارك وتعالى أراد أن يذيق فتح الله كل هذه الأصناف في التعليم تمهيداً لرؤية إضافية يقدمها الأستاذ فتح الله كونه لأسلوب التعليم السائد في تركيا والعالم الإسلامي وأوروبا وفي غيره من المناطق.

رابعاً: شيوخ الأستاذ فتح الله كولن

إن رحلة طلب العلم في حياة الأستاذ مليئة بالمعاناة وحافلة بالأحداث ومليئة بالأخذ عن الشيوخ، دون أن تخلو من العصامية والتكوين الذاتي، وقد سجل في "دنياي الصغيرة" بعض معاناته في سبيل التحصيل، والأهم هو ما سجله عن بعض مشايخه. وقد اهتم بهذا الجانب كل من فريد الأنصاري وإبراهيم بيومي وتبعاً لشيخه في مرحلة التحصيل الأولى حيث كانت علاقة الأستاذ فتح الله ببعض شيوخه علاقة خاصة جديرة بالاهتمام. ونذكر فيما يلي بعض من جلس الأستاذ في دروسهم واستفاد من معارفهم.

١- الإمام محمد لطفي أفندي

عرف بـ"الإمام الألوارلي"، نسبة إلى قرية ألوار، ويظهر من خلال حديث الأستاذ عنه أنه كان صاحب تأثير كبير وبليغ في آل كولن. فقد كان محبوبا لدى جميع أفراد الأسرة كبيرا وصغيرا. كان مجرد ذكر اسمه يبعث على ذكر الله، كان لاسمه وقع سحر يفتح أبواب القلوب مباشرة على معارج الروح.. رجال إذا رؤوا أو ذكروا ذكر الله.. تعلق فتح الله بالشيخ لما أحاط الشيخ به الفتى فتح الله من عناية واهتمام، لما لمس فيه من ذكاء وفطنة روحانية قلّ مثلها بين أقرانه، إضافة لما وجد فيه من حب لطلب لعلم والمعرفة. ومن الطبيعي أن تحفز مثل هذه السمات شيخا في مثل صدق الإمام الألوارلي وصفاء طويته، وتحفزه لأن يشجع تلميذه ويدفعه دفعا في سبيل ما يريد الوصول إليه.

لقد تحمس الشيخ لاحتضان تلميذه احتضانا علميا، وقابل فتح الله هذا الاهتمام بسعى حثيث وجدي حتى يكون عند حسن ظن شيخه. ومن أهم مظاهر الاعتراف بفضل هذا الشيخ حرص الأستاذ فتح الله كولن على ذكر فضله عليه عندما صار فتح الله "أستاذا" بيني الأجيال، يقول عنه: "كنت أتذوق كلامه كمن يتذوق شهذا خالصا. كنت إذا تحدث أنصتُ إليه وكأن على رأسي الطير.. فكلامه ينفذ سريعا إلى أعماقي، وكأنني بإزاء عالم عظيم الشأن... والدي ووالدتي كان ارتباطهما به ارتباط مريدين بشيخهما، وكنت أنا جزءاً من هذا الكل الروحاني"^(١١٠).

^(١١٠) معالم في سيرة "خوجا أفندي: محمد فتح الله البسام الأناضولي"، إبراهيم البيومي غانم، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩، ص: ٢٢٣.

لازم الطفل فتح الله شيخه الإمام الألوارلي حتى حدود شبابه، ولذلك فهو يؤكد بأنه مدين للشيخ لظفي بقسم كبير من مشاعره وأحاسيسه وبصيرته. وإن دل هذا الكلام على شيء فإنما يدل على أن التأثير كان تأثيراً روحياً، فصفاً الشيخ الروحي فتح أمام فتح الله الباب للولوج إلى مدارج الاتقاء.

ومن الأكد أن يكون لهذه النظرة الحانية والحليمة والعطوفة وما خلفته من أثر في فتح الله أثرها العميق في منهج الأستاذ فتح الله وقد صار مربياً. فقد كان الأستاذ حريصاً - وهو يقوم بدور المربي - أن يعامل كل تلامذته ومن يقوم بتربيتهم بحب وصدق، واعتبار ذلك وسيلة من وسائل التأثير في المتربي. ولعل هذا هو ما جعل الأستاذ يقول وهو يتحدث عن عمق تقديره للشيخ محمد لظفي "رغم مرور السنين لا زلتُ أشعر بطزاجة لمسات الشيخ محمد لظفي الحانية على أذني، وهو يقول لي: "ألين أذنيك لكي يفتح ذكاؤك، وتقوى فراستك" (١١١).

٢ - الشيخ صدقي أفندي البزاز

كان هذا الشيخ بزازا يبيع الثوب ويتطوع في تلقين علم التجويد وقواعده، وكان مشهوراً بين الناس بذلك، وبتلقينه بعض العلوم الشرعية. وكان لا يقبل أجراً على ما يلقنه من علم، وهو مسلك يباركه الله تبارك وتعالى، ولعل هذا هو الذي دفع "رامز أفندي" إلى إرسال فتح الله

(١١١) معالم في سيرة "خوجا أفندي: محمد فتح الله البسام الأناضولي"، إبراهيم البيومي غانم،

إلى قضاء "حصن قلعة" من أقاليم أرضروم، الذي يقع على بُعد سبع كيلومترات من قريتهم.

يذكر فريد الأنصاري في "عودة الفرسان" أن الفتى فرح كثيرا لهذا الأمر وبأنه طار متلهفا بجناح الريح، لكن فرحته لم تكتمل لأنه "لم يجد مكانا للمبيت بمحضرة الشيخ، فاضطر للذهاب والإياب كل يوم ما بين قريتهم وقرية الشيخ، فيقطع ما بين الصباح والمساء أكثر من أربعة عشر كيلومترا، سيرا على الأقدام"^(١١٢)، وهذا يعني بأن ما كان يمضيه فتح الله في الطريق من وقت بالإضافة إلى مشقة السير على الأقدام، كان أكثر من الوقت الذي يمضيه جالسا للتحصيل، فقرر الوالد إنهاء هذه المهمة غير المفيدة. لكن فتح الله جعل من هذا التوقف محطة لمعاودة الاتصال بالكتب يطالعها وبتهمها التهاما، فلا مجال عند أمثاله للهو، بل هي مجرد محطة للاستعداد لما هو قادم.

٣- سعدي أفندي

بعد مدة تدخل الإمام الألوارلي فاقترح على رامز أفندي أن يرسل الفتى إلى عند حفيده "سعدي أفندي" إمام مسجد "قُورْشُونلي" بمركز مدينة أرضروم. لم تكن الظروف مواتية لكي يكون تحصيله في ظروف جيدة، فالغرفة التي اتخذها الشيخ مكانا لإقامة ستة من تلامذته منهم فتح الله كانت صغيرة وغير مريحة بحيث تساعد طالب علم على تحصيله. يضاف إلى ذلك أن فارق السن بين فتح الله والشيخ لم يكن يتجاوز خمس

^(١١٢) عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٧٠.

سنوات. يقول فريد الأنصاري: "انطلق الفتى مرة أخرى إلى المدرسة الجديدة، فإذا به بين يدي إمام شاب لا يكاد يفوته سناً إلا بخمسة أعوام أو تزيد قليلاً. كان سعدي أفندي متمكناً من معارفه، إلا أنه كان عديم الخبرة في التلقين والتدريس..."^(١١٣).

فرض الشيخ الشاب على فتح الله أن يبدأ كأنه لم يدرس شيئاً من قبل، لكن الفتى فتح الله استظهر بين يديه كل المقررات بعد شهرين ونصف، "فاضطر الشيخ بعد ذلك أن يجعله ضمن حلقة المتقدمين الذين بدأوا دراسة النحو والصرف قبل سنتين"^(١١٤).

قُدِرَ على رامز أفندي رزقه بعد أن غادر قريته "كروجك"، فلم يكن بمقدوره أن يوفر للفتى سوى ثمن الخبز، فعاش فتح وهو عند سعدي أفندي ظروفاً صعبة جعلت عُوده يزداد صلابة ويتقوى أكثر، ومع كل ذلك يزداد إصراره على طلب العلم، ويزداد إصراره على تلبية نداء داخلي يقول له "أحرص على بناء ذاتك بالعلم والمعرفة". وقد قيل "لولا الفقراء لضاع العلم". ومن يعلم فلعل الظروف الصعبة التي عاشها فتح الله كانت خير معين له على الصبر في طريق العلم والمعرفة.

أدرك رامز أفندي أن ساعة الرحيل عن القرية قد آذنت بعد وفاة الإمام الألوارلي محمد لطفي أفندي^(١١٥) المساند، وكان الفتى فتح الله بعد قرار

^(١١٣) عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٧١.

^(١١٤) عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٧١.

^(١١٥) تحدث فريد الأنصاري عن العلاقة التي كانت تربط أسرة الفتى فتح الله بهذا الشيخ الجليل الذي شكل رحيله للأسرة نوعاً من الفراغ الروحي عانى منه كثيراً. انظر: عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٧٧-٧٨.

الرحيل يعيش على أمل بقاء الوالد إماما يؤم الناس، ربما لأنه كان يشعر بأن إمكانية تحصيل المعرفة سيكون ميسورا من جهة ما يوفره الوالد من مدخول يعينه على أن يظل على مسار العلم والتحصيل المعرفي. وقُدِّر لـ"رامز أفندي" أن يحصل على وظيفة إمام من قرية صغيرة قريبة من أرضروم وهي قرية "أزْتُوزُو". وبعد استقرار الوالد في هذه القرية استأذن فتح الله والده بأن يخرج إلى أرضروم طلبا للعلم، وهي مرحلة مهمة في حياة الأستاذ لأنها تسجّل ما كان الباحث عن العلم الأصيل يعانیه من مصاعب وبؤس وفقر، ولكن الهدف أسمى وأعلى، وصدق المتنبّي حين يقول:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
 فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم
 واستقر به المقام عند الشيخ عثمان بكتاش.

٤- عثمان بكتاش

كان هذا العالم متمكنا من علم النحو والصرف والبلاغة والفقهاء وأصوله، وغيرها من علوم الشريعة الأخرى، وقد مكّنه ذلك من أن يصير أثيرا عند مفتي المدينة، إذ كان يستدعيه لاستشارته كلما عرضت له نازلة.^(١١٦) اهتم عثمان بكتاش بالفتى فتح الله رغم مشاغله الكثيرة نظرا لما رآه فيه من سبق وتميز، وقابلية واسعة للتحصيل العلمي، فأخذ يدرّسه مقررات المستويات العليا، فتمكن في مدة وجيزة من علوم النحو

^(١١٦) عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٨٤.

والصرف والبلاغة والفقه وأصوله، فتفتحت قريحته وازدادت مداركه. الأمر الذي جعله يكلفه بتدريس المستويات الأولى ومراجعة الدروس مع المبتدئين. فتح ذلك المجال أمامه كي يحصل تجربة طيبة في التلقين والتعليم، وربما في إدراك مكان القوة أو الضعف في المنهج. ومما لا شك فيه كذلك أن ذلك قد ظل منقوشا في ذهنه وكان أثره واضحا في مشروعه الإصلاحية. يقول فريد الأنصاري عن تجربة فتح الله في التحصيل مع عثمان بكتاش: "لعل الأستاذ عثمان هو الشيخ الوحيد الذي يمكن أن نقول -إلى حد ما- أن الطالب فتح الله قد تخرج على يده وبه، رغم قصر المدة التي لازمه فيها، فلو جمعنا كل ما درسه فتح الله على المشايخ بمدارس التعليم العتيق لما تعدى ذلك كله مدة سنتين، إلا أن الأشهر التي قضاها متتلماذا على شيخه عثمان بكتاش كانت كافية لانطلاقه في بحر العلوم فردا.. ففهمه لأسرار البلاغة وقواعد اللغة، وتلقيه لقواعد الفقه والأصول، فتح أمامه كنوز محفوظه القديم من المقررات العلمية التي استظهرها من قبل، فصار يعرف العلم بعد ذلك من قلبه وعقله، مغذيا ومتغذيا"^(١١٧).

هذا المسار الحافل الذي عاشه فتح الله خلال هذه المرحلة تؤكد كلها أنها أحداث جعلت عوده أكثر صلابة، وجعلت رغبته في إدراك أساس الثروة المعرفية، التي ستمكّنه من بناء شخصيته المعرفية أكثر اتساعاً. لم يكن فتح الله ولا والده رامز أفندي ولا أي أحد من أفراد أسرته، ولا حتى المنصفون من شيوخه الذين رأوا فيه صورة شخصية واعدة وشخصية

^(١١٧) عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٨٥.

متميزة تشعل ذكاء وطموحا، ليشكّوا بأن فتح الله سيكون له شأو عظيم في المستقبل. ولكن ما كان أمام أحد بما في ذلك فتح الله نفسه أن يخمن النموذج الذي سيكون عليه في المستقبل، لكن الأمر الذي وقع حوله الاجتماع هو أنه سيحصل معرفة تحصنه أمام العواصف المزمجرة التي كانت تمر منها تركيا خلال هذه الفترة الكالحة من تاريخها.

تعتبر هذه المرحلة وما حصّله فيها فتح الله من معارف بما فيها حفظ القرآن الكريم بمثابة الأساس الذي يقوم عليه البناء قويا. لقد حصن الأستاذ فتح خلال هذه المرحلة نفسه بمقومات الأصالة والهوية الإسلامية، ولا شك في أن لهذه الأحداث الذي مر بها فتح الله كولين جوانب كانت عناية الله ترعاها، لأن ما قدر لفتح الله ما كان للتخطيط والبرمجة أن ترعاه.

وكخلاصة عامة يمكن القول بأن فتح الله قد بدأ حياة علمية منذ الصبا، وهي حياة تمثل صدق المجتمع التركي في هذه المرحلة، وتمثل في الوقت نفسه أصالته ورغبته في المحافظة على الهوية الإسلامية.

فالهوية الإسلامية بالنسبة للأستاذ فتح الله وتشعبه بها وعمله على تطويرها والإخلاص لها، والاجتهاد في أن تكون خلاص الإنسانية من أزمته في العصور الحديثة، تجد أصولها في هذه المرحلة.. ففيها وضع حب الإسلام وحب الشريعة وحب الرسول ﷺ وحب الصحابة الكرام وحب التاريخ الإسلامي وأمجاده، وحب قيم القرآن ومبادئه.

بعد هذه المرحلة ستبدأ المرحلة الثانية من حياة الأستاذ فتح الله، وهي مرحلة طويلة ومليئة بالأحداث والإنجازات، وهي كذلك المرحلة التي ستعرف صعود نجم الأستاذ فتح الله كولين، وستعرف انتباه الباحثين والمهتمين به، وخاصة في مجال علم الاجتماع.

خامساً: عناصر التمييز في شخصية فتح الله

يذكر فريد الأنصاري أن الأستاذ فتح الله قد وجد الطريق إلى الموازنة بين الاغتراف من العلم الأصيل، مع التطلع إلى نفص الغبار عنه، وبعث الحياة فيه من خلال إعادة الاعتبار له بتمثله واقعياً، وفي الوقت نفسه واطب فتح الله على الارتواء من مجالس الذكر والاعتراف من حياض الروح.. يقول فريد الأنصاري: "بعد بلوغه منازل العلماء الراسخين، تيقن فتح الله أن هذا التوازن التلقائي الذي كان يجده ما بين متابعة الدراسة الشرعية، وبين المواظبة على حضور مجالس الذكر، هو الذي مكّنه من اكتساب نظرة شمولية متوازنة لمفهوم الدين حقيقة وشرعية.. ولذلك لم يكن الفتى من الدراويش الذين يتوسلون إلى مرادهم بخشن الثياب والمرقعات، بل كان يعتني بلباسه اعتناء... ولذلك ما تفهم أحد من أصحابه -في مرحلة الطلب- العلاقة بين الحالين في شخصيته، ولا وجدوا انسجاماً بين الطورين في طبيعته، حيث كانت الثقافة الصوفية الرائجة يومئذ بين رواد الزوايا والتكايا تفسر الزهد بأنه الابتذال في اللباس، ومعاداة الأناقة والجمال"^(١١٨).

يمكن القول بأن ملامح شخصية فتح الله بدأت تتشكل منذ سن المراهقة، لكنها مراهقة لا تشبه مراهقة غيره من الفتيان. فلقد تم توجيه هذه المراهقة نحو التطلع إلى تحقيق ما لم يحققه غيره... عَشق فتح الله ركوب التحدي، هذا التحدي جعله يختار ألا يكون مثل أقرانه بل أن يكون في مستوى الكبار القادرين على تقديم شيء لهذه الأمة وللإنسانية،

^(١١٨) عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٨٩-٩٠.

ترقى به ويرقى بها.. وتجد هذه القضية تفسيرها في تميز مسار طفولته، وفي التربية الروحية المباشرة التي تلقاها إما من الوسط الذي عاش فيه، وإما عن طريق علماء بيئته أو عن طريق مداومته على حضور جلسات الذكر. فهذه التربية الخاصة المميزة جعلت مراهقته تكون مختلفة عن مراهقة غيره من اليافعين والشباب، وقد كان لتعرفه على رسائل النور سنة ١٩٥٧م^(١١٩) الأثر الكبير على شخصيته، وكأن الرسائل أخذت بيده لتريه الطريق وتدله على السير وهو ما زال شاباً يافعاً. ولربما أدرك فتح الله بما وهبه الله من ذكاء وقوة ذاكرة وروحانية عالية أن الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي يحثه من خلال خطاب رسائل النور أن يشمر على ساعد الجد وأن يعد نفسه لسفر طويل في سبيل إتمام ما بذره النورسي رحمه الله من أجل الأجيال القادمة كي تقطف الثمار.. يقول فريد الأنصاري بأن فتح الله قد: "... أدرك أن هذه الفلاحة ليست ترتوي بغير دموع العاشقين، ومن ثم لم يزل يبكي حتى انتفخت مقلته...!"^(١٢٠). وبالطبع لم يبال فتح الله بما يحيط برسائل النور وصاحبها بديع الزمان سعيد النورسي من مخاطر، لأن من ينخرط في دائرة النور يعلم جيدا بأنه ينخرط في ساحة مسافة ابتعادها عن السجون والمتابعات والمحاكمات والمطارادات مسافة قصيرة جدا بل منعقدة، ومع ذلك فإن فتح الله تجاهل كل ذلك وصمم على المضي لأنه وجد في كل ذلك ما يداوي قلبه فتحدي كل من خوفه من المضي في هذا الأمر، فمثل فتح الله "كرجل أوغل في سفر بعيد فاشتد به العطش في لفح الرمضاء ومسالك الصحراء، حتى إذا أيقن بالهلاك

^(١١٩) انظر: عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٩٧.

^(١٢٠) عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ٩٧.

جاء الله بالفرج، فأشرف على واحة خضراء ذات مياه باردة وظلال. فأى بيان ثقیل يستطيع بعد ذلك أن یصده عن التعریج السریع على منابع المیاہ؟!^(١٢١).

كان انتقال فتح الله إلى محافظة "أدرنة" مرحلة جديدة، ففيها وُظف إماما بأحد مساجدها، هو مسجد "الصومعة البيضاء"، يأمّ الناس للصلاة ويعيظهم زمنا. وتأتي أهمية هذه الوظيفة من جهة ما فتحت أمام الفتى من أبواب للتعرف عن قرب على طبيعة الوعي الديني لدى بسطاء الناس وعامتهم.

ولكي يشحذ تجربته ويصقل قدرته على التأثير في الناس، تقدم فتح الله بعد مدة إلى امتحان الوعاظ الذي تنظمه رئاسة الشؤون الدينية بأنقرة، فتفوق فيه، وبعد مدة نجح في المباراة التي نظمتها دار الإفتاء في أدرنة فجاء في الرتبة الأولى فتعين إماما لجامع "الشرفات الثلاث" التاريخي.



^(١٢١) عودة الفرسان، فريد الأنصاري، ص: ١٠٤.

الفصل الثالث:

مصادر الإصلاح في رؤية الأستاذ فتح الله كولن



المبحث الأول: أسس الرؤية، ومركزاتها

توطئة

تناولنا فيما سبق مجموعة من القضايا تتصل بحياة الأستاذ فتح الله كولن، وحاولنا الوقوف عند المحطات الأساسية في حياته، كما سعينا إلى تبين معالم تكون شخصيته الفكرية والدعوية الحركية.. ومن الممكن القول إن تشكل معالم حياة الأستاذ كانت محاطة بعناية إلهية، وكأن الله كان يهيئه لأمر كبير. ولذلك فإن من يتأمل في جوانب حياته سيلاحظ بأن الكثير من الأشياء يصعب تفسيرها تفسيراً عقلياً، لكن إذا نظرنا إليها من زوايا أخرى، فإن فهمنا لفتح الله سيكون قد أجاب عن كثير من الأسئلة.

كانت المباحث السالفة تعريفية حاولنا فيها إضاءة عالم فتح الله قبل الدخول إليه. تعتبر معالم حياة الأستاذ نوعاً من الوقوف على عتبة هذا العالم، وطلباً للإذن بالدخول إلى هذا العالم الفسيح والمركب بالمعنى الإيجابي. إن عالم الأستاذ فتح الله كولن متعدد كما بينا في مكان سابق، ولهذا فإن الباحث يتهيب من ولوجه، مخافة أن يكون هذا العالم عصياً على الفهم والاستيعاب، وعصياً على الإمساك بخيوطة.

إن عالم فتح الله عالم معنوي بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ولذلك فمن يدخل ينبغي له التسلح بطاقة معنوية وروحية، حتى يتسنى مقارنته

وفهمه ومقاربة مكوناته.

من مسلمات البحث تحديد الباب الذي يمكن الدخول منه إلى الأبواب الأخرى، لأن عالم الأستاذ فتح الله كولن عالم فسيح يحتوي عوالم أخرى، وكل عالم من هذه العوالم يشكل لوحده مجالاً خصباً للبحث، وقد نجده في هذا الباب الأول، وهو باب المصادر الأساسية للميراث الثقافي، فلا حديث عن الإصلاح في رؤية الأستاذ فتح الله كولن دون فهم طبيعة نظريته للأسس التي يقوم عليها فكره الإصلاحي.

أولاً: القرآن في عمق الرؤية

١- نون الجمع وتجاوز حدود الزمان والمكان

الأستاذ دائم الإلحاح على مركزية القرآن الكريم والسنة النبوية في مصادر الثقافة الذاتية كما يطلق عليها، وهو عندما يثيرهما نلاحظ بأنه يربطهما بالعلاقة الرابطة بين "الإنسان-الكائنات-الله"، على أساس وجوب إدراك هذه العناصر كلها في بوتقة واحدة، إذ تعتبر هذه العلاقة من أهم الأسس التي يبنى عليها نظام ثقافتنا الذاتية.

والملاحظ في هذا الإطار كثرة إلحاحه على "نون الجمع". الأمر يفسر بأنه ينطلق من رؤية جماعية غير محصورة في الزمان والمكان. فهذه المنظومة وجدت منذ أن خلق الله الإنسان ونزوله إلى الأرض من أجل المكابدة للحصول على إجازة كماله التي تؤهله للعودة إلى مهده الأول. ومن منظور هذه العودة فإن هناك جائزة يحصلها الإنسان بعد نهاية مكابدته على الأرض، وبعد أن يجتاز امتحان الكفاءة الإنسانية التي يلزم

أن تعترف بأن الإنسان مجرد مخلوق، بل هو مجرد عدم لولا فضل الله عليه إذ نفخ الروح فيه، وأن الله هو الخالق وهو الأول والآخر وهو الظاهر والباطن، وبأن المخلوق الإنساني لم يوجد إلا ليعرف هذه الحقيقة التي هي في الوقت نفسه سر وجوده. ولذلك فالمنظومة الوحيدة التي تحقق هذا الشعور هي منظومة التوحيد^(١٢٢). ولذلك يلمس في نون الجماعة تجاوز الحدود الزمانية والمكانية، فالتركيز على نون الجمع هذه يتم في دائرة كون المنظومة عنصرا ثابتا لا يتغير ولا ينبغي أن يتغير وإن تغير الزمان وتغير المكان، بل إن هذين العنصرين مجرد مظهر صوري فيما يتعلق بهذه المنظومة، فجزورها لانهائية. ولذلك فهي تتجه لكل إنسان استحق صفة "الإنسانية" في كل الأزمنة وفي كل الأمكنة، وحتى في العوالم التي لم تكتشف بعد عبر هذا الكون الفسيح، الواسع سعة قدرته تبارك وتعالى.

سيرُ الإنسان في هذا الطريق يحقق الكثير من الحسنات والإيجابيات ومن بينها وراثه الأرض وما يتبع ذلك من عمق في الفضاء الواسع حيث تتبدد نظرة الإنسان للزمان والمكان المحكومة بمقاييس المادة

^(١٢٢) وإلى هذا المعنى يشير بديع الزمان سعيد النورسي إذ يقول: "فالكائنات والموجودات بما فيها الإنسان حروف خاوية حائرة تجوب كتاب العالم، فلا تقرُّ أو تجد لها مكانا فوق سطور هذا الكتاب الكبير ما لم تستمد معانيها من أسماء الله الحسنى، وما لم يمسه مدد من أمدادها، وينسكب فيها مداد من مداد بحر القدرة.. فلا شيء موجود على الحقيقة مالم يعطه الله شيئته، ويمنحه كيانه، ويقدر وجوده. فإذا وصل الإنسان إلى هذه النقطة من الإدراك، ولاسيما بعد عظيم المعناة، فقد وصل إلى التوحيد الخالص، وتشرب جوهر الإيمان والإسلام، وعرف جدوى الوجود ومعناه". (المثنوي العربي التوري، بديع الزمان سعيد النورسي (تحقيق: إحسان قاسم الصالح)، دار النيل، ط: ١، القاهرة ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص: ٣٨).

المحدودة جدا، يقول: "يقول الله تعالى في الفرقان البديع البيان: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥)، ولا ينبغي أن يتردد امرؤ في توقع مجيء هذا اليوم، وهو وعد الله المؤكّد. ولن تنحصر هذه الوراثة بالأرض وحدها... ذلك، بأن من يرث الأرض ويحكمها، يحكم عمق الفضاء والسماء أيضا، إذن هي حاكمية في الكون كذلك. ولما كانت هذه الحاكمية بالنبابة والخلافة، فحيازة خصال التمثيل التي يريد بها صاحب السماوات والأرض الحق، لازمة وضرورية. بل يصح القول بأن تلك الرؤيا، وذلك الرجاء، يتحقق بقدر إدراك هذه الخصال ومعايشتها"^(١٢٣).

فالإنسان بهذا المنظور ليس مخلوقا ثانويا وليس مخلوقا هامشيا، بل هو أرقى المخلوقات وأكثرها دلالة على الخالق، فهو يشترك مع المخلوقات الأخرى في أنها "مشهر" و"كتاب" و"بيان".. فهي "مشهر" لأنها تشهر القدرة الإلهية، وتشهر عظمة الخالق.. وهي "كتاب" بما تحمله من حروف وكلمات تدل على الكاتب المصور وعلى من خط بالقلم، وقال "كن" فيكون.. وهي "بيان" لأنها تبرز جمال الخالق ورونق صنعته بما تجلي به الجميل المتعالي من جماله ورونقه على كل المخلوقات؛ فجمال المخلوقات ليس سوى تجل لمطلق جماله تعالى.. وإذا كان الإنسان يشترك مع المخلوقات كلها في أنها مشهرٌ وكتابٌ بيانٌ، إلا أن الله تبارك وتعالى ميّزه عنها بأن جعله المتكلم باسم كل المخلوقات، لقد جهزه بالقدرة على الكلام وعلى البيان، ولذلك يستطيع أن يجلي

^(١٢٣) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص: ١٣.

دقائق الربوبية المتجلية في كل المخلوقات بما فيها الإنسان نفسه، فالإنسان بفعل جوهره العالي وماهيته المكرمة، يملك القدرة على ذلك ويستطيعه. فبالبيان الذي أودعه الله في الإنسان يستطيع هذا الإنسان مد كل المخلوقات بالحياة بما هي دليل على الخالق. إن للبيان سلطة وقوة "لا حدود لها، لأن "البيان" يمد الجماد بالحياة، ويحرك الأحياء ويأسر الجموع بقوة تأثيره، ويدفعهم إلى أقصى حدود طاقتهم"^(١٢٤).

فالكلام بهذا المعنى - كما يرى الأستاذ فتح الله كولن- هو ما أوجد وأفصح عن العلاقة العجيبة بين الخالق والمخلوق.

الكائني الإنساني ليس أكثر من خليط من ماء وتراب، ولكن لأنه مستودع المعرفة كان أرقى المخلوقات، لأن الله منحه منحة البيان والكلام، فكان بذلك رئيسا على هذه الأرض. وبخاصية الكلام هذه فإن الإنسان - كما يرى الأستاذ فتح الله- استطاع التكلم باسمه وباسم جميع المخلوقات الأخرى.. وبخاصية البيان هذه أصبح الإنسان هدف الخطاب الإلهي، وبالقدرة نفسها استطاع هذا المخلوق الإنساني التوجه إلى الله تبارك وتعالى. فالإنسان بفضل نعمة البيان يفصح عن ذاته ويستطيع تأويل كل الأشياء والمخلوقات الأخرى، فكل فرد من أفراد الإنسانية في حد ذاته خطاب (language) والصورة التي يكون عليها هذا الخطاب هي في حد ذاتها صورة من صور البيان.

إن البيان مفتاح يفتح أقفال الكنوز المؤدية إلى المعرفة، وهو المفتاح

^(١٢٤) سلطة الكلمة وقوتها-١، محمد جكيب، مجلة حراء، العدد: ٣١ (يوليو-أغسطس ٢٠١٢م)

الذي يتيح ترتيب أمور السلطنة على الأرض.^(١٢٥)

٢- الثقافة الذاتية في ضوء معادلة "الإنسان-الكائنات-الله"

نستخلص مما تقدم أن الإنسان يوجد في مركز الكون باعتباره أرقى المخلوقات وأوعاها في طبيعة التوجه إلى الله وتعالى. وتعتبر معادلة "الإنسان-الكائنات-الله" مرتكز من مرتكزات نظامنا الثقافي أو مرتكز من مرتكزات ثقافتنا الذاتية كما يرى الأستاذ فتح الله كولن. فإذا كانت الثقافة هي: "مجموع نظم وقواعد تحكم التصرفات الاجتماعية والأخلاقية التي أنتجتها أمة أثناء تاريخها الطويل، وجعلتها بمرور الزمان بعدا من أبعاد وجودها أو حوّلتها إلى مكتسبات في اللاشعور.. ومع أن بعض الخصوصيات الأساسية للثقافة حسب هذا التعريف يحمل سمات عالمية، لكن الواضح أن لكل مجتمع في جغرافية اجتماعية معينة، ثقافة سائدة خاصة. وبدهي أن هذه الخصوصية الثقافية عنصر مؤثر قوي في النظم الفكرية. ولذلك، يعد الفكر المرتبط بثقافة معينة عند فرد من الأفراد، تعبيرا عن ذاته بواسطة إطار المرجعية المعينة"^(١٢٦).

فإنها هي أصل ثبات نون الجمع وأساس استمرارها وبقائها، وبغيابها تتبدد نون الجمع وتضمحل وتنزوي بعيدا على هامش التاريخ والزمن. الحاصل: "أن الثقافة هي مجموع المفاهيم والقواعد والانسياقات التي

^(١٢٥) انظر:

M. Fethullah Gülen, Parole Et Pouvoir Déxpression, Du langage, de l'ésthétique et de la coyance, Tra: Jean-Louis Baur, ED: DU NIL Izmir-turquie, p:1-2.

^(١٢٦) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١١م، ص: ٧٧.

تعلمها الإنسان وآمن بها وطبقها في حياته فصارت بعناصرها الأصلية والتبعية بعدا من طبعه، حتى تحولت إلى مصدر للمعلومات في اللاشعور... فهي ظاهرة أبيستمولوجية يُدرك ويُحس بوجودها وتأثيرها بين الحين والآخر، حتى في غياب الشعور والإرادة^(١٢٧).

فهذه الحقيقة توجد في أصل تكوين الإنسان، فهي لا تمنحي، لكنها قد تنسى وتهمل ويلغى دورها في الحياة كما وقع مع الفلسفة المادية التي جعلت الإنسان والأشياء والحوادث أصل كل وجود، وألغت الربوبية وأبطلت وجودها وحقيقتها.. فالإنسان من منظور هذه الفلسفة ابن الطبيعة إذ هي التي صنعتها، بل هو وباقي الكائنات نتيجة تحول المادة.

المرتکز الأساسي في هويتنا - كما يرى فتح الله كولن - هو وجود مناسبة دائمة بين الصنعة والصانع، والأثر وصاحب الأثر، أو بين الخلق (أو المخلوقات) والخالق، وبين الإبداع والمبدع المطلق.. وبعبارة دقيقة إن الأستاذ فتح الله ينطلق من أن حقيقة وجودنا وحقيقة المنظومة التي تحركنا في لاوعينا، أو بالأحرى التي تنسجم مع فطرتنا، هي التوحيد. وهو عندما يرفع أمر التوحيد ويجعله مركز الوجود الذاتي، يطرحه في مقابل الفلسفة الغربية التي تنكرت وانحرفت عن هذا الجانب المنسجم مع فطرتها، بمعنى أنه يبعدها عن دائرة منظومتنا الذاتية، لعدم انسجامها مع الفطرة، فهي لا تملك أن تكون بديلا عن ثقافتنا، ولا يمكن أن تحقق انسجامنا الفطري مع خالق الوجود، ومع الوجود.

^(١٢٧) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٧٨-٧٩.

٣- جذور الإسلام فوق الزمان والمكان

التوحيد هو عمق الحقيقة الإسلامية، والإسلام في صفائه يؤيد هذه الحقيقة، بل هو دين التوحيد، لأنه فوق الزمان والمكان، وهو عندما يخاطب الإنسان يخاطب فيه حقيقته الفطرية التي تناسبه. ولذلك فهي في نظر الأستاذ مصدر من مصادر ميراث الذات الثقافي، إذ يقول: "إن جذور الإسلام لانهائية تمتد فوق الزمان والمكان، والمخاطب في الإسلام هو قلب الإنسان الذي يسع ويستوعب السماوات والأرض بسعته المعنوية، وهدف الإسلام هو السعادة الدنيوية والأخروية.. الإسلام، اسم الصراط المستقيم الممتد من الأزل إلى الأبد، وعنوان النظام السماوي المنزّل لتحقيق رغبة "الخلود" التي يكنّها كل شخص، والمنزل لفتح مغاليق القلوب جميعاً؛ ابتداءً من قلب أشرف البشر في الأرض ﷺ. (...). بل نستطيع القول بأن ما نلاحظه في محيطنا من مدى الشوق إلى الإسلام والرغبة فيه وتلقيه بالقبول إنما هي أمور تتحقق بتناسب طردي مع عمق هذه الصورة الداخلية المشرقة ومدى سعة إحاطتها، وهذا يعني أنه كلما كان هذا القبول الأولي للإسلام ضاربا في أغوار أعماق الإنسان، يقوى تأثيره في محيطه. وفي ضوء ما يمليه هذا الإذعان الداخلي، يأخذ المجتمع وجهته في مسيرة حياته الأخلاقية والاقتصادية والسياسية والإدارية والثقافية"^(١٢٨).

فالأصل في نظر الأستاذ هو أن الإسلام يخاطب الفطرة، والفطرة تقوم على التوحيد، لأن حقيقتها المعنوية فطرية. وعندما يلتقي الإسلام

^(١٢٨) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٥١.

وحقائقه بالفطرة اليقظة المتوثبة تنتج إنسانا متناغما مع حقيقة وجوده وخلقه.. وفي الحقيقة إن الأستاذ فتح الله عندما يجعل من هذه الحقيقة المطلقة عمق ثقافتنا الذاتية إنما يرمي إلى ضرورة أن يكون الإنسان في علاقة منسجمة مع الوجود من جهة أن هذا الوجود إبداع إلهي وإبداع دال على الخالق، ولذلك فإن هذه العلاقة الانسجامية وهذا التناغم بين الإنسان باعتباره أرقى الموجودات وبين الوجود يدفع الإنسان إلى:

- التطلع إلى تفكيك مكونات هذا الوجود من جهة ما يتيح من فهم لحقيقة الربوبية، وهو بعد من أبعاد "العلم"، لأن العلم في أدق جزئياته ليس سوى طريق سالك يكشف حقيقة الخلق المؤدية بدورها إلى معرفة الصانع وقدرته.

- ضرورة الحفاظ على هذا الذي يقدم للإنسان ما لا نهاية له من الأدلة الدالة على الصانع، فوجب بذلك الحفاظ على صفاء هذا الوجود من كل ما يعكر صفاء العلاقة بين الوجود والإنسان.. فالفساد والإفساد بجميع ضروبه المادية والمعنوية يؤدي حتما إلى انحجاب الرؤية وتكدر الطريق السالك إلى الله تبارك وتعالى، ثم تكدر المعرفة الأصيلة، وتكدر فاعلية التفاعل مع الوجود.

إن الأستاذ عندما يركز على هذه النطق يؤكد أن الإنسان ليس بمقدوره فتح الآفاق والسير إلى المستقبل دون هذه الحقيقة المطلقة؛ فعلى الإنسان في مجتمعاتنا التي ترغب في أن تقول كلمتها في هذا العصر والعصور المقبلة أن تستحضر العلاقة بين "الإنسان-الكائنات-الله" في حركيتها وفعاليتها.

٤- لكل عصر خصوصيته وشخصيته

إن معيار "الإنسان-الكائنات-الله" هو محور الدائرة في كل حركية إصلاحية، بما تملكه هذه العلاقة من مشروعية تاريخية أكدت أن الإنسان باستطاعته التحول إلى حركية مغيرة في ظل انسجام العلاقة بين "الإنسان-الكائنات-الله". فالانبعاث والنهضة مرهونات بمدى تمثل هذه العلاقة. فهل هذه الروح الثقافية الكامنة في لاوعي الذات، والتي هي نتيجة تجارب طويلة ممتدة في الزمن حتى صارت جزءاً مترسقا في طبع الإنسان، ومصدرا للمعلومات في اللاشعور، هل ينبغي لها المحافظة على صورتها الموروثة أم تستطيع تجديد ذاتها؟

يرى فتح الله أن العصر وخصائصه تستطيع الإضافة إلى الموروث أو إلى الثقافة الذاتية بما انتهت إليه تجربة العصر، وإلا كيف يكون الإنسان حركيا فعالا إن لم تكن له القدرة على طبع ثقافته الكامنة في لاشعوره والموجودة -كما يقول الأستاذ- "فوق الزمان" في عمق شخصيته. بعبارة أخرى إن الكثير من الأعراف والمعتقدات والمسلمات هي جزء من الروح لكنها، "... غافية في اللاشعور، تحفظها المقومات الداخلية للعقل بين الفينة والأخرى، بواسطة دوافع وأسباب مؤثرة في هذه المكتسبات، فتشطها وتفعّلها وتنشئها وتصورها في أشكال؛ فأحيانا في شكلها القديم وأحيانا في تماثل قريب من شكلها القديم ولكن ربما بلون باهت، غير أن هذه المكتسبات مهما كانت مندرجة في طبع الإنسان فلا تظهر في الحاضر مجددا بعين الذات القديمة، لأن كل يوم جديد هو عالم خاص بذاته... لذلك لا نريد أن نكرر مكتسباتنا القابعة في اللاشعور كشيء

قديم تماما، بل بإضافة شيء من العمق إليها حسب متطلبات الأحوال والظروف"^(١٢٩).

رغم أن الأستاذ فتح الله ينطلق من روح التراث ومن الأصول الثابتة ومن اقتناع كلي بأن الإنسان يحيى بروح الماضي الممتد فيه دون إرادته، إلا أنه يرى ضرورة أن يكون الإنسان ابن عصره ووقته، ويرى ضرورة أن يطبع عصره بشخصيته، فجذوره الثقافية والفكرية وإن كانت ممتدة في الزمان، لا ينبغي أن تمنعه من طبع وجوده في زمنه بطابعه الخاص الذي هو طابع العصر.

بعبارة أخرى إن الإنسان يستطيع أن يزيد في وعاء المعاني والأفعال والتصرفات التي تجعل "التوحيد" أكثر عمقا في القلوب والأرواح في فترة من الفترات، فإنسان كل فترة من الفترات مطالب بأن يكون وسيلة فعالة في دفع الفكرة إلى الخارج فتعبر عن نفسها. فما دور الإنسان في عصر وفترته إن لم يكن قادرا على مساعدة من لا يستطيع تعبير هاتف الفطرة الداخلي القادم من الأعماق، حتى لا تنسحق هذه الفطرة تحت ثقل طبقات الغفلة والأفكار الغامضة والمسلمات الخاطئة، المتكدسة عبر مختلف مراحل التاريخ الطويل. فالقول الأصوب كما يقول الأستاذ هو:

"أن نعيش تلك المكتسبات بزيادة ألوانٍ وأعماقٍ طرية، صحيحة النسب، مستمدة من الأصل"^(١٣٠)

فالروح الثقافية تحتاج إلى:

• أن تصطبغ بلون شخصيتنا في العصر، وأن نسمح لها بأن تتسرب

^(١٢٩) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٧٩.

^(١٣٠) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٧٩.

إلى عمق حياتنا في العصر، بعد تكيفها مع روحه، حتى لا تكون سببا في ظهور تنافر وتناقض بينها وبين ما تمثله من جذور وبين حقيقة انتمائنا إلى عصرنا وزمننا. بعبارة أخرى ينبغي رعايتها وتعهدها بكل ما يجعلها طرية في حياتنا.^(١٣١)

- ضرورة أن تكون هذه الثقافة من مصدر سليم وصاف، لأنها إذا كانت من مصدر هجين أو دخيل فلا يصلح لأن تمتد انطلاقة الذات بالطاقة والقوة اللازمة للسير تجاه المستقبل.
- أن تكون من مصدر أصيل، والمصدر الأصيل هو الدين والقيم والأخلاق.

٥- حقيقة ارتباط الذات بالتراث

وفي هذا الإطار تبرز قضية من القضايا التي أثارت الكثير من النقاش والجدل بين تيارات فكرية ثقافية مختلفة، وهي قضية العلاقة بالقديم والتراث، إذ السؤال "كيف ينبنى التعامل مع القديم، هل باستحضاره في العصر وجعله المصباح الذي ينير طريق الحاضر والمستقبل؟ أم تجاهل هذا القديم والانطلاق في بناء الواقع بناء خاصا لا يتدخل الماضي فيه

^(١٣١) أتصور أن كل ما يقوله الأستاذ هو عبارة عن تجارب يعيشها في كل لحظة وحين، فكلما وجدت رؤية أو موقفا أو تصورا إلا ووجدت له ما يقابله من فعل وممارسة، ولا تجد نموذجا واحدا بل تجد نماذج متعددة تقابل صورة ذهنية واحدة، فعلى سبيل المثال يمكن ذكر ما عاشه الأستاذ مع طلبته أغلب أيام عمره، من خلال ما يمكن أن يطلق عليه جلسات "الدور الخامس" فروح هذه الجلسات قادمة من الماضي ومن تراثنا الثقافي والتربوي لكن الثوب الذي لبسته هذه الجلسات المباركة هو ثوب ينتمي إلى العصر.

كيفما كانت طبيعة هذا الماضي؟".

لقد رأى البعض أن هذا الماضي كان سببا في تأخرنا، فقاطعوه كلية ومضوا يطلبون منظومة غريبة عن الذات، وولوا قبلتهم جهة من يمثلون النموذج الحضاري الأقوى حسب زعمهم. وكان هؤلاء الذين تبّنوا هذا النموذج قد ألغوا دور الدين في الحياة، وحصروه في مجرد كونه قضية شخصية وذاتية.

كانت شعارات المرحلة لا تخرج عن ضرورة الاجتهاد، وأهمية البعث والنهضة، وجدل العلاقة مع الآخر، ومسألة الذات والهوية الثقافية، وغيرها، كلها قضايا شغلت العقل ونمطت نظام التفكير الإصلاحية ودفعته إلى إثارة سؤال قديم الحديث، عبّر عنه شكيب أرسلان بسؤاله: "لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم؟".

لكن إثارة السؤال في الوقت الراهن يختلف بالضرورة، لأن الزمن دخل في بعد آخر تبدو فيه قيمنا الثقافية ويبدو فيه أصل هذه القيم عنصرا قادرا على أن يكون محرّكا فعّالا يمضي بمنظومة التفكير إلى أبعد حد ممكن، وهو أن يكون الإسلام وميراثنا الثقافي - كما يسمّيه "خوجا أفندي"^(١٣٢) - حامل بلسم لهذا العصر.

ومن ثم كيف نسائل ما يمكن أن نطلق عليه "تراث الفكر الإصلاحية"، وتحليل معطياته المتعلقة بأسباب فشله في تحقيق الإصلاح المنشود الذي ظل على مدى مائة وخمسين سنة لا يكاد يراوح نفسه.

كانت أسئلة الماضي القريب (القرن ١٧، ١٨، ١٩) أسئلة وجودية

^(١٣٢) المقصود هو الأستاذ فتح الله كولن. وهي صفة يطلقها الأتراك على الأستاذ فتح الله، ومعناها "السيد الأستاذ".

مرتبطة بالذات، تشكلت هذه عندما بدأت الذات تخشى على وجودها فكان عليها أن تتحرك لكي تمنع ما قد يقضي عليها، وتمنع ما قد يتحكم في كيانها، وقد ولد هذا الإحساس في الماضي القريب عدة تيارات:

- تيار الاحتماء بالتاريخ وبالدين وسد الباب دون ثقافة الآخر.
- تيار الاحتماء بالتاريخ وبالدين والانفتاح على ما فيه فائدة في ثقافة الآخر.

- تيار الذوبان في الآخر، أو التيار العلماني.
 - تيار قومي باتجاهين: القومي الديني والقومي العلماني.
- لقد انحصرت الأسئلة في:
- كيف يُحقَّق الإصلاح، وتفعَّل أفكاره؟
 - وكيف تنتج أفكار إصلاحية قابلة للتفعيل؟
 - وكيف يستفاد في ذلك من التاريخ، ومن الغير؟
 - وكيف يستفاد من الآخر دون الذوبان في ثقافته، ودون تعطيل

المقومات الذاتية؟

لكل قضية من هذه القضايا منطق محدد يتحكم في منهجية إثارة القضية وفي طبيعة الخطاب. فلكل اتجاه خطابه الخاص الذي يعبر في أحسن الأحوال عن أيديولوجية مسكينة تسقط شعاراتها عند أول منعطف فكري أو سياسي.

لقد أريد لفكر الإصلاح أو لبعض تياراته أن يكون مجرد اجترار وإعادة صياغة لما قيل. ولذلك برزت الحاجة الملحة إلى ضرورة الانتباه المعرفي للإشكالات المعرفية المتعلقة بطبيعة التناول، ووجوب الاشتغال المعرفي على الخطاب الناتج عن الجدل، وصولاً إلى معرفة الضوابط

المتحكمة فيه، كالاهتمام بجدل علاقة الحضارات فيما بينها هل هي علاقة صراع وصدام، أم علاقة تفوق حضارة ونفي أخرى، أم هي علاقة تكامل أم علاقة حوار؟ ودراسة الخطاب الذي ينتجه الجدل وتحليله هو غير الانخراط في الجدل. ولذلك فإن التناول المعرفي لهذه القضايا يفرض قدرا كبيرا من الموضوعية العلمية، ويفرض في الوقت نفسه التجرد عن الأنانية الذاتية.

وظفت بعض التيارات الإصلاحية جملة من الرؤى الفكرية والأيدولوجية من أجل الوصول إلى تحقيق أحلامها في الإصلاح؛ فالتيار السلفي المسترشد بفكر ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، على سبيل المثال عمل على بناء رؤية تحارب البدعة والانحراف الطرقي، جاعلا من ذلك أهم معالم مشروعه الإصلاحي، فضلا عن توجيه النقد للسلطة التي جعلت الطرقية أيديولوجية تبرر بها مواقفها.

والسؤال المطروح بخصوص هذه القضية هو "ما العوامل الذاتية والخارجية التي ساهمت في ظهور التيارات الإصلاحية؟ ولماذا لم تتمكن من إدخال الذات إلى دائرة النهوض الحضاري؟".

استطاع التيار السلفي أن ينشر بعضاً من أفكاره وتصوراته، ووقف بعض رجاله سدا منيعاً أمام محاولات التحديث التي نادى بها مفكرون من داخل التيار السلفي نفسه، بمعنى أن هذه الرؤية الإصلاحية عندما اكتملت معالمها سورت نفسها بسياج منيع يرفض الانفتاح على أفكار أخرى، ربما بدافع الخوف من المجهول، أو بدافع الأنانية الفكرية.

ربط جمال الدين الأفغاني بين تغيير العقلية الدينية والأخذ بالأسباب السياسية وصولاً إلى فرض الإصلاح من الأعلى، لكن تلميذه محمد عبده

الذي يئس من إمكانية تحقيق مننهج أستاذة، جعل الإصلاح الاجتماعي بوابة لتحقيق الإصلاح المنشود وكان أهم عنصر في دعوته هو ضرورة إصلاح التعليم وخاصة التعليم الديني.^(١٣٣) ومن هنا جاءت رغبته المشهورة في إصلاح الأزهر الشريف، حيث قال: "إن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام، فإن إصلاحه إصلاح للمسلمين وفساده فساد لهم"^(١٣٤).

وتعتبر أدبيات الرحالة المغاربية والسفارات إلى أوروبا، وما سجل من ملاحظات عن التطور الذي حققه النصارى في مختلف الميادين الصناعية والعسكرية والعلمية، مصدرا مهماً لأفكار دعاة إصلاح التعليم. ولم يكن التيار المحافظ بعيدا عن نقاش إصلاح التعليم في دائرة المنظومة التقليدية، كما هو الحال مع العالم الجليل أبي شعيب الدكالي الذي ركز من خلال سلفيته على أهمية ربط الناس بالمصادر الصافية للعلوم الشرعية من خلال علم الحديث على الخصوص، ونصوص السنة الصحيحة.

^(١٣٣) يشترك في رؤية إصلاح التعليم عدد من مفكري الإصلاح في العالم الإسلامي على أساس أن التعليم المرتكز على أسس واضحة تراعي الخصوصية الدينية والثقافية، وتراعي خصوصيات العصر (من انفتاح على العلوم الطبيعية وعلوم العصر) هو المنهج السليم للتعليم. و اعتبار ذلك الممهّد المنطقي لكل انبعاث ونهضة، وعلى أساس استحضار هذه الرؤية دعا العالم الجليل بديع الزمان النوسي في تركيا في بداية القرن الماضي إلى ضرورة إصلاح منظومة التعليم، بل عمل على إقناع بعض السلاطين وأهل السياسة بأهمية فكرة تأسيس "جامعة الزهراء" التي كان يريد لها جامعة تجمع في مناهجها بين العلوم الشرعية وعلوم الطبيعة.. وفي الجزائر ركز زعماء الإصلاح على ربط الناس بالتعليم الأصيل.. وأما في الغرب الأقصى فكانت الدعوة إلى إصلاح التعليم خجولة تصطدم بمعارضة أفكار بعض المحافظين وجماعات المصالح التي كانت ترى في إصلاح التعليم إضرارا بمصالحها. وأما فتح الله كولن فيعتبر مشروعه الحضاري خطوة متقدمة، وسنخصص حيزا في هذه الدراسة لهذا الموضوع في مكان لاحق.

لم تكن فكرة الجامعة الإسلامية وفكرة الرابطة العثمانية والالتفاف حول الدولة العثمانية باعتبارها تمثل أحد رموز الوحدة وهو "الخلافة" أقل شأنًا من إصلاح التعليم. فقد حفزت بعض زعماء الإصلاح من داخل التيار السلفي كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده اللذين عملا بكل حماس على تحقيق الحلم، لكن الحماس ما لبث أن ضعف بفعل تأثير بعض العوامل السياسية والفكرية فتُنزِل مؤقتًا عن هذا الحلم الكبير لصالح الأدنى وهو "القومية" التي وجدت من يقوم بإذكائها وهو الغرب الطامع في انتزاع مناطق نفوذ الدولة العثمانية. ومن نتائج القومية، بروز تيارات تختلف تصوراتها للإصلاح التقى حولها السلفي والعلماني والقومي المسيحي والقومي المسلم، كل طرف من زاوية ما يؤمن به من خلفيات فكرية ومنهجية.

وعلى العموم فإن الخطاب السلفي في المشرق بالإضافة إلى تونس والجزائر ظل محكومًا بطبيعة الصراع بين الأنا/ السلفي والأنا/ السلطة التركية من جهة، والأنا/ السلفي والآخر الغرب من جهة ثانية. وأما المغرب فقد ظل الصراع فيه منحصرًا بين المثقف المحافظ والمثقف المستغرب الطامح إلى التحديث والتغيير والانفتاح على الآخر، دون خلو مختلف المراحل التاريخية من محاولات للتقارب بين العثمانيين والدولة العلوية في ظل فكرة الجامعة الإسلامية، لولا أن المساعي كانت دائمًا تلقى معارضة بعض الدول الأوروبية وخاصة ألمانيا وفرنسا.

إذا كانت دوايب السلطة تبني أيديولوجية معينة تدبيرا لشؤون الدولة من أجل الحفاظ على السلم المدني والاستقرار السياسي، فإن المثقف ينظر بمنظار آخر يختلف كل الاختلاف عن منظار الحاكم. ولهذا فإن

أسئلته وإجاباته تختلف كل الاختلاف، فلكل طرف نظريته ونظرياته التي تغري الباحث بالدراسة والتحليل.

وعلى العموم فقد ظل الفكر الإصلاحى محكوماً بأمرين:
الأول: هو المبالغة في التفاؤل، واعتبار قضية الإصلاح قضية قرار يتخذ بين يوم وليلة. فبالغ زعماء الإصلاح في التفاؤل واستعجلوا لمس ثمار أفكارهم، وبعبارة أخرى لقد كان مفكرو الإصلاح مثاليين، في التفاعل مع الواقع، وافتقروا في الوقت نفسه لواقعية خبرت شروط هذا الواقع وخصوصياته.

الثاني: التشكيك في القيمة الإصلاحية والفكرية التي يقدمها الغير وليس الآخر، من منطلق تسييج الرأي الخاص بسياج منيع يرفض وجود الرأي المخالف.

ثانياً: أزمة الشرق وإشكالاته راهنا

١- وظيفة التراث في مشروع فتح الله كولن

يمكن تلخيص أزمة الشرق في دخوله في وقت ما في نوم عميق وإهماله توظيف ملكة العقل واستعمالها في فهم الطبيعة واكتشاف أسرار الكون والوجود من أجل تسخيرها بما يعود بالفائدة على الإنسان في كل مكان.

قد يكون السبب هو أن الذات لم تكن في حاجة إلى ذلك بالنظر إلى طبيعة الحياة البسيطة، وبالنظر إلى عدم وجود ما يضيقها في وجودها وفي رزقها وفي أرضها، فكانت تنام ملء جفونها راضية بمصيرها. وفي

الوقت الذي كان الشرق يوظف الحد الأدنى من قدراته الفكرية والثقافية والعقلية والدينية أو لا يوظفها بالمرة. كان الغرب يعمل ليلا ونهارا على استجلاء أسرار الكون وتفسيره وفك ألغازه بغض النظر عن طبيعة الخلفية الفكرية، ويعمل كذلك على توظيفها التوظيف المناسب؛ علما بأن هذا الغرب نفسه عندما أعاد النظر في منظومته الوجودية أعادها على أساس ما حققه العقل الإسلامي عبر تاريخه. وقد ظل الشرق العربي في سباته ينتظر الحملة الفرنسية لكي يدرك موقعه في سلم الحضارة والتقدم.

وتفرز هذه الملاحظة سؤالاً مهماً هو "ما العوامل التي أنتجت عصر الأنوار وأنتجت النهضة الأوروبية التي بهرت العقل الشرقي إلى درجة الهوس، فحركت فيه ملكة الحلم باسترجاع الماضي بازدهاره الحضاري والمعرفي والعمراني، تجاوزا للراهن المتدهور؟". إذ كما حلم البعض بالبعث آمن البعض الآخر بضرورة القطيعة مع الماضي وكل ما يمثله وخاصة الدين، وبناء الحاضر على ما بنت به الأمم المتقدمة في الوقت الراهن حاضرها. لقد جزأت هذه المواقف الذات الشرقية إلى نخب متصارعة حول المنهج المناسب لتناول قضية الانبعاث.

"الأخر" بصفة عامة لم يكن مطروحا بالمستوى نفسه في كل مناطق العالم الإسلامي، فالإشكالات التي أثيرت في تركيا العثمانية التي تعرفت على التقدم العلمي لأوروبا ردحا من الزمن قبل العالم العربي، لم تواز الإشكالات التي طرحت في العالم العربي. لأن التعرف على التقدم العلمي الأوربي مبكرا لم يشفع للدولة العثمانية، ففككت أطرافها ودخل المجتمع في البلبلة الداخلية سياسيا واجتماعيا، انتهت بسقوط الخلافة وانقطاع خيوط الاتصال بين أطراف ما كان يشكل كلا متجانسا، لتتحدد

الإشكالية الكبرى في كون مصدر الأزمة هو الإنسان وليس جلب التقنية الحديثة، ولا الانفتاح على ثقافة الغرب وفلسفته. وبالمقابل فإن مصر والشام -على سبيل المثال- قد عاشتا هذه الصدمة بأسلوب مختلف بعد الحملة الفرنسية على وجه الخصوص.

كانت رؤية المثقف العربي المسيحي مختلفة كل الاختلاف عن رؤية المثقف المسلم، محافظا كان أم معتدلا أم علمانيا؛ إذ لكل مثقف رؤيته الخاصة التي تناهض أو تعادي الغرب أو تقبل عليه.

لقد انخرط المثقف المسيحي في الدعوة إلى ضرورة تبني جميع قيم الغرب، بل إن المثقف العربي المسيحي والعربي المسيحي عموما كان يعتبر نفسه أقلية عربية، وكانت الهجرة إلى أوروبا نوعا من العودة إلى الأصل، ومتنفسا مهما بالنسبة له. ولذلك فإن أول من أثار قضية الإصلاح وأسئلة النهضة في العالم العربي بعيدا عن الدين هم المسيحيون، بالنظر إلى كونهم أول من اتصل بثقافة الغرب دون أحكام مسبقة أو عقدة فقدان الهوية. كان المسيحيون العرب هم أول من أدخل بعض مستلزمات النهضة كالتباعة، وهم أول من احترف الصحافة والنشر، وبادر إلى تأسيس نظام تعليمي مسيحي على أسس حديثة تراعي خصوصيات العصر.^(١٣٥)

العقل الإصلاحي ينشط في ظل الأزمة، بل إن تاريخ الفكر الإنساني منذ القديم وإلى الآن تاريخ بحث عن الأجوبة الوجودية لأزمات الإنسان وواقعه. وتاريخ الفكر الإنساني هو كذلك تبادل للتأثير من جهة كون الفكر الإنساني ملكا للإنسانية كلها يحق للإنسانية أفرادا وجماعات

^(١٣٥) رغم كونها وظفت من أجل طبع الكتاب المقدس فقد سمحت فيما بعد بطبع العديد من الكتب، وإخراج بعض كتب التراث العربي إلى الوجود.

الاستفادة منه وتبني كل أو بعض معطياته.

رغبة التغيير والإصلاح كانت وما تزال إحساسا يسكن كل مكونات المجتمعات، كما أشرنا سابقا، لكن الإشكال يكمن في المنهج والكيف. ولهذا فإن لكل فترة دعوتها الخاصة للإصلاح، ولكل مجتمع أسلوبه في بلورة أجوبته على أسئلة الواقع، ورؤيته الخاصة لهذا الإصلاح، بل إن طبيعة الأجوبة مرآة تنعكس عليها مختلف التيارات والخلفيات والأفكار والمذاهب التي تصب في النهاية في خانة البحث عن أجوبة لأسئلة الواقع الوجودية.

وأما موقف الأستاذ فتح الله فهو موقف وسط بين الأخذ من التراث وبين المحافظة على روح العصر. فهو يعتبر القديم أساسا متينا، لكن مع ضرورة تطويره بمعطيات الجديد. فالأصل ألا يتم اعتبار العصر والماضي حقتين أو مرحلتين منفصلتين متنافرتين، إذ يقول: "ونلفت نظرنا إلى خطأ وقعنا فيه كآمة دائما، وهو أننا بدلا من جعل القديم أساسا متينا ليقام عليه الجديد، وتطوير القديم بمعطيات الجديد، فصلناهما في أكثر الأحوال إلى شريحتين ربطناهما بحقيقتين منفصلتين؛ فأحيانا استعدنا بعضهما على بعض، وأحيانا أخرى عارضنا بينهما، فأدينا إلى حصول معضلات في الأسس؛ فإما قلنا: "الجديد يُسَمَّ عطْرُه ثم يُرْمَى في النفايات، والقديم يفوح كالمسك والعنبر كلما رججته يتضوع"، فأفرطنا في "واردات" حقبة من الزمان.. أو قلنا: "نفع في مكتسبات عتيقة لزمان ولي، الخير في العالم الزاهي للجديد"، وأهملنا تماما ذلك الجانب للزمان فأغفلنا مفهوم

"الزمان الذاتي"، وتغافلنا عن البعد العالمي الكوني^(١٣٦). وهذه الإشارة في حد ذاتها هي التي تحمل روح الدعوة إلى ضرورة التجديد، بل يذهب إلى حد لزومية إعداد بيئة طيبة لزمان ثقافي جديد، يستطيع تطوير حياتنا الفكرية، بتفسير ثقافتنا تفسيراً معمقاً، وتقويمها التقويم الذي تستحقه، لكن مع ضرورة النظر إلى الماضي والحاضر والمستقبل باعتباره بوتقة واحدة لا يمكن فصل أجزائها بعضها عن بعض. ولا ينبغي في هذا الإطار أن نفدي قيم الماضي والحاضر والمستقبل بعضها ببعض، وبعبارة أخرى يتوجب عدم جعلها تناقض بعضها بعضاً أو يعادي بعضها بعضاً. وتعليل ذلك هو "أن الزمان الثقافي غير مرتبط بفكرة التواجد قبل أو بعد، على خلاف مفهوم الزمان المعروف لدينا. وأرى من الأنسب أن نسميه بـ"فوق الزمان"^(١٣٧).

فثقافتنا التي هي عنصر داخل في أصل طبعنا، والذي امتزج مع الروح، ينبغي النظر إليه نظرة متعالية بعيداً عن مقاييس الزمن التي تقتضي وجود بداية ووجود نهاية. ولكي تستطيع هذه الذات التفاعل الأنسب والملائم مع هذه عناصر الثقافية ينبغي أن تكون مستقلة بذاتها، بل إن ديمومتها بذاتها منوطة كذلك باستقلالها.

٢ - القيم أساس متين

انطلاقاً مما تقدم نطرح السؤال الآتي: ماذا تعني الثقافة عند الأستاذ هل هي روح الإسلام، وإذا كانت كذلك فهل الموروث القادم من مراحل

^(١٣٦) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٧٩-٨٠.

^(١٣٧) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٨٠.

ما قبل الإسلام يدخل في الثقافة ويعتبر جزءا منه؟
أعتقد بأن الاستاذ فتح الله يعتبر أن كل ما دخله روح الإسلام فاصطبغ بصبغته صار من الثقافة. وتجد هذه الرؤية داعمها الفكري في أن الله تبارك وتعالى عندما بعث رسوله محمد ﷺ بالإسلام إلى أهل الجزيرة بداية لم يبلغ ما كان متداولاً بين العرب آنئذ من مكارم الأخلاق وسامي القيم، فهذه لا شك أنها كانت قيما إنسانية متوارثة جيلا بعد جيل، وحقبة زمنية بعد حقبة. وليس من المستبعد أن يكون أصلها هو الدين والتوحيد، بل إن التوحيد هو الذي أصلها في جينات الإنسان وبقيت تنتقل عبر الأجيال إلى اليوم، في وقت تغافل فيه الناس عن الدين وبقيت قيمه ومكارمه موجودة في صلب جيناته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومن هنا فإن هذه الأشياء تسمى "ثقافة"، والإسلام عندما جاء لم يلغها ولم يحاربها بل احتضنها لأنها في الأصل جزء من الدين، والدين واحد كما هو معروف. فهل نقول إنها تحتضن الإسلام، أم إن الدين يحتضنها؟ والجواب إنها جزء من الدين بل إن الدين هو طاقتها المحركة، ولذلك كان العرف - كما يؤكد الأستاذ فتح الله كولن ذلك - من مصادر الأمة الأساسية المعتمدة في التشريع، وسيأتي بيان ذلك لاحقا.

٣- أبعاد الثقافة الإجرائية عند الأستاذ فتح الله كولن

ما عناصر الثقافة وما مقوماتها عند فتح الله كولن؟ وبعبارة أخرى ما مفهومه للثقافة؟

أشرنا في مكانين سابقين من هذا المبحث إلى منظور الأستاذ للثقافة. وبإضافة تعريف آخر تكون الصورة العامة لمفهوم الثقافة عنده قد اكتملت.

يقول محمدا عناصرها: "مجموع نظم وقواعد تحكم التصرفات الاجتماعية والأخلاقية التي أنتجتها أمة أثناء تاريخها الطويل، وجعلتها بمرور الزمان بعدا من أبعاد وجودها أو حوّلتها إلى مكتسبات في اللاشعور.. ومع أن بعض الخصوصيات الأساسية للثقافة حسب هذا التعريف يحمل سمات عالمية، لكن الواضح أن لكل مجتمع في جغرافية اجتماعية معينة، ثقافة سائدة خاصة. وبدهي أن هذه الخصوصية الثقافية عنصر مؤثر قوي في النظم الفكرية. ولذلك، يعد الفكر المرتبط بثقافة معينة عند فرد من الأفراد، تعبيرا عن ذاته بواسطة إطار المرجعية المعينة"^(١٣٨).

ويضيف مستخلصا: "الحاصل أن "الثقافة" هي مجموع المفاهيم والقواعد والانساقات التي تعلّمها الإنسان وآمن بها وطبقها في حياته فصارت -بعناصرها الأصلية والتبعية- بعدا من طبعه، حتى تحولت إلى مصدر للمعلومات في اللاشعور... فهي ظاهرة أبيستمولوجية يُدرك ويُحسّ بوجودها وتأثيرها بين الحين والآخر، حتى في غياب الشعور والإرادة"^(١٣٩).

ويمكن تفكيك العناصر التعريفية والحدية للمفهوم إلى المكونات الآتية:

• "مجموع نظم وقواعد تحكم التصرفات الاجتماعية والأخلاقية".
فالثقافة من خلال منظور الأستاذ فتح الله، هي تلك الضوابط الأخلاقية والقيم التي تتحكم في سلوك الإنسان الأخلاقية والاجتماعية، وهذه الضوابط والقواعد هي التي توجه تصرف الإنسان في إطار بعده الفردي

^(١٣٨) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٧٧.

^(١٣٩) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٧٨-٧٩-٨٠.

اللازم لتأسيس البعد الجماعي اللازم بدوره لتأسيس البعد الاجتماعي. إذا تمكنت الأبعاد الجماعية من أن تتمثل مجموع هذه القيم وقواعدها المتحركة صارت نوعاً من أنواع "الوعي الجمعي" الذي تنتهي عنده كل التصورات والرؤى الفردية لمتزج في بوتقة واحدة منسجمة مع هذه الضوابط والقيم والأفكار التأسيسية، أو الأفكار المنطقية. لا شك في أن هناك مرحلة من التاريخ استطاعت فيه القيم وضوابطها أن تتجذر في عمق اللاوعي الجمعي وأصبحت تمارس حضورها اللاإرادي على كل فرد من أفراد المجتمع، ومن خلال الفرد على المجتمع كله.

• "أنتجتها وأصلتها أمة أثناء تاريخها الطويل"، لأن القيم وضوابطها ليست واردة على الأمة، بل هي جزء من أصول الأمة ومن تاريخها، بمعنى أن الأمة عندما ولدت واستحقت هذا الوصف كان ذلك بتأثير هذه القيم والضوابط نفسها. لقد ولدت الأمة بها وانصهرت في بوتقة هذه القيم وضوابطها. فهذه القيم والمقومات الثقافية هي النتيجة المعنوية الأصيلة، التي رسخت في أعماق الإنسان باعتباره جزءاً من كل هو الأمة. وبعبارة أخرى لقد انصهرت هذه القيم في معمل التاريخ فاكتملت صلابتها وقوتها. فهي ليست عناصر ناتجة عن العجلة والتسرع، فقد نمت نموها الطبيعي في حضارة التاريخ، وارتوت بما يقدمه لها التوحيد والعقيدة والفكر الديني من عناصر التغذية اللازمة، دون أن تكون عالية على مصدر آخر يغذيها، ثم يزرع فيها جيناته الفاسدة، وبكلام آخر إنها نتاج المحاضن الصافية النقية السليمة

• "جَعَلَتْهَا بمرور الزمان بُعْداً من أبعاد وجودها" أي أنها اختمرت في معمل الزمن الذي أكسبها عتاقها وأكسبها في الوقت نفسه قوة الرسوخ

حتى صارت بمرور الزمن عنصرا تكتسب منه الأمة سر وجودها، فهي باعتبارها أمة لا تعتبر كذلك إلا بهذا العنصر وهذا المكون.

• "حوّلتها إلى مكتسبات في اللاشعور" فعتاقة هذه العناصر جعلتها تتسرب بمرور الزمن كذلك إلى لاشعور الإنسان فأصبحت تمارس تأثيرها على نمط التفكير وطبيعة الرؤية للعالم والكون والإنسان، فصار الإنسان الذي ولد في ظلها وترعرع، يتأمل وينظر ويحاكم من خلالها ذاته ومحيطه دون شعور منه. ولذلك فإن من يحاول تجاهلها في النظر إلى ذاته ومحيطه والكون كله، بطلب منظومة هجينة غريبة عن ذاته، ينتهي إلى الفشل والتهيه المؤدبين إلى الموت، لأنها تعاكس الهاتف الداخلي الفطري الذي يمنحها التوازن ويجهزها بالطاقة المعنوية اللازمة للحركية والفعل.

• "إن بعض الخصوصيات الأساسية للثقافة حسب هذه الرؤية يحمل سمات عالمية"، لأن هذه العناصر والخصوصيات ذات طبيعة مشتركة مع كل البشر من جهة أن الإنسان في كل مكان يجد نفسه تحت تأثير هذه العناصر الثقافية التي اكتسبت بمرور الزمن سلطة معينة، فهي تمارس هذه السلطة على الإنسان الذي ظهر في كنفها وتكون في أحضانها.

• "لكل مجتمع في جغرافية اجتماعية معينة ثقافة سائدة خاصة". من هنا تنبع الخصوصية الثقافية التي تميز فئة اجتماعية عن أخرى وتميز مجتمعا عن آخر.. فما كان أساس ثقافته "التوحيد" لا يمكن أن يكون مثل ما كان أساس ثقافته "الطبيعة" وقوى مادية أخرى. فنمط التفكير في كل جغرافية مجتمعية محكوم بهذا الأساس الثقافي الكامن في اللاشعور الفردي والجماعي.

• "الخصوصية الثقافية عنصر تأثير قوي في التُّظُم الفكرية"، ولذلك

فإن هذه الخصوصية تعتبر موجهها لنمط التفكير، بل هي صاحبة السلطة في ذلك.. فالإنسان المنتمي إلى جغرافية ثقافية معينة (بالمعنى المعنوي لا بالمعنى الفيزيائي) محكوم بخصوصية هذه الثقافية التي توجهه وتمارس عليه تأثيرها. ولذلك فهو عندما يتنكر لها ويدعي الانتماء إلى ثقافة أخرى أو يحاول مجاراتها فإن النتيجة ستكون نموذجاً بشرياً هجيناً ليس بإمكانه تقديم شيء لنفسه ولا لغيره، بمعنى أنه لا يساوي شيئاً في دائرة منظومة ثقافية غريبة عنه.

• "يعد الفكر المرتبط بثقافة معينة عند فرد من الأفراد، تعبيراً عن ذاته بواسطة إطار المرجعية المعينة"، بمعنى أن هذا الفرد كلما كان مرتبطاً بثقافته كلما كان أصيلاً في رؤيته وفي نظراته للوجود ولكل ما يحيط به. وكلما كان تفاعله مع محيطه إيجابياً، كلما وجد في عمقه داعماً فكرياً وروحياً منبثقاً من ثقافته هته، مما يجعله يلغي كل المظاهر السلبية من حياته وينظر للمستقبل بروح متفائلة واثقة في ذاتها.

• "الحاصل أن "الثقافة" هي مجموع المفاهيم والقواعد والأنساق، التي حصلها الإنسان وتعلمها" خلال رحلة طويلة استمرت أجيالاً كثيرة، واختمرت حتى العتاقة في معمل التاريخ الواسع.

• "آمن بها" بمعنى أنها صارت جزءاً من معتقد الذات تؤمن بأنه هو المصدر الذي ترجع إليه في كل شؤونها وتحتكم إليه في كل ما يعنّ لها.

• "وطبقها في حياته" فهي ليست مجرد أنساق صورية، بل هي في الأصل أنساق عملية جرى تطبيقها أزماناً بعد أزماناً حتى صارت جزءاً من سلوك الذات تفرض نفسها على السلوك. بعبارة أخرى لقد صارت سلوكاً وتصرفات ذات سلطة ثابتة.

• "صارت -بعناصرها الأصلية والتبعية- بُعداً من طبعه"، بمعنى أنها طبعت الذات بطابعها الخاص، فأكسبت الذات طابعاً محدداً هو في الأخير طابع الثقافة الذاتية.

• "حتى تحولت إلى مصدر للمعلومات في اللاشعور"، بمعنى أنها هي المعين الذي ترجع إليه الذات في كل وقت وحين لكي تفسر كل ما يحيط بها، والتي تحل كل ما يعنّ لها في حياتها من مشكلات وأحداث، فهي المعين الذي يصنع توازن الذات الوجودي.

• "وهي ظاهرة أبستمولوجية" أي أنها ظاهر معرفية، بما تحتزنه من قابلية للخضوع للبحث والتحليل، في أفق وضع خطاطة مختزلة عن منهج اشتغالها، لأنها تشتغل وفق أنساق محددة اكتسبت نسقيتها في مصنع التاريخ.

• "يُدرَكُ ويَحسُّ بوجودها وتأثيرها بين الحين والآخر حتى في غياب الشعور والإرادة"، إذ لولا قابليتها لأن تكون مدركة وأن تكون مؤثرة لما كانت ظاهرة معرفية تمارس تأثيرها باستمرار بوعي الذات أو بدون وعي منها: بل هي تمارس تأثيرها حتى في غياب الشعور والإرادة، ولذلك فهي صاحبة سلطة تمارس سلطتها على مختلف مكونات المجتمع أفراداً وجماعات.

وبناء على ما تقدم فإن مفهوم الثقافة الذاتية التي عمل الأستاذ فتح على صياغة عناصرها وبلورة مكوناتها، تقوم على جملة مكونات ومجموعة مفاهيم هي: الثقافة عبارة عن مجموعة من المفاهيم المختلفة وسبل التفكير المتنوعة، وأوجه الرؤية المتعددة، "والتصورات" الفنية والقيم الأخلاقية المرتبطة كل منها بتفسير مختلف. فهي تحويل لكل فعاليات الإنسان، في

كافة المجالات المعرفية والسلوكية والرؤية، وغيرها إلى فاعلية إيجابية. انطلاقاً مما تقدم يمكن القول إن منظور الأستاذ فتح الله للثقافة ينحصر في تلك العناصر التي تصنع أمة من الأمم، أو بالأحرى إنها تلك المقومات التي لا تستطيع الأمة بدونها أن تكون حاضرة وموجودة على مسرح الحضور الحضاري العالمي، لأن هذه العناصر هي التي تقدم للأمة الدعم المعنوي والروحي والفكري لكي تقول كلمتها. فهذه العناصر مجتمعة واجبة الحضور في جميع المناحي الفكرية والعلمية والحضارية والتربوية وحتى في التقاليد والعادات، إنها هي التي تصنع كيان الإنسان.

٤- ميلاد الهوية في ظل الإسلام

إن الأستاذ فتح الله وهو يحلل هذه المقومات يريد التنبيه إلى تلك العناصر التي استطاعت الأمة بواسطتها أن تولد بعد أن كانت مجرد مجموعة بشرية لا تأثير لها في محيطها ولا وجود لها على مسرح التاريخ، وبعد أن كانت على هامشه. لكن العوامل الطارئة في واقعها قد حولتها إلى حقيقة وجودية، بل إن هذه الحقيقة الوجودية نفسها قد تكونت نتيجة هذه العناصر الطارئة في حياتها، لقد تحولت إلى شيء بعد أن كانت لا شيء.

هذا العنصر الطارئ في حياة هذه المجموعة البشرية هو "الإسلام" الذي تتوفر روحه على قدرة تحويل الإنسان وتغيير مسار تاريخه في كل وقت وحين، بل إن التاريخ نفسه يتغير مساره بفعل ذلك التحول الذي يُلحِّقه الإسلام بالإنسان.

يتحدث الأستاذ بروح جماعية من خلال إلحاحه على "نون الجماعة"،

فهو يركز على الذات الجمعية المتفرقة في كل مكان من هذا العالم، لكن هذه الذات الجماعية تلتقي عند مرتكز الثقافة. ف"نحن" هذه ليست مرتبطة بحيز زمني ولا بحيز مكاني محدد، بل هي تعم الماضي والحاضر والمستقبل، وتعم كل مكان.. ولذلك كانت عناصر هذه الثقافة كما سبقت الإشارة إلى ذلك خارج حيز الزمن والمكان معا، إنها فوق الزمان كما يقول الأستاذ.

إن المعتقدات والمكتسبات التي تتشكل منها هذه الثقافة وتنبني عليها هي عناصر مندرجة في الروح وغافية في اللاشعور، "تُحْفَظُهَا المَقَوْمَاتُ الدَاخِلِيَّةُ للعقل بين فينة وأخرى، بواسطة دوافع وأسباب مؤثرة في هذه المكتسبات، فتنشطها وتُفَعِّلُهَا وتنشئها فتصوِّرها في أشكال؛ فأحيانا في ذات شكلها القديم وأحيانا في تماثلٍ قريب من شكلها القديم، ولكن ربما بلون باهت. غير أن هذه المكتسبات مهما كانت مندرجة في طبع الإنسان فلا تَظْهَرُ في الحاضر مجدداً بعين الذات القديمة، لأن كل يوم جديد هو عالم خاص بذاته، وإذ يطلع يطلع بخصوصياته، وإذ يغيب يغيب بخصوصياته.. لذلك لا نريد أن نكرر مكتسباتنا القابعة في اللاشعور كشيء قديم تماماً، بل بإضافة شيء من العمق إليها حسب متطلبات الأحوال والظروف. بل القول الأصوب أن نعيش تلك المكتسبات بزيادة ألوانٍ وأعماقٍ طرية، صحيحة النسب، ومستمدة من الأصل"^(١٤٠).

يتأمل الأستاذ فتح الله في الثقافة من زاوية الثابت والمتحول. فالثابت هو تلك الأصول التي تنير الطريق وتوجه الرؤى وتضبط الأفكار. وأما

^(١٤٠) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٧٨.

المتحول فهو ما يستطيع الإنسان أفرادا وجماعات تقديمه لذاته ولجماعته وللعالم كله انطلاقا من تفاعله الإيجابي مع مرتكزات ميراثه الثقافي، وانطلاقا من خصوصية الفترة التاريخية التي تنتمي إليها الذات المتفاعلة. ما يريد الأستاذ التنبيه إليه هو أن لكل جيل ولكل عصر خصوصيته وهي خصوصية تسمح للجميع بأن يثبت ذاته وأن يبنى شخصيته وأن يكون بسلوكه وفاعليته إضافة نوعية إلى مسيرة الحضارة والعمران، بل الأكثر من ذلك هو ملتزم بأن يضيف إلى المكتسبات الكامنة في أعماقه. بعبارة أخرى عليه بعث هذه الخصوصيات، وطبع حياته من خلالها بطابعه الخاص الذي تتجلى فيه شخصته في الزمان والمكان.

ماذا نستفيد من هذا التصور؟ نستفيد منه أن فتح الله حريص على أن يقوم أهل كل عصر ببناء حاضرهم وألا يقفوا على أبواب الماضي مادحين. وهو عندما يثير هذه القضية يطرحها بمنطق المجيب عن سؤال العصر المتعلق بعلاقة الذات بالقديم وبأصولها، كيف ينبغي النظر إلى القديم وكيف ينبغي التفاعل معه؟ يرى فتح الله بأننا ملزمون بإعادة إحياء البيئة الطيبة التي صنعت حضارة تعتبر اليوم من أقوى ما قدمته الإنسانية عبر تاريخها الطويل.

٥- مفهوم جديد للثقافة

يرى فتح الله أن الأسس التي قامت عليها حضارة الماضي أيام كان المسلمون يعيشون نضارة الأسس الثقافية في أعماقهم، ينبغي أن تكون هي الأسس نفسها التي ينبغي أن تقوم عليها شخصية الحاضر. الجدير بالذكر في هذا المقام هو أن فتح الله كولن يبنى أسس مفهوم

جديد للثقافة، فالثقافة في منظور الأستاذ تتجاوز ذلك السلوك الثقافي والتصرفات التقليدية التي اكتسبتها الأمة بمرور الزمن، من خلال توسيع الدائرة ملاحظاً بأن الأمم التي ارتبطت بالإسلام في وقت من الأوقات قد اكتسبت بفعل ذلك سلوكاً تجذراً في أعماقها وتحكم في تصرفاتها وكوّن لوحده اللاشعور. ولذلك فإن الثقافة في منظور الأستاذ هي جزء من روح الإسلام، إن لم تكن هي الإسلام نفسه، بمعنى أنه إذا لم يكن بمقدور الإنسان في مكان ما وفي زمن ما التخلص من روح الإسلام وهو يحاول الانطلاق إلى الآفاق البعيدة، فهو ملزم بأن يكون الإسلام في حد ذاته هو الموجه الأول في كل نهضة وانبعاث، وأن يكون هو أساس كل انطلاق إلى المستقبل.. وبعبارة أخرى إذا كانت مذاهب فكرية كثيرة تلح على عنصر الثقافة في بناء حاضر ومستقبل مجتمعات كثيرة، فإن الأستاذ لا يلغي ذلك بل يعيد بناء مفهوم "الثقافة" ليعطيه بعداً إسلامياً. إنه المفهوم الإسلامي للثقافة من وجهة نظر الأستاذ فتح الله إذ يقول: "وتمّ أسس راسخة نجد أنفسنا ملزمين بأن نربط كل مضمون ومفهوم وأسلوبٍ فكري وتفسير ومقاربة بتلك الأسس. حتى إن الثقافة بألوانها المختلفة تحوم وتدور في محيطها، وتنهل من مناهلها، وتتغذى بغذائها، وتنمو بها، ثم تتحول بفضلها إلى حال فوق الزمان والمكان"^(١٤).



^(١٤) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٧٩.



المبحث الثاني: المصادر الأساسية للثقافة الذاتية

أولاً: مركزية القرآن في الثقافة الذاتية

انطلاقاً مما تقدم يثار السؤال الآتي "ما مرتكزات الثقافة عند الأستاذ فتح الله؟"

يجيب الأستاذ نفسه عن هذا السؤال من خلال مقالة "المصادر الأساسية لميراثنا الثقافي": "وهذه الأسس -باختصار- هي الكتاب والسنة... وبالإضافة إلى هذين العمادين -وفي إطار مرجعيتهما- التفسير والحديث وأصول التفسير وأصول الحديث والفقهاء وأصول الفقه... ونخص بالذكر الفقه وأصول الفقه فهما -من حيث إنهما ثمار مساعٍ حثيثة وكدحٍ مضمّنٍ، ومن حيث إنهما من غير مثيل أو شبهة لهما في التاريخ- مَبْعَانِ لا يَنْضَبَانِ ومصدران قابلان للتوسع والثناء الرحيب بحيث إن الشعوب التي تمتلك هذين المصدرين تُعَدُّ مالكة لأهم الأشياء الحيوية. إن كل حضارة تَفْخَرُ بقيمٍ تخصها بالذات... فالفقه وأصول الفقه من أهم وأبرز قيم حضارتنا نحن. وأحسب أننا لو كنا نحتاج إلى أن نَصِفَ حضارتنا -باعتبار ماضيها- بصفة، لكان من الأنسب أن نصفها بـ"حضارة الفقه وأصول الفقه"... حضارة الفقه وأصول الفقه المنفتحة أبوابها على

مصاريعها للفكر والحكمة والفلسفة^(١٤٦).

فالقرآن الكريم والسنة النبوية وما يتصل بهما من فقه وأصول فقه يعتبران المصدر الأساسي الموجه للميراث الثقافي بالنسبة للأستاذ، وهو إذ يبرز هذا المرتكز لا يقف بذلك عند حدود الخطاب بل هو يركز على جانب الحضور الفعلي لهذين المصدرين في الحياة من خلال بناء نماذج بشرية متحلية بثقافة تستمد مرجعيتها من سنة رسول الله ﷺ ومنهج في الحياة ومنهج في التفاعل مع الكون، ومن خلال الاسترشاد بالقرآن الكريم وما يتصل به من تفسير وفقه وأصول فقه.. وهو إذ ينه إلى ذلك كله إنما ينه إلى الأساس المتين الذي يكون خير عون للإنسان في مسيرة البناء والانبعاث من جديد والنهضة.. وهو كذلك إذ ينه إلى ذلك يؤكد بأن كل منطلق لا ينطلق من خصوصيات ذاتية، فإن نتاجه ومخرجاته سلبية لا محالة، ولن يكون هناك انبعاث ولا نهضة، ولذلك وجب الارتكاز على هذه الخصوصيات. بمعنى أن الأستاذ فتح الله كولن يجعل القرآن الكريم والسنة النبوية وتوابعهما شرطين أساسيين للانبعاث الحضاري والنهضة والتقدم. ولا يقف هذا الرجوع إلى هذه الأصول عند مجرد اجترار ما قدمه السلف، بل لا بد للأجيال الحالية من أن تسجل حضورها.

لقد كانت البيئة التي أنتجت ما أنتجت من معطيات ثقافية ومن ميراث يعترف العدو قبل الصديق بقيمته وأهميته.. لقد كانت هذه البيئة بيئة حياة معطاء وبيئة ولودا، بفعل ما وفرته المصادر الأساسية من أجواء مساعدة على الصلاح وعلى الإبداع. ولذلك فإن حضور هذه الأصول في حياة

^(١٤٦) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٧٩-٨٠.

الأجيال الحالية، وعيشها كما كان يعيشها الأجداد، سيولد بيئة مساعدة على الانبعاث والنهضة وغير ذلك من أسباب النهوض، وسيقدم لهذه الخصوصيات إضافات كثيرة كما أضاف الأجداد بما أنتجوه من علوم ومعارف كانت مرشداً ومنازة تثير الطريق.. يقول: "يتحتم علينا - من أجل بناء فهم ثقافي أمتن وأسلم وأقوم وأبقى لأمتنا- أن لا نفدي قيم ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا بعضها لبعض مع مراعاة الأولوية للمستقبل، وأن نوقر ونصون الديمومة والتوسع بنفس الدرجة.. والحقيقة أن الزمان الثقافي غير مرتبط بفكرة التواجد قبل أو بعد، على خلاف مفهوم الزمان المعروف لدينا. وأرى من الأنسب أن نسميه بـ"ما فوق الزمان". بل الأحرى أن ننظر إليه مستقلاً عن الزمان ومتعالياً عنه. والواقع أن ديمومة الثقافة بذاتها منوطة باستقلالها. لكن من البدهي وجود إطار من المرجعيات تنظم بناءها الذاتي والمستقل تماماً، وتُشكّل كيفية علاقتها بالجهات المختلفة"^(١٤٣).

قد يلتقي الأستاذ فتح الله كولن مع العديد من مفكري الإصلاح في قضية الارتكاز على القرآن الكريم وعلى السنة النبوية. فأغلب مفكري الإصلاح إن لم نقل كل مفكري الإصلاح الذين ينطلقون من رؤية إسلامية يجمعون على ضرورة الرجوع إلى القرآن والسنة، ولكنهم وهم ينظرون لذلك نسوا وضع خطة عمل لتفعيل ذلك، وهو الجانب الذي يميز الأستاذ فتح الله كولن.. فرؤيته الفكرية ومجهوده النظري لا ينفصل عن المستوى التطبيقي والحركي في مشروعه الإصلاحي بصفة عامة.

^(١٤٣) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٧٩.

فما موقع القرآن الكريم في هذا الميراث الثقافي؟
وما موقع القرآن الكريم في التصور الإصلاحى بكامله؟
وما طبيعة نظرة الأستاذ فتح الله للقرآن الكريم؟
وما منهج تفعيل الوحي عنده؟

يقول عن القرآن والكريم وعن حيويته واستمرار نضارة خطابه، باعتباره
وحيًا: "إن القرآن الكريم -سواء بالتفسيرات المروية عن رسول الله ﷺ
أو التفسير والتأويل في ضوء قواعد اللغة العربية وأساليبها، أو أسباب
النزول- لم يزل مصدرًا مهمًا لثرائنا الفكرى، حتى إن من ينظر إليه بالنظر
السطحي فلا يخفى عليه كم هو مصدرٌ ثراءٍ كبير.. والمعنى عينه جار
على الحديث أيضًا، لكن الواجب أن تصان هذه العلوم بالعقول الوفية
والمقتدرة، وإلا فلا منجى ولا مفرّ لأمتنا من حياة الشقاء في هذا الثراء
إن دام ما يراد لهذين المصدرين النيرين الفياضين من تكديرٍ لصفائهما
أو إغفالٍ لوجودهما، نتيجةً للعداوة اللدود من الخصوم، والخذلانِ أو
السكون من الأصدقاء"^(١٤٤).

فالقرآن وما يحيط به من معارف وعلوم، هو أول مصدر للثراء الفكرى
المتصل بالذات، بل هو أساس كل شيء في حياة المؤمن.. فالقرآن كتاب
مقدس أوحاه الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ ليبلغه للناس كافة، بما أنه
الكتاب الذى وضع فيه الله تبارك وتعالى تفاصيل السير إليه، وتحقيق
الغاية من خلق الإنسان ونزوله إلى الأرض. ولذلك فإن القرآن الكريم
الذى بلغه الرسول ﷺ لكل من كانوا محيطين به كان أداة تفتحت بها بصائر

^(١٤٤) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٨١-٨٢.

رجال حول الرسول ﷺ وتعمق به شعورهم وتوسع به إدراكهم الفكري، حينما ربطهم بالآفاق واسعة، بعد انتشارهم من ضيق رؤية لا تتجاوز حدود اليومي إلى آفاق الوجود والكون الواسعين.. لقد أخذ بألبابهم منذ الوهلة الأولى نظرا لمنطقه الدقيق وقدرته على مخاطبتهم بأسلوب عهدوا أنفسهم أقدر الناس عليه، لكنهم مع ذلك عجزوا كل العجز عن الإتيان بمثله، وأدركوا مع كل ذلك بأنهم بالانفتاح على القرآن وتشريع أبواب كل جوارحهم سينتقلون بفضل ما أودعه الله في هذا الكتاب من أسرار إلى مقامات أخرى ترشد العالم إلى كل أنواع الفضل والخير. لقد أدركوا -وهم متعلقون حول المبلغ الأول- لهذا الخير العظيم بأن "الاستفادة من خيره منوطة بمقدار ما تتسع له العقول المنصفة"^(١٤٥).

بهذا الإدراك -أي بإدراك كون القرآن الكريم وحيا وخطابا إلهيا يتوجه به الله تبارك وتعالى إلى خلقه من أجل مساعدتهم على معرفته والاسترشاد بمنهجه في إعمار الأرض وبناء الحضارة- نجح الرسول ﷺ المؤيد بمصدر الوحي في صنع نماذج بشرية لم يسبق لها مثيل، لأن "درجة الكمال التي وصلت إليها الأجيال التي نشأت في جوه النوراني كانت معجزة قائمة بذاتها لا تحتاج معها إلى ذكر أي نوع آخر من المعجزات، ولا يمكن العثور على أي مثيل لهم في مستواهم من ناحية التدين والتفكير وأفق الفكر والخلق ومعرفة أسرار العبودية. فالحقيقة أن القرآن قد أنشأ جيلا من الصحابة آنذاك لا نبالغ إن قلنا إنهم كانوا في مستوى الملائكة"^(١٤٦).

^(١٤٥) ونحن نبي حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٨٢.

^(١٤٦) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن (ترجمة: أورخان محمد علي)، دار النيل، ط: ١.

فانطلقوا نحو الآفاق مبلغين كلمة التوحيد إلى كل مكان، مرشدهم في كل ذلك هو "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، والخطاب القرآني.. لقد انطلقت هذه النماذج البشرية نحو الآفاق لا يحركها سوى شيء واحد هو "إعلاء كمة التوحيد"، ولم يكن في حسابها الاستقرار من أجل بناء الحضارة أو إدراك منفعة مادية وديوية، بل كان غرضهم الأول هو أن ترفرف كلمة التوحيد في كل مكان، وتبليغ الوحي إلى كل بقعة وصلوا إليها، لكن العمران والحضارة وما يترتب على ذلك من استقرار وإنتاج معرفي وغيره، كان في الأصل منحة إلهية وجائزة منحها الله تبارك وتعالى لهذه النماذج البشرية. واستمر الأمر على هذه الحال قرونا عديدة حولت فيه هذه الحضارة أمكنة قوتها من زمن إلى آخر ومن قطر إلى آخر، إلى أن تغافل الناس عن الهدف الأسمى وهو نشر التوحيد وجعل ذلك موجهها أساسيا في الحياة، فابتلي الناس بما ابتلوا به من ضعف ومذلة وتراجع في القيم والأخلاق.

ومن هنا فإن فتح الله عندما يستحضر القرآن باعتباره مصدرا أساسيا من مصادر ثقافتنا كما يقول، يستحضره باعتباره وحيا ما يزال يتنزل باستمرار إلى أن تقوم الساعة. وهذا هو عمق ما يقصده الأستاذ فتح الله بأن الخطاب الإلهي أو البيان الإلهي -الذي يعبر عنه الخطاب القرآني- هو فوق الزمان والمكان، وليس مجرد مصحف يتبرك به ويحترم جانبه الخطي، ويعتنى بجوانب الزخرفة فيه.. فالأستاذ فتح الله كولن عندما يطرح القرآن الكريم بهذا البعد، يطرحه بروح مطلعة على تاريخ الحضارة

الإنسانية بصفة عامة، وتاريخ الحضارة الإسلامية بصفة خاصة، يعلم يقينا أن الحضارة الإسلامية هي إسلامية بمقدار التصاقها بالوحي وروحه. فإذا هي ابتعدت عن هذه الروح ضاع منها مشعل الحضارة، والتجأت إلى هامش التاريخ وصارت تابعا، والأصل أن تكون رائدة. بعبارة أخرى إن الأستاذ فتح الله ينظر إلى عمق التمثيل لقيم الوحي، فكلما مُثِلت قيم الوحي تمثيلا حقيقيا وسليما وعميقا كلما تحققت الشهود الحضارية، يقول: "يمر العالم الإسلامي كله - في عصره القريب الأخير - بأشد أزمة واجهته في تاريخه، من حيث الاعتقاد والأخلاق والنمط الفكري والمعارف والصناعة والعادات والتقاليد والأوضاع السياسية والاجتماعية. لقد نجح المسلمون في تأسيس أكمل إدارة، تعجز عنها مدارك التصور الإنساني، لما كانوا زمنًا أشد أهل الأديان تمسكًا بالدين، وأقوى الناس التزامًا بالأخلاق، وأسلمهم أعرافًا وتقاليد، وأجدرهم بقيادة الدنيا بسعة أفقهم السياسي والاجتماعي ونُظُمهم الفكرية. ذلك، بمعاشتهم للدين من غير خلل، وبكمال أخلاقهم، وعقلهم العلمي، وسبقهم الناس في كل عصر. واستطاعوا أن يمدوا سلطة إدارتهم - في ظل الأعمدة الثلاثة: الإلهام والعقل والتجربة- من جبال "بيرينيه"^(١٤٧) إلى المحيط الهندي، ومن "قازان" إلى "الصومال"، ومن وبواتيه إلى سدّ الصين... وأحيوا الشعوب التي في عهدهم في هذه المساحة الواسعة، بأنظمة متخيلة في المثاليات، حتى جعلوا الدنيا بُعدًا من أبعاد الجنة، وذلك في زمن كانت الدنيا تمر

^(١٤٧) بيرينيه: سلسلة جبال بين فرنسا وإسبانيا. وقازان: عاصمة جمهورية تاتارستان ذات الحكم المحلي في روسيا، والمدينة على نهر الفولغا. وبواتيه مدينة في فرنسا اشتهرت بمعركة بلاط الشهداء.

بأحلك العصور ظلمة" (١٤٨).

لقد كان القرآن باعتباره وحيا يتنزل على الناس فيبعث فيهم الحياة والحيوية والنشاط، لكنه عندما سُحب من مقامه العالي الذي يشرف منه على كل شيء، انهار البنيان وانهدت الصوامع. ولذلك فأصحاب الأحكام المسبقة والمنحرفون فكريا، والأرواح الأسيرة المكبلة، لن تستطيع الإحاطة بأسراره. فوجب تحرير الفكر من الأحكام المسبقة، ووجب انطلاق الروح من عقالها لكي تدرك معاني هذا القرآن الكريم، لأنه "أبداً كتابٌ ذروةٌ في العلاء يتعدى آفاق البشر، وبيانٌ لا مثيل له بتنوع تفسيراته وتأويلاته بطول موجات مختلفة، وذلك إنَّما ينجلي لمن يفتح صدره له بإخلاص وصدق. إنه إكرام إلهي مهم للإنسان، والتعرفُ عليه ثم اللجوءُ إليه في كل مسألةٍ حظُّ فوق الحظوظ وجَدُّ فوق الجدود.. لكن -يا ترى- كم شخصا هو على دراية بهذه الحظوة؟! والحق أن لا حلَّ لمعضلة بشرية من غير اللجوء إلى ضيائه، وأن لا سعادةً باقيةً يحظى بها الإنسان من غير البناء على أسسٍ شلالٍ بيانه الدفاق" (١٤٩).

إن الأستاذ فتح الله يقدم الدليل بعد الدليل ملحا على أن كتابا مقدسا ظل محافظا على قوة خطابه وعلى نضارة معانيه وعلى حيوية بيانه على مر الزمن، لا يمكن إلا أن يكون أهم مصدر لثقافتنا. فما حقيقة هذا الكتاب، وما طبيعة نظرة الأستاذ للقرآن الكريم؟

تحدث الأستاذ عن القرآن الكريم في الكثير من المواضع، حتى لا

(١٤٨) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن (ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو)، دار النيل، ط: ٢،

القاهرة ٢٠٠٦م، ص: ١٠.

(١٤٩) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٨٣.

يكاد كتاب من كتبه لا يُذكر فيه مصطلح القرآن أو يشار فيه إلى معانيه. ويرجع ذلك إلى مقام القرآن الكريم في فكر الأستاذ فتح الله، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي يبني مجموع مشروعه الحضاري على القرآن الكريم وعلى السنة النبوية. فالقرآن حاضر في مختلف مراحل مشروع "الخدمة"، إذ هو المصباح الذي استنارت به الخدمة في حركتها، وهو المصباح الذي أنار للأستاذ فتح الله السبيل للإجابة عن الأسئلة المحرجة في مسيرة حياته الحافلة، يقول: "القرآن هو قمة الفكر المتين والصحيح، وأساس التعبير الدقيق، وقاعدة للتعبير المنطقي. وكما كان هذا الفرقان العظيم سيد الكتب السماوية وغير السماوية كان المخاطب الأول له سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ. الكتب السابقة جاءت لكي تضع إشارات على طريقه وأعلامه، أما الكتب التي جاءت بعده فلكي تقوم بشرحه ووضع الهوامش والحواشي، كل حسب خريطة روحه وغنى ذلك الروح"^(١٥٠).

ويقول في مكان آخر معمقا هذه النظرة: "بل إن العصور المظلمة التي جال فيها ظلُّه أصبحت عصورا ذهبية. أما العصور التي تعرفت به عن قرب وعاشته فقد تحولت إلى ما يشبه الجنة. من وهب نفسه له سما إلى مرتبة الملائكة، وأصبح كل ما في الكون من أحياء وجماد أليفا عنده.. بل هو معجزة كبيرة وشاملة وغنية تتجاوز كل الأزمة والأمكنة، وتلي جميع المطالب الإنسانية بدءاً من العقائد وانتهاء بأصغر الآداب الاجتماعية، وهو بعمقه يستطيع حتى اليوم تحدي الجميع وتحدي جميع الأشياء"^(١٥١).

القرآن الكريم عند الأستاذ فتح الله مصدرا مطلقاً لا ينضب من

^(١٥٠) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص: ١٦.

^(١٥١) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص: ١٨-١٩.

المعلومات والحلول لمشاكل العالم. فقد وُهِبَت للقرآن في تصور فتح الله نعمة الإرشاد إلى طريق سعادة الدارين، بل هو مفتاح السعادة الذي يستطيع حل كل الألغاز في كل موضع في هذا العالم.. فبفضله يستطيع العالم الخروج من دائرة الحيرة والتَّيه، والوصول إلى بناء الانسجام بين الأفكار والمشاهد، وبين الفكر والشهود. فالقرآن الكريم باعتباره كتاباً مقدّساً وباعتباره وحياً، جاء لنجدة الإنسانية^(١٥٢). إنه هو مفتاح كل المجالات المرتبطة بحياة الإنسان. يقول موجهها خطابه إلى القرآن الكريم: "كيف سيكون حالنا إن لم تهطل كالغيث، ولم تهدر كالصاعقة، ولم تسحق سحق الصاعقة؟! وكيف ستكون حال الإنسانية؟! وكيف تستفيق هذه الأمة وتنهض؟! وكيف تخطو المدارس إلى الأمام؟! وكيف تتنور المعابد؟! وأين سيجد القلب والروح والعقل ضالّتهم؟! وأي شيء يستطيع أن يكون بلهما لهذه الأرواح البائسة والقلوب المكلومة وشفاء لها؟! وكيف تستطيع هذه الأرواح المشلولة أن تبسط أجنحتها وتطير؟! وكيف يستطيع العقل فتح الطرق المسدودة أمامه فيرشد الفكر إلى طريق الأبدية؟!"^(١٥٣).

ومن يحلل رؤية الأستاذ فتح الله بخصوص القرآن الكريم سيلاحظ بأنها تلتقي إلى حد بعيد مع رؤية الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، لكن أفكار فتح الله تتميز بروحها الحركية المتصلة بمشروع "حركة الخدمة" التي بدأها فتح الله قبل خمسين سنة خلت، بل إن مشروع فتح هو بوجه من الوجوه الصورة التي كان النورسي رحمه الله يحلم بتحققها

^(١٥٢) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص: ٥٩.

^(١٥٣) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص: ٦١-٦٢.

في الواقع. وعند فتح الله عقيدة ثابتة أن حقائق القرآن الكريم ستقول كلمتها في المستقبل، وهو مقتنع بأن العصر الحالي هو عصر آخذ في التوجه إلى القرآن الكريم إذ يقول: "هناك العديد من المفكرين المعاصرين الذين يرون بأن العصر القادم سيكون عصر القرآن. والحقيقة أننا إن دققنا قليلاً لرأينا أن عصرنا الحالي بدأ يتجه للقرآن بسرعة أكبر مما كنا نتوقع أو نتصور. أجل.. حتى أصحاب أكثر النظرات بلادة وسطحية يستطيعون حدس كيف أن القرآن مرتبط بالكون ومتداخل معه، وكيف أن جميع بياناته حول الوجود صائبة، فلا يملكون أنفسهم من الإعجاب بقوة تأثيرها ونورانية عالمها"^(١٥٤).

فإذا كان القرآن قد غير وجه العالم منذ أربعة عشر قرناً خلت، فإن فتح الله يعتقد بأن القرآن سيقول كلمته في القرون الحالية وفي المستقبل، وهو على يقين بأن القرن الواحد والعشرين سيكون عصر القرآن، انسجاماً مع رؤية مركزية في مشروع فتح الله كولين الإصلاحية، هي طرد اليأس واستحضار الأمل في المستقبل، فالقرآن سيحمل الحلول لكل مشاكل العالم، وعلى المسلم أن يكون واثقاً في ذاته وفي القيم التي يمثلها، وأن يؤمن بحقائق القرآن وقدرتها على أن تكون بلسماً لمشاكل العالم الروحية والواقعية، وشرط ذلك أن تتمثل الأجيال الحالية القرآن كما تمثله المسلمون الأوائل، يقول: "ولو تصرف مسلمو اليوم في موضوع القرآن بصفاء المسلمين الأوائل -علماً أن هناك حركة ملحوظة في هذا الاتجاه حالياً- لاحتلوا مكانة مرموقة في التوازن الدولي الحالي في

^(١٥٤) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولين، ص: ٦٣.

وقت قصير، وتخلصوا من تقليد الآخرين والسير وراءهم، ولما وجدوا السلوان في وديان التقليد الأعمى. إن قيام الطلاب الأوائل للقرآن بتلك الحملة الإيمانية والأخلاقية التي أدهشت العالم آنذاك يجب أن يدفع إنساننا المعاصر إلى تناول تلك الحملة بالدراسة والتدقيق بكل حرص. أجل.. إن ظاهرة قيام بضعة آلاف من الصحابة -بعد ظهور الإسلام بين جبال مكة الوعرة- بحملة وبانقلاب كبير أضاءوا به أرجاء الأرض، حادثة متميزة وخارقة للعادة يجب تدقيقها وتقييمها، وهو منبع تُرغبي يرجع له المؤمنون على الدوام^(١٥٥).

ما يضيفي المشروعية على ما يذهب إليه فتح الله هو ما يمثله القرآن، إذ هو معين لا ينضب من الحلول، مع خاصية الصدق والإخلاص الذي يميز خطابه.. فكما أنه لم يخدع من تفاعل معه منذ قرون بعيدة، فلن يخدع من يتفاعل معه في العصور الحالية ومن سيتفاعل معه في العصور المقبلة. وهذا أمر يقيني وعقدي بالنسبة للأستاذ فتح الله كولن، فهو متأكد بأن الخطاب القرآني كان محركا للفاعلية الإنسانية في عصور السعادة، فإنه يقينا يستطيع تركيز الحركية والفعل في كل زمن وفي مكان. ونظرا لأن رؤية فتح الله تلتقي مع رؤية النورسي رحمه الله فهو يرى ضرورة الاتجاه نحو العلم من أجل معرفة الظواهر الكونية وفهمها، انطلاقا من كون الوجود قرآنا شهوديا يشهد بعظمة الخالق، ويشهد بصدقية الخطاب القرآني. فالقرآن الكريم باعتباره كتابا لحقائق كونية وكتوبا يرشد ذوي الألباب إلى تدبر عظمة الخالق، فإن العلم السليم سيتناسق كل التناسق

^(١٥٥) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص: ٦٧.

مع القرآن المكتوب الذي يدعو الناس بشتى السبل إلى العلم وإلى البحث العلمي، ويدعو إلى التأمل في كتاب الكون، بل ويدعو إلى نظام للتفكير خاص في فهم أسرار الوجود.. يقول في بيان هذه الحقيقة: "لذا نستطيع أن نقول بأن القرآن كما لم يقم بالأمس بخداع الذين آمنوا به واتبعوه ولم يحيرهم، كذلك لن يخدع الذين سيتوجهون إلى جوه النوراني ويؤمنون به بعد اليوم، ولن يخيب آمالهم. لأننا نؤمن بأن العقول عندما تضاء بنور العلوم، والقلوب تتنور بمعرفة الحق، وعندما يوضع الوجود تحت عدسة العلم والحكمة للتدقيق والدراسة، سيكون كل حكم صادر باسم العلم موافقاً لروح القرآن ومتلائماً معه"^(١٥٦).

والأهم من ذلك هو أن القرآن الكريم يعلم الإنسان حقيقة ماهيته، ويعلمه الحق والحكمة، ويعرفه بذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى^(١٥٧) التي تجلى بها على الوجود - كما يقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي-، بل إن القرآن - كما يبين فتح الله - "هو الكتاب الوحيد الذي يعلم الإنسان معنى الإنسان وماهيته والحق والحكمة وذات الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى، وذلك بأدق ميزان. وليس هناك كتاب آخر يماثله في هذا الميدان أبداً. ولو طالعت حكم الأصفياء والأولياء وفلسفة الفلاسفة الباحثين عن الحق لعرفت ذلك بنفسك"^(١٥٨).

^(١٥٦) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص: ٦٨.

^(١٥٧) انظر: الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، (ترجمة: أورشان محمد علي)، دار

النيل، ط: ٥، القاهرة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص: ١٤٢.

^(١٥٨) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ١٤٢.

ثانياً: أهمية السنة ودورها في رؤية فتح الله كولن

الأستاذ فتح الله كولن يعتقد اعتقاداً راسخاً أن فهم أبعاد القرآن الكريم وإدراك مختلف مستوياته الدلالية والتداولية، والوقوف على مختلف أبعاده التي هي فوق الزمان، المفسرة بصورة دقيقة لحقيقة الإنسان وأبعاد الكون والوجود، وحقيقة الله، قضية ملحة وحميمة. ولكي يكون استيعابه لذلك كله وفق أساس متين ينبغي الاقتراب والدخول إلى عالم من وهبه الله صلاحية تفسيره وبيانه للناس بتطبيقه وتفعيله وتلقيه دقائقه الروحانية على الوجه الأمثل، لتحديد بذلك أهمية السنة النبوية وأهمية الرسول ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء والرسل، وباعتباره الصورة النموذجية للإنسان الكامل، والنموذج المثالي للإنسان الذي يستحق أحقية العودة إلى الفردوس المفقود.

ومن هنا يبرز ثاني أهم مرتكز في مفهوم الثقافة عند الأستاذ فتح الله وهو "السنة النبوية" التي تحتل مكانة مهمة جداً في رؤية الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحية، نظراً لأنها - كما يرى الأستاذ فتح الله - الوجه الآخر للقرآن الكريم، والصورة المطبقة لحقيقة القرآن الكريم.. فقد كان الرسول ﷺ قرآناً يمشي، فكما أن القرآن المنظور تفصيل للقرآن المكتوب، وكما أن القرآن المكتوب ترميز للقرآن المنظور، فإن السيرة النبوية الشريفة هي القرآن المطبق، ولذلك يستحيل الاستغناء عن السنة والسيرة النبوية في استيعاب أبعاد القرآن الكريم الدلالية والتداولية.

إن السنة النبوية وسيرة الرسول ﷺ هي المصدر الثاني للثقافة الذاتية، وعناية الأستاذ فتح الله كولن بالسنة النبوية والسيرة تكتسب مشروعيتها من النصوص الشرعية التي تفرض التمسك بهذا المصدر. ولذلك جعل

من الانتساب إلى الإسلام مرهونا بالإيمان بنبوة محمد ﷺ ومرهونا بضرورة اتباع سنته. ومظاهر عناية فتح الله كولن بهذا المصدر كثيرة لا تقف عن حد الدعوة إلى ضرورة الاهتمام بالسنة والسيرة، ولا تقف عند المظاهر الاحتفالية كما هو حال العديد من الدعوات في هذا الباب، بل الملاحظ هو تجاوزه لهذه المراحل إلى الأهم في الموضوع وهو الحرص على تنزيل السنة بدءاً منه هو.. ففتح الله كولن من بين أكثر الدعاة ومفكري الإصلاح في الوقت الراهن تمسكا بالسيرة النبوية، فهو يعيش السنة ويحيى بها، بعد أن اختط لنفسه منهج حياة متصلة بالسيرة النبوية، وألزم نفسه به منذ عقود خلت.. وأما المنهج التربوي الذي اتبعه في بناء النماذج البشرية التي تؤثت مؤسسة الخدمة فمنهج نبوي مستمد من القرآن الكريم ومن السيرة النبوية، ومرد ذلك هو عقيدة الأستاذ الراسخة في هذا الباب وهي أن المنهج الذي نجح الرسول ﷺ من خلاله في بناء رعييل الصحابة الكرام، سينجح يقينا في بناء "الإنسان الجديد" أو "جيل القرن الواحد والعشرين السعيد".. وفي هذا الإطار تأتي عناية الأستاذ فتح الله كولن بسيرة الصحابة الكرام، باعتبارهم نماذج بشرية تربت في مدرسة النبوة وتلقت أنوارها من الرسول ﷺ، من منطلق أن الرسول ﷺ كان يرثيهم إما بتلقيهم المباشر منه، أو من خلال ما كان يقذف فيهم منه من أنوار تصيب الذين حوله فتطبعهم بطوابع خاصة، وترتقي بهم إلى المقامات النورانية العالية، وتطبع أرواحهم بالسمو والارتقاء. ولأهمية هذا الجانب في مشروع الأستاذ الإصلاحي فقد أولاه عناية خاصة.. ويمكن تقسيم هذه العناية إلى ثلاثة جوانب:

- الجانب الأول ذاتي مرتبط بطبيعة شخصية الأستاذ فتح الله، إذ

جعل من السنة النبوية منهجا شخصيا يتمثل في الاجتهاد في اتباع جميع الجوانب المتعلقة بالسيرة النبوية من خلال اتخاذ شخصية الرسول ﷺ قدوة يقتدي بها في جميع تفاصيل حياته. والظاهر -من خلال ما يرويه تلامذته عنه- أنه حريص على تطبيق السنة النبوية حرصا لا مثيل له، وليس هذا غريبا على مرتب عاش حياته كلها وقلبه متشبث بعصر الصحابة أو بما يطلق هو عليه "عصر السعادة" .. فرجل حريص على أن يتخذ تلاميذه الصحابة الكرام قدوة لهم، وأن تكون السيرة النبوية وسيرة الصحابة الكرام منهجا يحرك كل فعل وسلوك... وقد نجح في هذه المهمة التي تتجلى في العديد من النماذج الإنسانية الذين انطلقوا إلى كل مناطق العالم ينشرون عقب قيم السيرة النبوية وأريجها، وقيم الخير والمحبة بسلوكلهم وتصرفهم، ومبشرين بعهد جديد ينتظر الإنسانية.. رجل هذه صفاته لا يمكن إلا أن يكون رجلا متعلقا بالسنة حريصا على تطبيقها.

• الجانب الثاني في مظاهر الاهتمام هو الجانب التطبيقي للسنة والسيرة النبوية.. فاهتمام الأستاذ بصورة خاصة، والخدمة بصفة عامة بهذا الجانب يتجلى على الخصوص في العمل على تنزيل مبادئ السنة في الحياة الواقعية، لأن السنة ليست مجرد مظهر احتفالي في رؤية الخدمة، بل هي منهج حياة، لأن عددا كبيرا من المنخرطين في "الخدمة" قد لا يُقنعون المتلقي في تحديد ماهية السنة وتعريفها، لكن عندما تعايشهم عن قرب تلمس في تصرفاتهم وأقوالهم مظاهر من السنة وسيرة الرسول ﷺ وسيرة الصحابة الكرام ﷺ.

• الجانب الثالث وهو الجانب المتصل بالتأليف.. فالأستاذ اهتم بالسيرة من خلال تدشينه لسلسلة من المحاضرات والخطب حول السنة

والسيرة النبوية، وهي الخطب التي صارت أصلاً لكتاب هو اليوم من أهم كتب السيرة في العصر الحديث، وهو "كتاب النور الخالد" الذي يعد رؤية حركية للسيرة النبوية الشريفة. إن السنة مصدر أساسي للثقافة الذاتية، ولذلك فهي تحتل أهمية كبيرة في المشروع الإصلاحى للخدمة، لأن الارتباط بها هو ارتباط بالمظهر الروحي والحركي والسلوكي للإسلام، يقول الأستاذ فتح الله كولن: "نعم، السنة -سواء بفضل سعة مساحتها في التشريع أو بمرورتها القابلة لتفسيرات متنوعة- لا زالت مصدرًا مباركًا لا نجد له نظيرًا في العطاء في أي دين آخر أو أمة أخرى.. فهو المصدر في التفسير أو الفقه أو المسائل الاعتقادية أو الأخلاق أو الزهد والتقوى أو الإخلاص" (١٥٩).

فالسنة عند الأستاذ فتح الله ذات أهمية بالغة ولا يمكن الاستغناء عنها في رسم معالم المجتمع المسلم، بل وحتى المجتمع الإنساني.. فالسنة هي المصدر الثاني للتشريع، وقد تمكن علماء الأمة من المحافظة عليها بوضع الضوابط الصارمة التي مكنتهم من تصفيتها من الشوائب والتحريف والكذب على الرسول ﷺ. ولذلك فإن صفاء هذا المصدر لا يشك فيه إلا جاحد ومن في عقله نقص أو انحصار رؤية، يقول: "كان رسول الله ﷺ يرى إطاعته واتباع سنته جزءً من الدين، ويريد من الشاهد تبليغ الغائب وانتقال سنته إلى الأجيال القادمة، ويوصي أصحابه بالرفق بالذين يأتون من أماكن بعيدة بقصد سماع الأحاديث، ويشجع على فهم أحاديثه جيدًا، لذا نرى أحيانًا يكرر كلامه ليساعدهم على فهم أحاديثه وحفظها" (١٦٠).

(١٥٩) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٨٧.

(١٦٠) النور الخالد، محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن (ترجمة: أورخان محمد علي)، دار

وأما الأمر الثاني الذي يجعل للسنة كل هذه الأهمية، فهو كونها تمثل كل أفعال وأقوال وتصرفات وتدبيرات الرسول ﷺ، وهذا هو عمق ما أدركه الصحابة الكرام رضي الله عنهم. لقد أدركوا أن الرسول ﷺ بعث معلما ومرشدا لهم، فكانت أذهانهم وعقولهم وأفئدتهم وجميع جوارحهم متيقظة منتبهة لكل ما يصدر عن الرسول ﷺ فحرصوا على جعل كل توجيهات الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله سلوكا يوميا. وهذا ما جعل من هؤلاء الرجال الصحابة نماذج بشرية لم يعرف التاريخ مثيلا لهم.. فهؤلاء هم الذين بنوا حضارة التوحيد وأسسوا العمران وأنقذوا شعوبا كثيرة كانت تقاسي من مأس عديدة.. بعبارة أخرى كان الرسول ﷺ في تصور الأستاذ فتح الله بمثابة معلم لكل من على أكتافه انتشر الإسلام وذاق حلاوته من شعوب وأقوام، لا حصر لهم، يقول: "لذا، نرى أن الصحابة الكرام ﷺ - وقد عرفوا أنه بعث لتعليمهم وتربيتهم- يهتمون ليس فقط بالاستماع إلى أحاديثه المتعلقة بأسس الدين وقواعده، بل بكل تفصيل دقيق من تفاصيل حركاته وسكناته وحتى أموره الخاصة، ثم يكررون ما سمعوه منه فيما بينهم ويتداولون أحاديثه فيما بينهم حتى تنطبع في ذاكرتهم أو يسجلونها ويكتبونها. وكانوا يعدون كل كلام صادر منه ﷺ أبرك ذكرى وأفضل أمانة، ويجتهدون ألا تضيع حكمة واحدة منه. وقامت هذه الجماعة المباركة بحمل هذه الأمانة المقدسة في جو من الثقة والاطمئنان"^(٦٦).

خصص الأستاذ فتح الله في كتاب "النور الخالد" آخر الكتاب بملحق

النيل، ط: ٥، القاهرة ٢٠٠٩ م، ص: ٦١٠.

^(٦٦) النور الخالد، فتح الله كولن، ص: ٦١٠.

عنوانه "السنة النبوية ومكانتها في الشريعة الإسلامية". ونلمس في هذا الاهتمام دليلاً على أهمية هذا المكون بالنسبة للثقافة الذاتية، كما يدل في الوقت نفسه على صفاء السنة من الشوائب التي قد تطعن فيها كما بيّنا سالفاً، لكنها تدل في الوقت نفسه على الدور الذي قام به الصحابة الكرام في تدوين السنة والحفاظ عليها، والدور الذي قام به كبار العلماء الذين تربوا في هذا السنة النبوية من خلال وضعهم للضوابط التي حصنت السنة وحمتها من التحريف والتزوير، من خلال بنائهم لمنظومة "علم الحديث" الذي يعتبر اليوم من أكثر العلوم دقة وانضباطاً للمنهج العلمي الذي توصل إليه العقل البشري.

وعلى العموم فإن اهتمام الأستاذ بالسنة النبوية كان اهتماماً كبيراً وخصوصاً، واهتمامه بها لم يقف عند حدود الإعجاب بل كان حريصاً على تطبيقها وتفعيلها، بدءاً بنفسه، ومروراً بكل من تلقوا على يده، وانتهاءً بجميع أفراد المجتمع. ولذلك كان الطابع الغالب على كتاب "النور الخالد" هو الإكثار من ذكر تصرفات وقصص الصحابة التي تشير إلى تأثير شخصية الرسول ﷺ في الصحابة.

بعبارة أخرى لقد سعى الأستاذ فتح الله من خلال اهتمامه بالسنة إلى تفعيل أخلاق القرآن الكريم من خلال نماذج بشرية حية تتحرك بين الناس، إنها النموذج السلوكي الذي تحضر فيه القيم وتتجلى فيه قيمة التاريخ باعتباره أحداثاً وقعت ليس فيها للخيال مكان. لقد كان مطلب الأستاذ فتح الله كولين وما يزال هو الارتباط الكلي بالسنة من خلال العمل على إيجاد نماذج بشرية في مستوى الصحابة الكرام.

لقد تركز سعي الأستاذ فتح من خلال هذا الاهتمام إلى بناء "وعي

جمعي"، وكتاب النور الخالد هو أداة من أدوات تحقيق ذلك.

ثالثاً: الإجماع

ومما يلفت الانتباه في هذه المرتكزات هو أن الأستاذ فتح الله يلح على أهمية العناصر الأخرى التي تنبني عليها الثقافة الذاتية، وهذه العناصر هي الإجماع الذي يعتبر عنصراً مهماً في نظر الأستاذ لأنه يقوم على اتفاق بين المتخصصين في مجالاتهم والقادرين "على إثبات وتقييم مسألة معينة بالاستناد إلى الأدلة الأصلية واجتماعهم على رأي واحد فيها. فلا يعد اتفاق العوام على شيء من المسائل إجماعاً، كما لا ينعقد الإجماع في مسألة تُناقض الأدلة الشرعية. كذلك لا عبرة للإجماع فيما ورد فيه من الشارع نصّ، وفيما هو معلوم من الدين بالضرورة. ولا في مواضيع مثل حدوث الكون وعدم أزليته. ويقع خارج شمولية الإجماع قضايا مثل ثبوت حقيقة وجود الله ووحدانيته والنبوة. ولا يُتصور الإجماع في الأمور التي يتعلق فهمها ببيان الشارع كأحوال الآخرة وعلامات الساعة وأنواع النعم والعذاب في الأخرى"^(١٦٢).

فالإجماع لا قيمة له إذا لم يصدر عن أهل العلم والدراية، لأنه يقوم في الأصل على نوع من الاجتهاد وتقليب القضايا الماثرة للنقاش على كل الأوجه قبل بناء حكم دقيق عنها، وعندما يجمع أهل الدراية على الحكم الواحد، ففي ذلك إجماع مؤسس على أن الحكم قد وافق روح التصور الإسلامي وراعى كل مقاصد الشريعة.. والجدير بالذكر في هذا الإطار أن الأستاذ فتح الله كولن يحلم بأن تتحول قضية الاجتماع والاجتهاد بصفة عامة

^(١٦٢) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٨٧-٨٨.

إلى مؤسسة غير مرتبطة بالأشخاص، توكل إليها مهمة العمل على إيجاد أجوبة عملية ومقنعة لأسئلة الواقع المعاصر في كافة المجالات والبيادين. كثيرا ما يتحدث الناس في عالمنا الإسلامي عن الوحدة والتكامل، ولكن العناصر الممهدة لهذا التكامل لا تتحقق إذا لم يكن الناس قد حققوا توحيدهم الرؤيوي والفكري، وإذا لم يتحول الاجتهاد إلى مؤسسة ذات ضوابط معروفة تمارس سلطة معروفة على الأفراد والجماعات، إذ يقول الأستاذ فتح الله عندما يتحدث عن نقاط الالتقاء والاتحاد: "لا تتصرف أبداً كحواريّ الوحدة، ولا تقل لكل من تقابله "تعال لتتحد!"، لأنها دعوة ليست في محلّها. أما عندما تقول هذا بأسلوب من يدعو الآخرين للانضمام إلى مجموعته فهو خطأ أكبر وعدم توقيت، ذلك لأن مثل هذا الأسلوب لا ينتج عنه -حتى عند أكثر الناس جنوحاً للخيال- سوى زيادة التعصّب لجماعته، بل قم بالثناء على خدماتهم واحترم ووقّر مرشديهم"^(١٦٣).

رابعاً: التصوف وبناء صرح الروح

جرت العادة أن يأتي ترتيب العرف بعد هذه المصادر الأساسية السابقة، لكن الأستاذ يجعل التصوف مصدراً أساسياً من مصادر الثقافة الذاتية، إذ للتصوف أهمية خاصة في رؤية الأستاذ فتح الله كولن، لكن التصوف عنده ليس هو تلك الممارسات التي طبعت -وما تزال- العديد من الطرق الصوفية، بل يقصد به حياة القلب والروح.. ونظراً لكون الأستاذ فتح الله كولن سنيّاً، فإن نظرتَه للتصوف تنطلق من طبيعة الحياة الروحية التي

^(١٦٣) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ٧٢.

كان الرسول ﷺ يحرص على ألا تفارق جميع أحواله وجميع أقواله. فالناسك والمتصوف الأول هو الرسول ﷺ الذي عاش حقيقة التصوف في لحظة من حياته. ولما كان الرسول ﷺ على هذه الصورة المثالية من جهة الحياة الروحية، ولما كان الأستاذ فتح الله يعتبر الرسول ﷺ قدوته الأولى، فقد كانت حياة القلب والروح هي أساس حياته الخاصة، كما تدل على ذلك مختلف مراحل حياة الأستاذ فتح الله، وهي الملامح نفسها التي عمل على تربية محبّيه وتلاميذه عليها، دون أن يكون شيخ طريقة أو تابع طريقة ما في التصوف، يقول معرّف التصوف: "التصوف، اسم يطلق على الطرق الموصلة إلى الحق تعالى، يسلكها الصوفي والمتصوفة. فالتصوف يعبر عن الجانب النظري لطريق الحقيقة، والتنسك (التدروّش) يُعنى بجهته العملية. وأيضاً أُطلق على الجانب النظري للطريقة "علم التصوف" وعلى جهتها العملية "التنسك". ويرى بعض أرباب الحقيقة أن التصوف هو إمامة الله جهة الإنسان النفسية والأنانية والسموّ به إلى حياتية أخرى بأنواره الذاتية. وتعبير آخر: إفناء الله الإنسان بإرادته سبحانه، ودفعه إلى العمل بإرادته الخاصة واختياره الأحدي. ومقاربة أخرى: إن التصوف هو المجاهدة المستمرة والمراقبة الدائمة لإزالة الإنسان جميع أشكال الأخلاق الذميمة عنه وتخليه عنها، وإقامته الخصال الحميدة الرفيعة، وتحليّه بها"^(١٦٤).

فالتصوف بصفة عامة لا يخرج عن إطار ذلك التعريف الذي يعرفه علماء السنة الأوائل الذين ارتبطت حياتهم بالتصوف أو بحياة القلب

^(١٦٤) التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن (ترجمة: إحسان قاسم الصالح)،

والروح. ومن هنا فإن مفهوم التصوف عند الأستاذ المرّي فتح الله لا يخرج عن إطار كونه الإقبال على الله بكل حماس من خلال الالتزام بتعاليم الدين، إنه بكلام آخر هو الانسلاخ عن الصفات البشرية، والتدثر بالأخلاق الإلهية.

يرى الأستاذ فتح الله كولن أن تعريف التصوف بعناوين كثيرة لا يعني عدم ارتباطه بالشرعية، وكونه يعني بالجوانب الباطنية لا يعني عدم اتصاله بالشرعية، ولا يعني عدم ارتباطه بالحياة والواقع، ولا يعني كذلك اعتزال المجتمع والعيش.

لقد عمل الأستاذ فتح الله على إضفاء الشرعية على التصوف من خلال تجاوز الاسم والتركيز على المسمى، يقول: "إن تعريف التصوف بعناوين مختلفة كعلم الباطن وعلم الأسرار وعلم الأحوال والمقامات وعلم السلوك وعلم الطريقة، لا يعني افتراقه عن العلوم الشرعية، إذ إن هذه الأسماء والعناوين نابعة من تذوق أمزجة متباينة ومشارب مختلفة للحياة القائمة على الشرعية طوال عصور مديدة وإدراكها بصور متنوعة. لذا يعدّ انحرافاً ومجانبة للصواب إظهار وجهات نظر الصوفية أنها مختلفة في الأساس عن أفكار خدام الشرعية واستنباطاتهم. ورغم أن هناك في كل عصر من العصور متعصبين من الصوفية ومتشبهين بظاهر الأحكام الشرعية من الفقهاء والمحدثين والمفسرين، إلا أن أرباب الصراط المستقيم هم الأكثرية دائماً بالنسبة لهؤلاء الذين أفرطوا وفرطوا. وبناء على هذا فمن الخطأ قطعاً تناول المسألة وكأن هناك منافاة حقيقية بين أهل الحق من كلا الجانبين، نظرًا إلى أقوال ومفاهيم غير لائقة لقسم من الفقهاء على المتصوفة أو لقسم من المتصوفة على الفقهاء، وذلك

لأن عدد الذين يثيرون مثل هذا النزاع ويشاركون فيه يُعدّون قطرة من بحر بالنسبة لمن يسلكون طريق التسامح والعفو والصفح. وفي الحقيقة إن هذا أمر طبيعي جداً، لأن مرجع كلا الطرفين واحد، فمثلاً يرجع الفقهاء إلى الكتاب والسنة في الأحكام الشرعية يستند الصوفيون كذلك إلى المرجعين نفسيهما^(١٦٥).

لا شك في أن طبيعة التربية التي تلقاها الأستاذ، وطبيعة الأجواء الروحية التي كانت تطبع الحياة الاجتماعية في منطقة أرضروم، قد أثرت في شخصيته وطبعتها بطابع روحاني خاص. فمن المعلوم أن الأستاذ ينحدر من أسرة معروفة بروحانيتها الكبيرة. فقد كان جده وجدته شخصيتين معروفتين بالورع وبالإحساس المرهف، إلى درجة أن الجدة كانت معروفة بكثرة بكائها عندما تسمع موعظة أو يأتي ذكر الرسول ﷺ، أو ذكر أحد من الصحابة الكرام ﷺ. لقد كانت أسرته أسرة محبة للرسول ﷺ ولصحابته ﷺ، يضاف إلى ذلك الشيوخ الذين أثاروا فيه، وقد ذكر بعضهم في "دنياي الصغيرة". فعامل الوسط الذي ترعرع فيه الأستاذ فتح الله كولن هو الذي ساهم بالإضافة إلى عوامل أخرى في اهتمام الأستاذ بالتصوف من جميع جوانبه السلوكية والفكرية.

فالتصوف بالنسبة للأستاذ فتح الله كولن، له أهمية كبيرة لا تقل عن أهمية المصادر الأخرى ولا تختلف، بل يمكن القول إنها تكملها، وذلك لأن الشريعة والتصوف ينطلقان من المصادر نفسها وهما القرآن السنة. وفي هذا الإطار حرص الأستاذ فتح الله على إبطال ذلك العداء الذي

^(١٦٥) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٢٥/١-٢٦.

برز خلال مراحل تاريخية مختلفة بين التصوف والشريعة أو بين الحقيقة والشريعة. فالأستاذ فتح الله كولن يعتبر هذا العداء مجرد عداء وَهْمِي ليس غير. ويرجع إلى انطلاق التصوف والشريعة إلى مصدر واحد، ولذلك فالفصل بينهما تجزيء ما لا يجرأ. وقد نبذ فتح منذ اللحظة الأولى هذه الازدواجية عندما جعل أساس حياته الخاصة وأساس المشروع الإصلاحية الذي انطلق منه هو ضرورة الجمع بين الجانب العملي الذي تمثله الضوابط العملية المستخلصة من القرآن والسنة، وبين الحياة القلبية أو بين الشريعة والحقيقة. لأنه يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الحقيقة والشريعة وجهان لعملة واحدة، يستحيل فصلهما.

بعبارة أخرى لقد كانت رؤية الأستاذ متجهة إلى البحث عن السبل التي تكفل توحد المجتمع، وتنزع كل عناصر الخلاف المتوهمة بين بعض فئاته الاجتماعية. فتوهم الخلاف بين الشريعة والتصوف أو بين الشريعة والحقيقة من شأنه إثارة التوتر الاجتماعي والجدل حول خلافات متوهمة، يقول: "وفي الحقيقة إن قصد كلا الطرفين هو الوصول إلى الله بمراعاة أوامره ونواهيه، ولكن لعدم تأصيل ميزانٍ يوزن به طريق الوصول أحياناً وفق مقاييس شرعية أدى إلى الإفراط والتفريط؛ وسبب ما يبدو لنا من اختلافات في الوقت الحاضر. والحال لا سبب للاختلاف في المنشأ والأساس. وكما أن تدوين أقسام مختلفة من الدين بشكل مستقلّ والامتنال بها لا يعني اختلافاً، كذلك ليس اختلافاً قطّ اهتمام علم الفقه بأحكام العبادة والمعاملات، أي تنظيم حركات الإنسان الفكرية والعملية وتنسيقها، وكذا جهود التصوف لرفع حياة الإنسان إلى مستوى القلب والروح بسلوك تربية الروح وتصفية القلب وتزكية النفس. فلا اختلاف

ولا افتراق، بل قد تعهد كلُّ من الجانبين بالحفاظ على ناحية مهمة من الشريعة، فكلُّ من تلك النواحي بمثابة كلية من الجامعة التي تمثل الكل، والتي يتوقف تكاملها على تكامل تلك الكليات. حيث إن إحداها تعلم كيف يتعبد الإنسان وكيف يتطهر للعبادة، وكيف يقيم الصلاة وكيف يصوم وكيف يزكّي، وعلى أي أساس يستند في معاملته.. بينما الآخر -فضلاً عن هذا- يؤكّد باهتمام بالغ على علاقة جميع العبادات والطاعات والمعاملات بالقلب والروح، فيبحث عن طرق رقي الإنسان "الصورة" إلى الإنسان "السيرة" أي المعنى. ويوصي بالطرق المؤدية إلى الإنسان الكامل. وعلى هذا الأساس فلا يمكن إهمال أيٍّ من الجهتين^(١٦٦).

يرى فتح الله أن السبب الذي أدى إلى وجود هذا الخلاف هو عدم تأصيل ميزان يوزن به طريق الوصول وفق مقاييس شرعية. الأمر الذي أدّى إلى الإفراط والتفريط في الوقت الذي يكون فيه الحقلان الحقل الكبير الذي هو حقل الدين والعبودية لله تبارك وتعالى، إذ إن كل حقل قد تعهد بالحفاظ على جانب من جوانب الشريعة، فهما يكملان بعضهما البعض.

يعتبر فتح الله التصوف أكثر غورا، لأن التصوف في نظر فتح الله طريقة للعبادة تهتم بالباطن، وبالجانب الروحي للأحكام الشرعية، ولذلك فهو أكثر غورا ولدنيّة وأوسع مدى وأصعب فهما.^(١٦٧) ومن هنا يأتي استشهاده بما قام به الإمام الغزالي الذي استطاع التأليف بين التيارين، مما يدل على أهمية هذا العنصر عنده، لدرجة أنه يعتبر الغزالي مجدد عصره حيث يقول

^(١٦٦) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٢٢/١-٢٣.

^(١٦٧) انظر: التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٢٥/١.

عنه: "أتى حجة الإسلام الإمام الغزالي وألف كتابه القيم "إحياء علوم الدين" بعد أن نَقَّح طرق التصوف بجميع آدابه وأركانه واصطلاحاته، مقراً بما أقرّه المشايخ عامة ومنتقداً لما يستوجب النقد... فألف مرةً أخرى بين هذين التيارين المباركين اللذين يبدوان كأنهما مختلفان، ووفق بينهما بانسجام تام، بحيث إن كثيراً من الصوفيين الذين أتوا من بعده وجدوا علمهم لوناً من ألوان العلوم الشرعية، وبعداً من أبعادها، فانتعشت الوحدة والتعاون في كل مكان، حتى إنهم انسجموا واثتلفوا مع الذين كانوا يطلقون عليهم -إلى ذلك اليوم- اسم "علماء الرسوم" استخفافاً بهم. وخاصة لدى حملهم إلى المدرسة الفقهية توضيحات متميزة في علم التصوف، أمثال الحقائق الوجدانية والذوقية الكثيرة، كعلم الحال وعلم الخاطر وعلم اليقين وعلم الإخلاص وعلم الأخلاق. فوجدوا نقاط التقاء مشتركة كثيرة جداً توصلهم إلى الاتفاق والوفاق، سواءً في أرباب التصوف أو علماء الظاهر"^(١٦٨).

ما يهم فتح الله كولن في مقارنته لعلاقة التصوف بالشرعية، وربطه للتصوف بالحياة الروحية والمعنوية، وجعل كل ذلك في علاقة وثيقة بالشرعية، هو أن يبرز بأن النموذج البشري الذي يستطيع تحقيق الانبعاث والنهضة الذي يستطيع الارتقاء في المقامات التي تحقق الإنسان الكامل هو أن تكون حياته الروحية شيئاً حاضراً مع هذا النموذج البشري في كل وقت وحين.. بعبارة أخرى إن الأستاذ لا يريد متصوفة يعتزلون الناس وينقطعون في صوامع بعيدة عن المجتمع، بل على العكس من ذلك

^(١٦٨) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٢٤/١.

إنه يريد متصوفة ينخرطون في الحياة بين الناس بينون ويرتّبون ويصلحون ما فسد بروحانية كبيرة وبصبر على الناس وعلى الواقع ومجرياتة. فهو يريد فرساناً بقلوب متصوفة، هذا هو نموذج التصوف الذي يريد الأستاذ فتح الله الوصول إليه.

يمكن اعتبار كتاب "التلال الزمردية... نحو حياة القلب والروح" كتاباً في القيم والأخلاق بالدرجة الأولى بالمفهوم الذي عمل الأستاذ فتح الله على بلورته عملياً بدءاً من ذاته ومروراً بتلامذته الذين تربّوا في كنفه وتلقّوا منه التربية السلوكية مباشرة، وانتهاءً بعموم أفراد المجتمع الذين ألهمت أفكاره وخطبه وسيرته مشاعرهم ودفعتهم إلى حركية فعالة، هي اليوم مثار اهتمام الدارسين والباحثين في كل مكان في العالم.

لقد توقفنا وقفة طويلة عند هذه العناصر نظراً لأهميتها، ولأنها تشكل أسساً تبني عليها الرؤية التربوية التي تركز على حياة القلب. وهذا العامل فرض على الأستاذ إثارة مفهوم الصوفي وحقيقته.. وبكلام آخر حاول مناقشة خصوصيات رجل القلب. وهذه الرؤية الخاصة للتصوف وللمريد، الغرض منها هو تكوين نموذج الإنسان المثالي، أو الإنسان الكامل، إنه صوفي القرن الواحد والعشرين، نموذج الإنسان الذي يستطيع تغيير وجه العالم ويسير به نحو برّ الأمان.

فغاية التصوف هي ربط القلب بالحقّ سبحانه وتعالى، وجعل هذا القلب يكتوي بنار العشق والمحبة.. ولذلك كان الصوفيون على مر التاريخ -باستثناء بعض الانحرافات التي كانت تظهر بين الفينة والأخرى- في غاية الاستقامة ومنتهى البساطة، ومبرّأون من كل انحراف وفساد، وأبعد الناس عن الأذواق البدنية والسفاهات الجسمانية.. وقفوا أنفسهم ليمضوا

حياتهم في جوّ التسامي للتنسك والزهد والفقر، رزينون وعازمون على التشبه بالرسول الكريم ﷺ وعظماء الإسلام الأماجد^(١٦٩).

وخلاصة القول بخصوص هذا الموضوع هو أن روح التصوف الحقيقي هو تزكية النفس والارتقاء بها نحو مدارك الصفاء الروحي ونحو مقامات الإخلاص والتفاني.. إن هذه الروح هي ما يحمّس الأستاذ في التصوف، لأنه ضرورة بالنسبة لمشروعه الإصلاحية، لأن حياة الحركة والعمل النافع تحتاج إلى النموذج البشري الذي تجتمع فيه عناصر الفاعلية الواقعية من عناصر قوة القلب والروح.

ويتأكد كل ذلك عندما ننظر في العناصر التي تبني النموذج الصوفي الذي يريد الأستاذ فتح الله الوصول إليه.. فهي عناصر ومقومات أخلاقية بالدرجة الأولى. ومن يتأمل فيما سطره الأستاذ في كتاب التلال الزمردية وفي كتب أخرى سيلمس هذا البعد الأخلاقي الروحي.

خامساً: العقيدة الصحيحة تمنح التوازن

١- العقيدة والفكر الديني في رؤية الأستاذ فتح الله كولن

وإلى جانب العناصر السالفة فإن مفهوم الثقافة يتعزز بقضية العقيدة الصحيحة. وقضية العقيدة الصحيحة متصلة شديد الاتصال بالفكر الديني عند الأستاذ فتح الله كولن بصفة عامة.

لا شك أن الفكر الديني عند الأستاذ فتح الله عميق الغور، واسع الرؤية، دقيق الاتصال بالأصول إلى درجة كبيرة.. بل إن الفكر الديني

^(١٦٩) التلال الزمردية، فتح الله كولن، ٣٠/١.

بصورة عامة وليد هذه الأصول ووليد ميراث الذات الثقافي، أو هو ميراث الثقافة الذاتية كما يطلق الأستاذ فتح الله عليها.. ولهذا فإن تناول الجانب العقدي في فكر الأستاذ ينبغي ربطه في كل المراحل بخصوصية المشروع الحضاري الذي ينطلق في ضوءه الأستاذ فتح الله.

إن الأساس الذي يحرك "الخدمة" ويحرك الدعوة بصورة عامة هو الدين وأفكاره المتقدمة. ولن نبالغ إذا قلنا بأن سر ذلك هو الفهم العميق والدقيق لمقاصد الدين، بالإضافة إلى دراية بسبل ومسالك تفعيل هذا الفكر الديني واقعيًا. فالفكر الديني لا ينبغي أن يظل مجرد أفكار، ومجرد رؤى وتصورات وأفكار حبيسة في دائرة النظر، بل ينبغي أن تتحول إلى سلوك.. بل يمكن القول إن أهم ما أضافه الأستاذ فتح الله باعتباره مفكراً إصلاحياً وباعتباره رجلاً حركياً هو تمكنه من نقل الفكر الديني من المستوى النظري إلى المستوى التطبيقي. وأهم ما يتم التركيز عليه في هذا الإطار هو جانب العقيدة. وتناول الأستاذ فتح الله من هذه الزاوية يعتبر أمراً دقيقاً جداً، وموضوعاً متسعاً باتساع القضايا التي تطرق لها طيلة حياة التبليغ المستمرة منذ أكثر من خمسين سنة، ارتباطاً بمجريات الواقع وتشعب مستوياته.

فقد كانت العقيدة من أهم قضايا التي تعرض لها فتح الله في أغلب خطبه وفي محاضراته وفي كتبه نظراً لأهميتها عنده، فلا مجال للحركة دون عنصر العقيدة التي تقوم بمهمة توجيه الفعل والحركة. فالعقيدة هي التي تحافظ على توازن علاقة الإنسان بواقعه ووجوده كله، ومن السهل إدراك العوامل التي تجعل الأستاذ فتح الله يهتم بموضوع العقيدة والفكر الديني كل هذا الاهتمام، وذلك بإنعام النظر في خصوصية "حركة

الخدمة" التي تلحّ على إلغاء الأنانية الفردية والجماعية وإرجاع كل فضل وكل توفيق إلى الله تبارك وتعالى.. إذ ليس هناك أدنى مجال لمجرد الظن بأن النجاح والتوفيق هو من البشر ومن نجاعة المناهج والخطط المتبعة في تنزيل الأفكار والرؤى. والمتأمل في كتاب "القدر في ضوء الكتاب والسنة" سيدرك الأبعاد العقيدية التي تأسست عليها رؤية الأستاذ فتح الله كولن، خاصة عندما يتناول موضوع الإرادة في علاقتها بالقضاء والقدر، إذ تظهر صعوبة تناول القضية العقيدية نظرا للعوامل الآتية:

العامل الأول: هو تعدد مستويات الفكر الديني بصفة عامة عند الأستاذ فتح الله والفكر العقدي على وجه الخصوص عما ذكر سالفا.

العامل الثاني: تداخل فكر الأستاذ فتح الله وارتباطه بروح الدين، لأن منطلق أفكار الأستاذ وحلوله وتحليلاته من الإسلام. فكل مشاريع الخدمة المختومة بروح العصر والحداثة، توجهها الفكرة الدينية أو الرؤية الدينية. ولذلك فإن الفصل بين مستويات هذا الفكر مجرد فصل إجرائي أو صوري، لأن الأفكار في ظل منظومة الأستاذ فتح الله الإصلاحية لا تدرك كل مراميها إلا في دائرة مظاهر تنزيلها وتطبيقها.

العامل الثالث: حاجة الأستاذ فتح الله في كل ما كتب إلى استحضار روح العقيدة السليمة في كل ميادين الحياة، وخاصة في مجال شحذ الهمم وترغيب الناس في الفعل والعمل. ولذلك فإن العقيدة حاضره في عموم رؤية الأستاذ، بل نستطيع القول إن كل رؤية وتصور وموقف وسلوك صدر من الأستاذ متصلة بخيط ناظم هو العقيدة الصحيحة المتسامية، والتي يعاد ضبطها وتقويتها في كل وقت وحين في عالم المعنى الذي تبدو ارتباطات الأستاذ به أكثر قوة من ارتباطه بالعالم المادي.

يخبر جميع من عاشر الأستاذ أنه يعيش حالات روحانية قلّ نظيرها، تقوم على مجاهدة النفس وتصفية الروح والابتعاد بهما عن كل ما يكدر صفاءهما من هموم الدنيا والأهواء... وذلك بإلزام نفسه بضروب من العبادة لا يستطيعها الآخرون، فهو يعتبر العبادة بكل مظاهرها والإكثار منها من خلال النوعية والكمية هي مفتاح التوفيق والنجاح. فالأستاذ فتح الله كولن - كما يذكر ذلك تلامذته المقربون منه - كثيرا ما تتنابه حالات حزن شديد يخرج بعدها وقد امتلأت روحه. ودخول الأستاذ في مثل هذه الأحوال مرتبط بحالات استشعار قصوى باقتراب أزمات الواقع.

لا شك أن هذه الرياضة الروحية تحتاج إلى عقيدة قوية وإلى ضرورة تجديد معانيها في القلب والروح، فلا يقدم أمرا، ولا يوجه الناس أو ينصحهم أو يحثهم على عمل وإنجاز دون أن يكون للعقيدة أثر في ذلك، بعد أن تختمر وتنضج في معمل الروح.

٢- روح العقيدة روح الإصلاح والانبعاث

إن مشروع الأستاذ الإصلاحى يستمد قوته من حضور مقومات العقيدة السليمة في كل مراحل بنائه. وهنا مكنم التميز في فكر الأستاذ فتح الله. فما مقومات العقيدة عند الأستاذ فتح الله كولن؟ وما القضايا الأكثر إلحاحا عليه؟

الأستاذ فتح الله مسلم سنّي مأتريديّ العقيدة، لكنه عندما يتكلم في العقيدة الأشعرية تحسبه أشعريا كما يخبر بذلك بعض تلامذة الأستاذ.. فالأستاذ وإن كان ماتريدي العقيدة يعمل على بناء رؤية عقديّة تنسجم مع روح المشروع الإصلاحى الذى يتبنّاه، وهو المشروع الذى يتطلب

أن تكون قضية العقيدة فيه أمرا يسهل استيعاب العموم له، خاصة إذا استحضرننا أن الأستاذ فتح الله يخاطب عموم الناس، وإن كان يخص المقرّبين منه بمستويات خطاب عالية في الجلسات الخاصة، لكنه في مواعظه وفي الخطب المنبرية وفي المحاضرات وفي غير ذلك من المناسبات التي يكون العموم أكثر حضورا، يحرص على يكون الخطاب في مستوى إدراك العموم.

وبغض النظر عن طبيعة المنطلق العقدي للأستاذ فإنه لا يخرج عن دائرة أهل السنة والجماعة. فمنهجه في علم الكلام وفي العقيدة هو منهج أهل السنة الذي يتعد عن الخوض فيما لا يجوز في حق ذات الله تبارك وتعالى.

منهج الأستاذ فتح الله في باب العقيدة منهج متجدد يستفيد من مصادر كثيرة من بينها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الذي كان موضوع التوحيد والعقيدة من أهم ما ركز عليه في رسائله من خلال رفعه لشعار "إنقاذ الإيمان". شيد النورسي في رسائله منظومة عقديّة حية تخاطب العقل والروح، وتوظف من أجل ذلك الحقائق العلمية والكونية، بل يمكن القول بأن رسائل النور كتاب في علم الكلام جعل موضوعه الأساسي إثبات وحدانية الله وإثبات قدرته ووظف من أجل ذلك عددا كبيرا من الدلائل الوجودية وغيرها، ولا شك في أن جوانب من منهج النورسي ظاهرة في منهج الأستاذ فتح الله.

فإذا كان النورسي هو متكلم العصر الحديث - كما يذكر ذلك الدكتور محسن عبد الحميد - فإن فتح الله قد استفاد كثيرا من أفكار النورسي، لكنه طبعها بشخصيته، وصّبّها في قالب خاص يمزج بين المقاربة العقلية،

والحقيقة العلمية وضوابط الإقناع والحوار مستفيدا في ذلك من الخطاب القرآني ومنهجه في ذلك، ومسترشدا بالمنهج النبوي في إضاءة هذا الخطاب، دون أن ننسى أن انتماء الأستاذ إلى المذهب الحنفي يجعله أكثر قربا إلى استعمال الفكر والعقل في باب الاجتهاد، وذلك لأن المذهب الحنفي وخاصة في باب الفقه أكثر المذاهب الأربعة توظيفا للعقل والفكر.^(١٧٠) وإذا كان المذهب الحنفي أكثر المذاهب الأربعة توظيفا للعقل، فإن المذهب المائريدي في العقيدة يتموقع في موقع وسط بين المذهب الأشعري والمذهب الاعتزالي. وتكمن دلالة ذلك في كون الأستاذ فتح الله ميالا إلى الرؤى الفكرية التي تستطيع توحيد مختلف التصورات الفكرية في مجال العقيدة، بالإضافة إلى أن هذا التوسط يتيح لفتح الله المتكلم التوقف عند حدود الرؤية التي تقف عند حدود الفكر العقدي القديم الذي كان يضع حدودا معينة لا يجوز تجاوزها تأدبا مع الله.

كتب فتح الله الكثير في باب العقيدة، بالإضافة إلى خطبه المنبرية ومجموع فتاويه وإجاباته على مختلف الأسئلة المتعلقة بالعقيدة وبالقدر والتي جمعت في كتب، لكن لم يترجم من هذه الكتب إلى العربية سوى كتابين: الجزء الأول من سلسلة "أسئلة العصر المحيرة" وكتاب "القدر في ضوء الكتاب والسنة" .. وهناك كتب في هذا الموضوع مطبوعة باللغة التركية مثل "في ظلال الإيمان" و"البعد الميتافيزيقي للوجود" إلا أنها لم

^(١٧٠) Ismail Acar, A classical Scholar with a modern outlook: Fethllah Gülen and his legal thought, in mastering knowledge in modern times, Edited by Ismail Albayrak, copyright 2011 by dome press, pp 65 - 84: p71.

تترجم إلى العربية بعدد.. ولذلك فإن الذي نقف عليه لا يمثل سوى جزء يسير من الرؤية الكاملة لفلسفة العقيدة والقدر في رأي الأستاذ فتح الله.

٣- منهج بسط العقيدة عند الأستاذ فتح الله

إن منهج تلقين العقيدة عند الأستاذ لا يخرج عن منهج أهل السنة والجماعة كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ففتح الله المرّبي والمعلم لا يفتأ ينبّه إلى عدم الاشتغال بما لا فائدة من الخوض فيه، وخاصة القضايا ذات البعد الكلامي، بمعنى أن الأستاذ يميز بين القضايا العقيدية التي تربط الإنسان بالخالق وفائدتها في تقوية هذا الإنسان، حتى يكون كائناً يحسن معرفة الخالق من خلال كل مكونات الكون والوجود. ولذلك عندما تطرح عليه أسئلة متعلقة بذات الله أو متعلقة بأمور الغيبية يعتبر كل ذلك نوعاً من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى، يقول في أسئلة العصر المحيرة جواباً على سؤال وُجّه له عن جوهر الله وماهيته: "أجل، فنسبة ما يراه الإنسان في هذا العالم يبلغ فقط خمسة في المليون تقريباً، وكذلك نسبة ما يسمعه. فمثلاً لا يستطيع أن يسمع صوتاً اهتزازه ٤٠ تردد في الثانية. كما إذا تجاوز هذا التردد الآلاف فلن يسمع أيضاً. إذن فحاسة السمع عند الإنسان محدودة، ولا تدرك هذه الحاسة إلا نسبة صغيرة في المليون. كما أن مجال بصره وسمعه محدودان جداً. إذن كيف يستطيع هذا الإنسان المحدود في علمه وبصره وسمعه أن يتجرأ ويسأل: لماذا لا يرى الله؟ وكيف هو؟ إن طرح الإنسان مثل هذا السؤال ومحاولته نَسَب الكمية والكيفية لله تعالى أو محاولة التفكير في ذاته جرأة وتجاوز

للحد^(١٧١).

لا شك أن الجواب يحمل في طياته الكثير من الأبعاد التربوية التي تقوم على توظيف المنطق العقلي، حيث نلاحظ حرص الأستاذ على تقديم أجوبة علمية منطقية قريبة من مستوى إدراك الإنسان. وضمنيا فالأستاذ فتح الله كولن عندما يقف على مثل هذه القضايا، إنما يوجه انتباه الناس إلى أن المنهج الأسلم هو منهج السلف ومنهج أهل السنة والجماعة.

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام في تحليلات الأستاذ هو إلحاحه على الأسلوب الذي يتوجب به تناول القضايا الكبرى كقضايا العقيدة. فعلى الرغم مما نلمسه من دراية معرفية وعلم في أجوبته في مختلف الحقول المرتبطة بالإنسان وحقل العقيدة والقدر ضمنها، فإنه يبدو حذرا في كل إجاباته. وهذه ناتجة فيما نرى عن رغبته في إظهار التواضع العلمي رغم علمه الواسع. ومما هو معلوم فإن العديد من المهتمين والباحثين يجمعون على أن الأستاذ فتح الله مجتهد، بل هناك من يعتبره أحد مجتهدي القرن ومجدديه، لكنه لتواضعه يرفض اعتبار نفسه مجتهدا ومجددا. ومن يقف على فتاويه يكتشف قدرة كبيرة على استخراج الأحكام وجعلها متماشية مع روح العصر، لأن علمه يتيح له ملاحظة بعض ما وقع فيه بعض الفقهاء من مجانبة للصواب، والرد عليهم بتواضع جم.^(١٧٢)

^(١٧١) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن (ترجمة: أورشان محمد علي)، دار النيل، ط: ٢، القاهرة ٢٠٠٦م، ص: ١٧.

^(١٧٢) Ismail Acar, A classical Scholar with a modern outlook: Fethullah Gülen and his legal thought, in mastering knowledge in modern times, pp: 74-75.

٤- غاية العلم في ضوء العقيدة الصحيحة

قضية العقيدة والقضاء والقدر عند الأستاذ فتح الله كولن قضية تحفيز وشحن همم، ولا يشتغل بها لذاتها وإنما يشتغل بها من أجل إعلاء الهمة وبعث الحياة في الروح وشحنها بالطاقة التي تسعفها في التعامل مع الواقع وقضاياه بكل قوة وبكل ثقة في الله تبارك وتعالى، لأن الأصل في الإنسان - كما يتصور الأستاذ فتح الله - هو مدى همته في القيام بالواجب الذي أمره به. يقول مبرزا بتركيز كبير هذه الرؤية: "لا تظهر إنسانية الإنسان واضحة إلا عند محاولته التعلم ثم تعليم غيره وتنويره. والذي لا يحاول التعلم - مع كل جهله - ولا يفكر بذلك ولا يجدد نفسه بما تعلمه ولا يكون قدوة لغيره هو إنسان بالصورة فقط وليس بالسريرة. أما الأمور التي يجب تعلّمها ثم تعليمها للآخرين فيجب أن تكون متعلقة بكشف ماهية الإنسان وأسرار الكون. وكل علم لا يكشف أسرار النفس الإنسانية ولا ينير النقاط المظلمة في الوجود ولا يحلّ العقد المستعصية لا يعدّ علماً. إن الغاية من تعلم العلم هو اتخاذ المعرفة مرشداً وهدايا للإنسان ولتنوير الطرق التي ترقى بالإنسان نحو الكمالات الإنسانية. لذا فالعلوم التي لا تتناول الجانب الروحي للإنسان تكون عبثاً على صاحبها. وكل معرفة لا توجه الإنسان إلى الأهداف السامية ليست إلاّ عبثاً للقلب والفكر لا فائدة منها. (...). يُعد العلم الذي وضحت غايته وهدفه وسيلة بركة دائمة لصاحبه، وكنزا لا يفنى. والذين يملكون مثل هذا الكنز يكونون بمثابة نبع ماء سائغ شرابه يرده الناس طوال حياتهم وبعدها، ويكونون وسيلة خير. أما الفرضيات الجوفاء التي تلقي الشكوك والريب في القلوب،

وتعتم الأرواح والتي لا تملك أهدافا واضحة فهي كومة من المزايل التي تطير حولها الأرواح الكدرة واليائسة وتكون فخا ومصيدة للأرواح" (١٧٣).
ولا شك أن تعلم أمور العقيدة وما يلزم من أمور التوحيد، ومعرفة الخالق وشروط التأدب مع الله، كلها عناصر تدرج فيما يتوجب على الإنسان معرفته. ولذلك فإن اشتغال الإنسان بصفة عامة (١٧٤) بعلم الكلام قد لا يعود بنفع كثير، بالإضافة إلى أن هذا الأمر ليس هو مدار التكليف الإلهي للإنسان.

يهتم الأستاذ كثيرا بقضية العلم في ضوء قضية العقيدة، ولذلك دلالاته في منهجه. القائم على ضرورة محاربة أعداء الإنسان الثلاثة: "الجهل" و"الفقر" و"الفرقة".. ولا يقف الأمر عند الأستاذ عند هذه النقطة بل يتجاوز ذلك إلى بيان الأمر بالقول: "من المهم تخليص العلوم الحالية من الجمود والخمود ومن العبثية، وهذا يساعد على فهم مسألة المواضيع التي يهتم بها العلم بوضوح. كما يؤدي إلى قيام الإنسان بأداء ما يقع ضمن حصة إرادته وذهنه، ويستطيع آنذاك مشاهدة مكتسبات أحاسيسه وقلبه مشاهدة باطنية. عندئذ ينقلب المثقف إلى لسان فصيح وإلى قلب يستطيع قراءة الكون الموجود والموضوع أمامه ككتاب مفتوح سطرا سطرا. علما بأن من المستحيل تجاهل أن الكون لا يختلف عن كتاب، ولا سيما في الأوامر التكوينية، أي أوامر الخلق، حيث أن "القلم" كان أول ما خلق، لذا كان أول أمر في القرآن المنزل هو ﴿اقْرَأْ﴾" (١٧٥).

(١٧٣) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ١١-١٢.

(١٧٤) ربما يكون الاشتغال بهذه المواضيع فرض كفاية، لا ينبغي أن يشغل الناس جميعا.

(١٧٥) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ١٦.

يلح الأستاذ فتح الله كولن في هذا النص الجميل على عدة مسائل أساسية أهمها قضية العلم الحديث وما يطرحه من إشكالات في دائرة أن العلم الحقيقي هو العلم الذي ينفض عنه غبار الكسل والإهمال ويقود إلى إدراك الكون وقراءته قراءة الكتاب بغاية الاستفادة منه في تحصيل العلم الصحيح والعلم الحقيقي الذي يدل على الخالق ويزيد تعريفاً بعظمته وقدرته. فالكون من هذه الزاوية يدل - كما يرى الأستاذ فتح كولن وكما بين ذلك بديع الزمان سعيد النورسي - على الخالق ويهدي إليه، بمعنى أنه كلما زادت قابلية الإنسان لإدراك العلم الحقيقي زادت مساحة التوحيد وإدراكه لذات الله تعالى، وهذا هو ما يريد فتح الله كولن الإشارة إليه في بيانه لمفهوم ﴿أَقْرَأْ﴾ باعتباره أول ما نزل من الوحي على رسول الله ﷺ يقول: "الأمر الإلهي ﴿أَقْرَأْ﴾ (العلق: ١) أمر ودعوة ووظيفة إلهية وجهت إلى أشرف المخلوقات ﷺ الذي تجلت فيه جميع الكمالات، ومن ثم إلى البشر أجمعين. وهذا الكون المعروف أمام أنظارنا لتأمله ونفهم معناه ومحتواه، والشاهد على النظام الذي أنشأه الخالق، وعلى قدرته وعظمته وجماله... هذا الكون ليس إلا تجلياً من تجليات اللوح المحفوظ. لقد جعل الله كل شيء في هذا الكون من أحياء أو جماد - عدا الإنسان - "قلمًا" لكي يقوم كل موجود بوظيفة تسجيل ما أُودع فيه من تجليات وحكم" (١٧٦). "إذن فإن ﴿أَقْرَأْ﴾ رمز للتوحد وللتكامل وللتكميل، ورمز للمشاهدة والتقييم والرؤية إلى جانب الحدس، وتعبير لساني عن هذه المعرفة الباطنية، وهو يحمل دلالات كبيرة لنا لكونه أول أمر موجه

(١٧٦) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ١٣.

إلينا^(١٧٧).

فعدم الاشتغال بقضايا علم الكلام تبرره جملة مبررات منها أنه فوق مستوى إدراك الإنسان، ولأن الاشتغال بهذه القضايا ليس هو الغاية من خلق الإنسان، بالإضافة إلى أن الخوض فيها لا يعود بالفائدة على المجتمع والإنسان. يقول: "فمن أنت أيها الإنسان، وماذا تعلم أصلاً لكي تتجرأ وتحاول إدراك الله تعالى؟ إن الله تعالى منزّه عن الكيف والكم، وهو منزّه عن أن تحيط به مقاييسك الناقصة. فلو سافرت بسرعة الضوء ترليون سنة إلى عوالم أخرى ثم راکمت تلك العوالم بعضها على بعض لما بلغ ما شاهدته بالنسبة إليه تعالى ذرة أو هباءة"^(١٧٨).

ولا ينبغي أن نظن أن الأستاذ ينادي بضرورة ترك علم الكلام، بل إننا نتصور أنه يعتبر الاشتغال به فرض كفاية، إذا اشتغل به البعض سقط عن البعض الآخر.. لكنه ضروري للثقافة الذاتية لأنه الوسيلة التي يدافع بها عن "منظومة المعتقدات الإسلامية بالأدلة العقلية والنقلية، والحفاظ على استقامة فكر المؤمنين، ورد الشبهات والشكوك التي تثار أو يحتمل إثارتها ضد الدين، وحراسة "العقائد الإسلامية الحقة" في إطار السنة السنية إزاء بعض التيارات الفلسفية الخاطئة"^(١٧٩).

فإذا كان الغرض هو حماية الدين الذي هو أساس الميراث الثقافي فإن الاشتغال بقضايا علم الكلام يصير ضرورة، لكن شريطة البقاء في إطار الكتاب والسنة. ولا يرى الأستاذ بأساً من الانفتاح على مختلف أبواب

^(١٧٧) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ١٦.

^(١٧٨) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ١٧.

^(١٧٩) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٩٣.

العرفان شريطة ألا يدخل الفكر في قضايا ضالة، يقول: "وقد حرص قسم من المفكرين والعلماء على البقاء في إطار الكتاب والسنة ولم يسوقوا رأياً منهم في هذه المسائل، في حين أن البعض الآخر لم ير بأساً في مد البيان بالبرهان وإثرائه بالعرفان، وتوسيعه بالمحصلات الصوفية والفلسفية، بل رأوا أن الاشتغال بها على هذا الوجه خدمة للدين. صحيح أن التوسع على هذا النحو قد أدخل إلى النظام الفكري الإسلامي أفكاراً ضالة من رواسب الميراث القديم، لكن الواقع أيضاً أنه فتح أمام المسلمين آفاقاً عظيمة وواسعة"^(١٨٠).

فهو يدعو إلى الاشتغال بما يدل على الله تعالى ويشير إلى عظمته من تأمل في مخلوقاته وفي الكون وفي الذات الإنسانية نفسها، لأن كل ذلك جزء من علمه تعالى.. "وجودنا ظل من نور وجوده، وعلمنا نفحة من العلم الإلهي المحيط بكل شيء. أجل هناك في مستوى ما طريق لمعرفة الله تعالى والوصول إلى اكتساب مرتبة العرفان، ولكن هذا الطريق ليس الطريق الاعتيادي لمعرفة الأشياء، بل طريق مختلف تماماً. والذين يحاولون معرفة الله بسلوك طريق منحرف هم قسم من البؤساء الذين لم يستطيعوا التغلب على غرور النفس، ولم يعرفوا الإلهام الباطني، ولم يذوقوه. لذا تراهم يقولون: "لقد فتشتُ عن الله فلم أجده". وهذا تعبير عن ضلال كبير وقول زائف باسم العلم والفلسفة"^(١٨١).

ربط الأستاذ فتح الله علم الكلام وقضاياها بالسلوك الذي يتوجب أن ينعكس في كل عمل وفي كل مشروع، بل ينبغي أن يكون الشعار

^(١٨٠) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٩٣-٩٤.

^(١٨١) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ١٨.

المركزي في جميع المشاريع الحضارية التي أوحى بها لمحبيه فانطلقوا يحققونها بكل حماس وثقة في نجاحها، وفي كونها ستبني المستقبل بتوفيق الله. و"الخدمة" باعتبارها حركة مجتمعية نابعة من عمق حاجات المجتمع التركي على أساس كونه مجتمعاً ينتمي إلى العصر الحديث، دون أن يكون منسلخاً عن أصوله الثقافية، وتركيز الأستاذ فتح الله كولن على العنصر العقدي في الفعل والحركة وجعل ذلك محركاً للخدمة، فيه اعتراف ضماني بأن كل شيء متّصل بالله. فالتوفيق والحركة من الله وبالله.. فالله باعتباره الخالق المتحكم في كل شيء والمتصرف في الكون والوجود بكل حرية، وباعتباره المهندس الأول الذي خط خارطة الكون والوجود بكل توازن ودقة متناهية، يستطيع أن يجعل من حركة الإنسان وخدمته الخالصة لوجهه تعالى جزءاً لهذا التوازن. وكأن الخدمة باستحضارها لحقيقة التوحيد تدخل في إطار الهندسة الكبرى التي يريد خالق الوجود لوجوده السير عليها. بعبارة أخرى إن الخدمة جزء من هذا التوازن ما دامت تتحرك في ضوء العقيدة الصحيحة وفي ضوء روح الإسلام.

فالخدمة -من مقرب آخر- هي البوتقة التي يتألف فيها "الإنسان-الكائنات-الله"، لأنها تجتهد في أن تعيش روح الإسلام. وما يقصده الأستاذ بروح الإسلام ليس الحال التي يوجد عليها الإسلام في الواقع الحاضر، بل هو شيء آخر، يقول: "وإذ نقول "روح الإسلام" لا نعني حاله الذي يبدو في واقعنا الحاضر ومن زاوية نظرنا ووجهة تقويمنا له، باهتا وذاوياً وفاقداً بريقَ جاذبيته السماوية. بل بألوانه ورقوشه البراقة، وكما كانت -ولا زالت- أرواحٌ طاهرةٌ تستشعره فتتذوقه، وكما أحسّه إنسانُ عصرِ السعادة وعاشه. هذا الروح لا يزال كالبحر الذي لا تسكن أمواجه،

طاهراً أبداً، ندباً، عميقاً لا يتكدر قط بالأوساخ الفكرية لأي زمانٍ أو مكانٍ. لكنَّ الوصولَ إليه وتمامَ الاستفادة منه يتطلب تثبيتها للنية وتسددا لزاوية النظر، وعلوا في الهمة وثباتا في المثابرة، وصدقا في التوجه وثقة بالأصل الذي يتتمي إليه^(١٨٢).

لقد قدم فتح الله كولن علم التوحيد والعقيدة الإسلامية وفق نمط منسجم مع المشروع المركزي، وهو بناء الإنسان روحيا ووفق نمط يجعل من هذا الإنسان مخلوقا فاعلا في الكون والوجود، ووفق نمط تتجلى فيه حقيقة "الإنسان العبد لله" المكلف بمهمة إعمار الأرض ونشر الفضيلة. على أن الفارق بين العبادة والإعمار فارق إجرائي، وإلا فإن العبادة لا تنفصل عن الإعمار.

لا يتردد فتح الله كولن في الإجابة عن القضايا التي يراها ضرورية والتي تحتاج إلى التوضيح مخافة وقوع الناس تحت تأثير جاهلٍ يفسد من حيث يريد أن يصلح. ولذلك فهو يوظف أجوبته في إطار تربوي عندما يسأل سؤالا من مثل "لماذا تستحيل رؤية الله؟ وكيف يجب على من يطرح مثل هذه الأسئلة؟".

يؤمن الأستاذ فتح الله بأن ترك السؤال معلقا دون جواب قد يحدث بلبلة فكرية لدى السائل. ولكي يمنع ذلك يجيب إجابة عقلية منطقية تعتمد الإقناع وتراعي التبسيط حتى يتسنى لكل الفئات إدراك المراد. يقول باسطا جوابه على السؤال السالف: "الرؤية مسألة إحاطة. فمثلاً هناك جراثيم في جسم الإنسان، وقد توجد ملايين من البكتريا أسفل سنّ

^(١٨٢) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٩٨.

واحدة، وهذه البكتريا تستطيع بما أُوتيت من قابليات وإمكانيات نخر سن الإنسان وتخريبها. ولكن الإنسان لا يستطيع سماع صوتها أو ضجيجها كما لا يحس بها ولا بوجودها. كما أن هذه البكتريات لا تستطيع رؤية الإنسان ولا الإحاطة به. ولكي تستطيع الإحاطة به عليها أن تكون في موضع مستقل وخارجي عنه، وتملك في الوقت نفسه عيوناً تلسكوبية. إذن فعدم قدرتها على الإحاطة بالإنسان تمنعها من رؤيته، وهي لا تستطيع سوى رؤية ما موجود أمامها فقط. بعد هذا المثال من العالم الأصغر، لنعط مثلاً من العالم الأكبر: تخيل أنك جالس أمام تلسكوب كبير يستطيع رؤية أمكنة على بعد أربعة مليارات سنة ضوئية. ومع ذلك فمعرفةنا حول الكون وحول المكان تعد قطرة في بحر. قد نستطيع معرفة بعض النظريات غير الواضحة تمامًا حول المجال أو الساحة التي يغطيها ذلك التلسكوب وبعض المعلومات أيضًا، ونسعى انطلاقاً من هذه الفرضيات والمعلومات لنصل إلى فرضيات ومعلومات أخرى كذلك. ولكننا لا نستطيع الإحاطة الكاملة بالكون ولا بماهيته ولا بإدارته ولا بشكله العام ولا بمحتواه، لأننا مثلما لا نملك إحاطة كاملة في العالم الأصغر، كذلك لا نملك مثل هذه الإحاطة التامة في العالم الأكبر^(١٨٣).

يرسم الأستاذ فتح الله من خلال جوابه هذا معالم منهج تربوي يقوم على الإقناع بالمنطق والعقل، وعلى دعم المتلقي بكل ما يقرب الأفكار من خلال ذكر الأمثلة العقلية التي لا يختلف حولها العقلاء من الناس، بالإضافة إلى توظيف منهج المقارنة الضمنية التي تحتاج العقل والدليل

^(١٨٣) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ٢٠٠.

الملموس، ولا يعارض المنطق العلمي وقواعده.

بالتحليل العقلي الملموس يدرك كل عقل متوازن أن السؤال في حد ذاته أكبر من أن تدرك حقيقته. وبهذا تبرز أداة ناضجة من أدوات الأستاذ في تطبيق منهج عرض العقيدة وترسيخها. فلسان حاله يدعو كل واحد إلى تصور ذاته في دائرة الإحاطة الإلهية بالقول: "وأنتم... أنتم الذين تُعدون بالنسبة لهذه الأكوان أجزاء ميكروسكوبية كيف تستطيعون ادعاء إحاطتكم بالكون والمكان؟ بينما الأماكن كلها والأكوان كلها تعد أشياء ميكروسكوبية بالنسبة إلى عرشه تعالى الذي هو مجرد محل تنفيذ الإرادة والأوامر الإلهية... أليس هذا اشتغال بالعبث؟ فإذا كان الأمر هكذا فقس أنت درجة العبث في محاولة الإحاطة بالله تعالى" (١٨٤).

أشرنا سابقا إلى أن الجانب العقدي في فكر الأستاذ فتح الله مرتبط بمنهجه الدعوي بصفة عامة. وهو وسيلة دعم لرؤيته الفاعلة في الواقع. ولذلك كان هذا المنهج منفتحا على كل النماذج الإنسانية باعتبار ما فيها من خيرية. وبقدر انفتاحه يسعى بكل الوسائل الفكرية إلى منع انتشار الفكر الإلحادي والرد عليه. فإذا كان الإنسان هو العنصر المركزي الذي يحظى باهتمام الأستاذ فإنه يجتهد من أجل تحصينه. بعبارة أخرى إن الأستاذ فتح الله كولن عندما يركّز على العقيدة الصحيحة في تعامله مع الإنسان، يركز على المرامي الإصلاحية والحضارية والإنسانية التي يتطلع إلى الوصول إليها، وكأن الإنسان المهزوز العقيدة لا يمكنه السير بمشروع الأستاذ الإصلاحي نحو أهدافه ومراميه القريبة والبعيدة. ولذلك

(١٨٤) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ٢١.

نلاحظ كثرة إلحاحه على هذه الجوانب، والدليل على ذلك هو استمراره في الإلحاح على أبناء الخدمة ومتطوعيها ورجالاتها على قتل الأناثية الذاتية والجماعية. إنها فلسفة التسفير عند الأستاذ، أي "تسفير" النفس وجعلها سفراً، وليس صفراً، لأن الصاد صوت مجهور إيقاعه مرتفع لا يوحي بالتواضع.

٥- الإلحاد والسقوط

لفهم الأبعاد المتحركة في رؤية الأستاذ بخصوص العقيدة، يلزم الرجوع إلى ما قبل سقوط الدولة العثمانية. فقد كان من بين أسباب سقوطها انتشار الفكر الإلحادي والتنكر للدين. وقد وصف الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي هذه الوضعية من خلال حديثه عن المذهب الطبيعي الذي كان انتشر آنذ، وهو سبب من بين الأسباب التي جعلت الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي يعلن مشروعه الكبير "إنقاذ الإيمان". ولم تكن الفترة التي تبعت قيام الجمهورية وإعلان العلمانية بأحسن حالا في هذا الباب. لقد عاصر الأستاذ فتح الله كولن استمرار انتشار الفكر الإلحادي والفلسفات التي قدمت للشباب على أنها فلسفات تقدم الوجه الحقيقي للإنسان، فهرع الشباب إليها دون تعقل أو تدبر ودون أن يجدوا مرشدا يرشدهم.. وكأنهم قد نُوموا تنويمًا، فانتشرت أولا فلسفة فرويد تحت مصطلح "الليدو" الذي جرح مفهوم الحياء لدى الناس، ثم طغت الفلسفة الوجودية لـ"جان بول سارتر" و"كامو" فجردت حصون الحياء وجعلتها أثرا بعد عين. حتى غدا الشاب يستيقظ صباحا فيصفق للفوضوية،

وفي الظهر يقف احتراماً للنظام الماركسي اللينيني، وفي العصر يحيي الوجودية، وفي العشاء قد ينشد نشيد هتلريا. ولم يعد هناك شاب يلتفت أبداً إلى جذور روحه، ولا إلى شجرة أمته، ولا إلى ثمار هذه الشجرة.^(١٨٥)

رأى فتح الله بعينه كل هذا الفساد الروحي والتدني الأخلاقي، فسعى جاهداً يحمل سيف الكلمة والقلم والتوجيه والوعظ والإرشاد، شارحاً ومبيناً فساد هذه الفلسفات الإلحادية وأثرها الخطير وأنها لا تصلح منهجاً ينتهجه المسلم في حياته من أجل إحياء عصر نهضته.. بل لنقل إنَّ تصدّي الأستاذ فتح الله كولن للإلحاد يرجع إلى إيمانه العميق بأن هذا الوباء غريب عن التربة وعن الواقع وعن أصوله، لأن التربة التي هي هدف الأستاذ فتح الله تربة لا تحيي إلا بالتوحيد وبالإسلام. ولذلك فهو يعتبر أن أحد معوقات الانبعاث والإحياء والانطلاق من جديد هو أن يتوهم المجتمع أن عوامل النهوض تكمن بالدرجة الأولى في التنكر للثقافة الذاتية والتمسك بثقافة غريبة هي ثقافة الغرب الذي جعل من الفلسفة الإلحادية سبباً من أسباب التقدم والعصرنة، حيث يقول: "لنضع جانباً بلبله التكوينات الجديدة في العالم. نحن لا نصدق بولادة شيء جديد من الهدام الرأسمالي القديم أو أحلام الشيوعية، أو تكسيراتها الاشتراكية أو هجين الديمقراطية الاجتماعية، أو خرق الليبرالية البالية. الحقيقة أنه إن كان ثمَّ عالم مشرع الأبواب لنظام عالمي جديد، فهو عالمنا نحن، وسيتناوله الجيل القادم على أنه عصر نهضتنا نحن"^(١٨٦).

فالأستاذ في هذا المقام يعطي لموضوع الإلحاد أهمية خاصة ويوظف

^(١٨٥) انظر: أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ٢٧.

^(١٨٦) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص: ٢٨.

من أجل دحض الأفكار الإلحادية كل الوسائل العقلية والمنطقية، بل لا يتوانى عن مخاطبة الملحدين بأوصاف تبين قيمتهم في نظر المجتمع، ولا يتوانى عن بيان تدني رؤاهم بالنسبة لمستقبل الأمة والمجتمع، مرجعاً السبب المباشر للإلحاد إلى "الجهل" باعتباره آفة كبيرة تنخر كيان المجتمع، ولذلك توجب التصدي بكل الوسائل، يقول: "إن أول بيئة ينمو فيها الإلحاد هي البيئة التي يسود فيها الجهل ويغيب عنها القلب. فكتل الجماهير التي لا تتلقى تربية وتغذية روحية وقلبية ستقع -إن عاجلاً أم آجلاً- في براثن الإلحاد. وإذا لم تتدخل العناية الإلهية فإنها لن تستطيع إنقاذ نفسها. إذا لم تبذل الأمة عناية خاصة في تعليم أفرادها ضرورات الإيمان ولم تظهر الحساسية اللازمة في هذا الأمر وتركت أفرادها في ظلام الجهل، فإن هؤلاء الأفراد يكونون قد دفعوا لتقبل كل إيحاء معروض عليهم"^(١٨٧).

الإلحاد عند الأستاذ مجرد انحراف نفسي وعناد فكري مسبق ومزاح طفولي، لكن بعض الشباب لم يتمكنوا من التخلص من تأثير أفكاره التي أكل الزمن عليها وشرب، متوهمين أنها حقائق علمية وهي أبعد ما تكون عن ذلك، ومرد ذلك هو أن هؤلاء الشباب لم يتلقوا تربية روحية كافية^(١٨٨).. فالإلحاد "من الناحية الفكرية هو إنكار الله وعدم قبوله. وفي مستوى التصور هو حالة الحرية بلا حدود. أما في مستوى العمل والسلوك فيتبني الإباحية ويدافع عنها"^(١٨٩).

^(١٨٧) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص: ٣١.

^(١٨٨) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ٣٣-٣٤.

^(١٨٩) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ٣١.

ونظراً لأهمية موضوع الإلحاد نلاحظ أن الأستاذ فتح الله لا يقف عند حدود إثارة الانتباه إلى خطورته بل يذهب إلى حد تحليل أسباب انتشار وبيان العوامل التي تساعد على انتشاره في المجتمع، وهي تتلخص في عاملين:

العامل الأول، هو انهدام الحياة القلبية للإنسان. ومن هنا يفهم السبب الذي يجعل الأستاذ فتح الله كولن كثير الإلحاح على جانب الحياة القلبية وعلى الجانب الروحي في اهتمامه بالإنسان، بل إن أحد أهم الأسس التي يركز عليها الأستاذ في حركته الإصلاحية هو ضرورة تقوية الحياة القلبية للفرد والجماعة، يقول: "بما أن الإلحاد يعني الإنكار، فإن انتشاره متعلق بانهدام الحياة القلبية وسقوطها. طبعاً يمكن الإشارة إلى أسباب أخرى كذلك. الإلحاد من الناحية الفكرية هو إنكار الله وعدم قبوله. وفي مستوى التصور هو حالة الحرية بلا حدود. أما في مستوى العمل والسلوك فيتبنى الإباحية ويدافع عنها. انتشر الإلحاد فكرياً نتيجة إهمال الأجيال الشابة ونتيجة سوء التطبيق في دور العلم ومعاهده، إضافة إلى اكتسابه السرعة والقوة بتلقيه المساعدات من جهات كثيرة"^(١٩٠).

ويقول أيضاً: "إن الحوادث التي انبثقت كل منها من يد القدرة الإلهية والتي كل منها رسالة إلهية، هذه الحوادث -أو بتعبير آخر قوانين الطبيعة هذه- أصبحت في يد الإلحاد وسيلة لاستغلال الأجيال وساحة لبذر بذور الإلحاد. مع أنه سبق وأن كتب آلاف المرات في الشرق والغرب وذكر أن قوانين الطبيعة هذه ليست إلا آلية تعمل بدقة واتساق واطراد

^(١٩٠) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ٣١.

ومعملا ذا انتاج وفير. ولكن من أين أتت هذه القدرة على الإنتاج ومن أين أتى هذا النظام؟ أيمن أن تكون هذه الطبيعة الجميلة التي تسحر النفوس والأرواح مثل شعر منظم ونغم موسيقى نتيجة مصادفات عمياء؟ إن كانت الطبيعة - كما يُتهم - قوة قادرة على الإنشاء والخلق، فهل نستطيع إيضاح كيف استطاعت الطبيعة الحصول على مثل هذه القدرة؟ أنستطيع أن نقول أنها خلقت نفسها؟ أيمن تصديق مثل هذه المغالطة المرعبة؟! أما إن كان القصد من ذكر الطبيعة هو الإشارة إلى القوانين الفطرية، فهذا أيضاً خداع آخر؟ ذلك لأن القانون - بتعبير القديم - عرض من الأعراض، والعرض لا يقوم إلا بوجود الجوهر.. أي أنه إن لم يتم تصور جميع الأعضاء والقطع التي تكوّن شيئاً مركباً أو جهازاً حيويّاً ما، فلا يمكن تصور مفهوم القانون المتعلق بهذا الجهاز. وبتعبير آخر فإن القوانين قائمة بالموجودات، فقانون النمو يظهر في البذرة، وقانون الجاذبية يظهر في الكتل وفي الحيز (المكان)... الخ. إذن فإن التفكير في القوانين قبل التفكير في الموجودات والزعم بأن هذه القوانين هي منشأ الوجود ليس إلا خداعاً^(١٩١).

وأما العامل الثاني، فيكمن في فطرة الشباب. إذ إن رغبات الشباب لا تعرف الشبع. ورغباتهم في حرية مطلقة لا قيد عليها. هذه الميول الغير المتوازنة تكون قريبة من الإلحاد. "فمثل هذه النفوس تقول: من أجل درهم من اللذة العاجلة فإني أتقبل أطنانا من الألم في المستقبل، وهكذا يهيئون عاقبتهم الأليمة، وينخدعون باللذة الموهومة التي يقدمها

^(١٩١) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ٣٢.

لهم الشيطان ويقفون في شرك الإلحاد مثلما تقع الفراشات التي تحوم حول النار^(١٩٢).

إن فتح الله في إطار نظرتة إلى الشباب يقترّب من نظرة الأستاذ بديع الزمان الذي ركز على القضية نفسها ووصف للشباب الدواء الذي يحميهم من هذه المزالق. لكن وصفة الأستاذ فتح الله تبدو أكثر أهمية، لأنها لم تقف عند حدود الوصف، بل تجاوزت ذلك إلى ممارسة العلاج. ويلمس ذلك كله من خلال منهج التربية الذي حرص الأستاذ على تطبيقه منذ أن كان مشرفاً على مدرسة "كسّانة بازاري" بإزمير، حيث بدأت معالم بيوت الطلبة تتشكل وتتكون، إذ صارت هذه البيوت محضنا يفتح أبوابه للشباب ويرعاهم ويربّطهم بالخالق. الأمر الذي وقاهم من الوقوع في براثن الكفر والإلحاد وغيرها من المخاطر التي تهدد الشباب في هذا العصر المفتون.

مسك الختام

وعلى العموم فإن أفكار الأستاذ في مجال العقيدة يمكن اعتبارها مدرسة جديرة بالدرس والاهتمام. يضاف إلى ذلك أن منهج تناول العقيدة منهج يعتمد على الإقناع بالحجة العقلية والتذكير الروحي. وفي هذا الإطار نلاحظ أنه مستوعب لكل ما كتبه علماء الكلام القدامى وغيرهم، فتراه يستحضر الكثير من الأفكار الخاصة التي تحتاج إلى كفاءة علمية دقيقة وإلى قدرة كبيرة على الفهم والاستيعاب. وما أروع تمييزه بين واجب الوجود وممكن الوجود حيث يعبر أن مسلك علماء الكلام يؤدي

^(١٩٢) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ٣٥.

إلى التوحيد، لكنه يستطرد موضعا أن هناك مسلماً آخر أسهل وأقرب، حيث يقول: "والحقيقة أن علماء علم الكلام عندما حكموا عن طريق مفهوم "الدور والتسلسل" بنفي الأسباب وإسنادها إلى مسبب الأسباب أي إلى الله تعالى، ذكروا أن كل شيء "ممکن الوجود" وأن كل الأسباب والعلل تستند إلى "واجب الوجود"، ففتحوا بذلك منافذ إلى التوحيد. غير أن من الممكن الوصول إلى هذه النتيجة عن طريق أسلم. أجل! ففي كل أثر من آثار الخالق جل جلاله نرى ختمه وسكته وآيته. لذا فليس هناك دليل واحد بل آلاف الأدلة على وجوده. فمنذ بدأت العلوم بمحاولة الكشف عن أسرار الكون، كان كل علم يشير بلسانه الخاص إلى وجوده ويعلن عنه بأجلى صيغة. وهناك كتب قيمة جداً كتبت في هذا الموضوع"^(١٩٣).



الفصل الرابع:
"الخدمة" .. المفهوم النظري والإطار الفكري



المبحث الأول: حركة "الخدمة" .. إشكالية التصنيف والهوية

توطئة

ما "الخدمة"، وما طبيعتها؟ وكيف تُحدّد هويتها؟ هذه الأسئلة وغيرها كثير تُطرح دائما. ويرجع ذلك إلى عدة عوامل، نذكر منها المكانة التي تحتلها حركة "الخدمة" في عمق الواقع التركي باعتبارها فعالية إنسانية ذات جذور في المجتمع، وباعتبارها نسيجاً من مؤسسات ومنظمات فكرية وثقافية وإنسانية واجتماعية، متكاملة في أهدافها وأنشطتها ومناهجها، قدر تباعدها واستقلال بعضها عن بعض، زيادة على سمعتها الطيبة في تركيا وفي آسيا وأوروبا وأمريكا وإفريقيا.. دون أن يغيب عن الذهن أن "الخدمة" مجرد إطار نظري بدأ في يوم من الأيام وتحول بفعل ما نُفث فيه من طاقة روحية وحركية وفكرية وثقافية إلى واقع حركي متميز.. وبعبارة أخرى إن "الخدمة" مجرد فكرة تحولت إلى مشروع انبعاث حضاري يحرك أمة بكاملها ويستهوو الصديق ويشير حفيظة العدو. كل هذه العناصر تجعل من طرح أسئلة "الخدمة" أمراً ملحا، وموضوعاً جديراً بالاهتمام.

إن الأسئلة المتعلقة بماهية الخدمة وخصوصياتها وطبيعة العلاقة التي تربطها بفكر الأستاذ فتح الله كولن، قضية معرفية ذات أهمية دقيقة. والإجابة على هذه الأسئلة يفتح الباب لفهم حركة اجتماعية هي اليوم من

أهم الحركات في العالم.

أولاً: إشكالية تصنيف "الخدمة"

قضية تصنيف "الخدمة" قضية صعبة جداً. فهي بداية لا تعتبر طائفة دينية في مقابل مصطلح (Sect) في اللغة الإنجليزية الذي يعنى "الجماعة الدينية" التي تبني لنفسها ممارسات وطقوساً دينية تميزها عن غيرها، وتكون في الغالب متمحورة حول شخصية تمتص كل الاهتمام وكل عناصر النجاح. زيادة على أن الطائفة الدينية جماعة منغلقة على ذاتها وحرصة على أن يظل عالمها الداخلي مجهولاً وسرياً وغامضاً. لكن دعوة "الخدمة" أبعد ما تكون عن دائرة الطائفة الدينية، وعن الطائفية بصفة عامة، وهو الحكم الذي يُجمع عليه أغلب من درس "الخدمة" من هذه زاوية من علماء الاجتماع الغربيين، إذ يؤكدون أن حركة "الخدمة" ليست طائفة دينية (Sect)، لأن بنيتها مختلفة بصورة كلية عن خصوصيات الطوائف الدينية وخاصة الطوائف السرية.

الأدبيات التي تقدم الخدمة أدبيات مستقاة من أدبيات الأستاذ فتح الله كولن ومن تراثه الخطابي ومن التاريخ الحركي لهذا "الرجل الظاهرة" كما يعتبره العديد من المثقفين الأتراك. وأهم ما يلح عليه فتح الله كولن في هذه الأدبيات هو تأكيد الانتماء إلى عمق التقاليد الإسلامية التي استطاعت نسج إحدى أكبر حركات التغيير التي عرفتها الإنسانية على مدى تاريخها الطويل. فالمتأمل في خطاب الأستاذ فتح الإصلاح والتغيير، والمتنعم فيه سيقف على حماس عميق ورغبة واسعة، بل وعقيدة راسخة بأن التقاليد الإسلامية كما تذوقها الرسول ﷺ والصحاب الكرام رضوان الله

عليهم جميعا، ومجمل المؤمنين، قادرة على تغيير العالم كله وليس تركيا ومنطقة الأناضول والعالم الإسلامي فحسب.

لا يريد هذا التحليل إبراز شخصية الأستاذ فتح الله عنصر مركزيا في حركة "الخدمة"، فيُظنُّ بأن الخدمة وشخصية الأستاذ فتح الله هما وجهان لعملة واحدة. والحال أن الحديث ليس عن شخصية في علاقتها بجماعة مجتمعية، بل إن الأمر يتعلق بخطاب إصلاحي تغييرى انطلق منذ ما يزيد عن خمسين سنة خلت، فأحدث تغييرا جذريا في نمط تفكير فئات واسعة من المجتمع التركي ليتطور الأمر فيما بعد إلى حالة وعي حركي عم كل فئات المجتمع، أو إلى صحوة مدنية استشعرت عمق الخطاب الذي زرعه الأستاذ فتح الله كولن، فتوافق الخطاب مع آثار تقاليد دفينية في "لاوعي" المجتمع و"لاشعوره" فانطلق يحاول تحويل الصحوة إلى حركية فعالة. فهل تمكنت الخدمة من أن تبني خطابها خاصة؟

في الواقع لا يمكن الحديث في هذا المقام عن خطاب واحد، وإنما يمكن الحديث عن خطابات كثيرة شارحة أو مفسرة أو مؤولة لخطاب الأستاذ فتح الله كولن، تبعا للمجالات الإنسانية والحقول المجتمعية التي تتحرك فيها الخدمة بمختلف مؤسساتها. بعبارة أخرى لقد أسست مؤسساتُ الخدمة -كل واحدة على حدة- خطابا تفسيريا لخطاب الأستاذ فتح الله كولن، لكن بالحفاظ على الأصل في إطار تفاعل واسع مع هذا الخطاب.

قد يبدو مجال التربية بمستوييه "الفكري الفلسفي" أي فلسفة التربية، والمستوى التربوي التعليمي" المجال الحيوي الذي ركز عليه خطاب الأستاذ فتح الله كولن في بداياته الأولى. فقد كان المجال التربوي المجال

الأول الذي دشّن به نشاطه الحركي الإصلاحي، ولذلك يصعب الحديث عن خطاب خاص بالخدمة باعتبارها الإطار المفهومي الإصطلاحي الذي يرمز إلى الحركية التي تأسست انطلاقاً من خطابه.

ولذلك يتوجب على من يشتغل بقضية هوية حركة الخدمة التمييز في هذه الأسئلة بين تلك الأسئلة التي يثيرها المثقف الغربي، وتلك التي يثيرها مثقف مسلم من العالم العربي أو من أي بلد إسلامي آخر. إذ الملاحظ أن المثقف الغربي عندما يتساءل عن هوية الحركة تميل أسئلته إلى التركيز على طبيعة الحركة من جهة الطائفية ومن جهة كونها ديانة جديدة. في الوقت الذي لا يثار فيه هذا الأمر بالنسبة للمثقف المسلم لمعرفته اليقينية بأن الحركة هي إحياء لتقاليد إسلامية أصيلة، وبأن خطاب الأستاذ فتح الله يؤكد بأن الكتاب والسنة والمصادر الأخرى هي الأساس الذي يقوم عليه الفكر والحركية عنده. ثم إن قرب هذا المثقف من حقيقة الإسلام يمكنه من أن يدرك بأن خطاب الأستاذ فتح الله أبعد ما يكون عن الخطاب الطائفي أو الخطاب الذي يريد بناء دين أو عقيدة أخرى غير العقيدة الإسلامية. وهذا هو ما يبرر وقوف هذه الدراسة طويلاً عند الجانب العقدي في فكر الأستاذ فتح الله كولين وعند مصادره الإسلامية. وأما المثقف الغربي فيطرح مثل هذه الأسئلة من أجل الفهم، لأنه بعيد بصورة ما عن طبيعة المنظومة التي يركز عليها خطاب الأستاذ فتح الله كولين.

ما سنحاول القيام به في تحديد تعريف الخدمة، وبناء معالم هوية واضحة لها هو المزج بين ما قادنا إليه الفهم المتكون مما وقفنا عليه في السنوات الخمس الأخيرة بالاتصال المباشر بمؤسسات الخدمة،

وبالتواصل المعرفي مع عدد من رجال الخدمة وأطرها الذين أجابوا على مختلف الأسئلة، بالإضافة إلى النقاشات العميقة مع عدد من المهتمين بالخدمة وبفكر الأستاذ فتح الله كولن، أو من خلال التأمل فيما بين السطور؛ زيادة على عنصر مهم في التكوين وهو محاولة الانغماس في فكر الأستاذ فتح الله من خلال ما ترجم إلى العربية، إلى جانب رصد مهم من الوثائق والدراسات والبحوث عن الخدمة أنجزها باحثون ومهتمون من أوروبا وأمريكا، وهي الدراسات والبحوث التي استطاعت تفكيك مكونات الخدمة ونمط اشتغالها. الأمر الذي يسمح لنا بإنضاج رؤية خاصة وواضحة عن الخدمة وعن هويتها.

ثانياً: بذور الهوية والتاريخ

إلى أي حد نستطيع وصف حركة الخدمة بالجماعة؟ وإذا كانت كذلك فهل تنطبق معايير الجماعة ومفاهيمها عليها؟
 كثيرا ما نسمع من بعض المثقفين الذين يتابعون الشأن التركي، ممن تعرفوا على الخدمة يصفون الأستاذ فتح الله بأنه أبو الإسلام الاجتماعي في مقابل أربكان الذي يعتبر في نظر هؤلاء أبا الإسلام السياسي.
 قد يكون هذا الوصف المتعلق بالأستاذ فتح الله صحيحا، لكنه لا يمكن أن يفصح عما قدمه المجتمع المدني -وما يزال- في إطار "الخدمة". ولا شك أن مفهوم "المجتمع المدني" مفهوم ينتمي إلى تقاليد التطور الذي آلت إليه المجتمعات المعاصرة في ظل الثورة الصناعية، وفي ظل فكر الحداثة. فهو نوع من ردة فعل تجاه الإغراق في الحياة المادية، وردة فعل ضد التهميش الذي طال فئات من المجتمع الإنساني في ظل الزحف

الكبير للثورة الصناعية وخاصة في المجتمعات الأوروبية. وإذا كانت هذه الحال تنطبق إلى أبعد الحدود على المجتمع الصناعي في أوروبا، فإن الأمر يختلف جذريا عما كان يجري في تركيا وفي غيرها من المجتمعات الشرقية وخاصة المجتمعات الإسلامية. إذ رغم كل محاولات التحديث التي تلت الثورة ومحاولات تغيير نمط التفكير ومحاولة ربطه بنظام لائكي مستمد من النظام الفرنسي على الخصوص، مع الحرص على بناء نظام مناعة يحد من أيديولوجية الحداثة، وقادر على التحرك في دائرتها والتغذي على خلفياتها الفكرية.. رغم كل ذلك فقد ظل المجتمع التركي يخفي في أعماقه بذور الهوية والتاريخ، أو بالأحرى إن ظلال مقومات التاريخ والهوية الثقافية ظلت موجودة في عمق الإنسان التركي أو لنقل في عمق المجتمع بصفة عامة، بل حتى في عمق المجتمع المدني بمفهومه التركي وليس بمفهومه العلماني.. ولذلك عندما أتحت الفرصة لمقومات الهوية والمقومات التاريخية لكي تعبر عن نفسها في مظاهر حضارية لا تتعارض مع النظام اللائكي للدولة فعلت ذلك بكل قوة مستفيدة مما أضافته السلطة المعنوية للأستاذ فتح الله كولن من صدق وروحانية وهمة. وحتى في فرنسا التي تعتبر مهد النظام اللائكي كان الإحساس الديني يبرز بين الفينة والأخرى في صورة أشكال معقدة للصراع بين الكنيسة والنظام العلماني، بسعي الكنيسة وبعض رجالاتها إلى التعبير عن ضرورة إدراج التربية الدينية في المناهج الرسمية للتعليم والتربية، أي في التعليم الذي تتبناه الجمهورية الفرنسية بالمتابعة. لقد كان جزء من المجتمع المدني في فرنسا المتدثر بتقاليد الأسرة والعائلة والدين يحاول بكل قوة ألا يترك للدولة وللنظام اللائكي التفرد وحده بتربية الأجيال، بل ذهب

بعض المواقف إلى حد التشكيك في أن يكون الطفل مُلكاً للجمهورية ولنظامها التربوي، ملحة على أن الأسرة هي صاحبة الحق في هذا الطفل قبل الدولة على اعتبار الروابط الأسرية المتصلة بالدم موجودة قبل المواطنة التي تربط الناس بروابط اجتماعية فحسب.^(١٩٤) ولهذا فإن المجتمع الفرنسي ظل يقاوم النظام اللائكي انطلاقاً من تقاليد الأسرة والدين، وما يزال.

ويكاد يكون الوضع مشابهاً لما دار في تركيا، فالنظام العلماني اللائكي الذي أنتجته الثورة الكمالية (كما يطلق عليها) وجهت تركيزها إلى التربية والتعليم وإلى محتواه، مع العلم بأن الفصل بين الدين والتعليم في إطار تعليم عصري كان بدأ منذ العهد العثماني خلال مرحلة التنظيمات التي لامست قطاعات مهمة منها الجيش والإدارة وكذلك التربية والتعليم. وقبل ذلك كان نظام التعليم في عهد الدولة العثمانية موزعاً إلى ثلاثة أصناف:

الصف الأول: هو صنف التعليم الديني العتيق المعروف بـ"المدارس" (Medrese).

الصف الثاني: هو صنف التعليم الذي يدرس المنطق والحساب وعلم الفلك، وكان معروفاً بـ"المكتب" (Mektep).

الصف الثالث: ويطلق عليه مدارس القصر، ويتعلم فيه أبناء أطر الدولة من الأمراء وكبار قادة الجيش (Enderun Mektepleri).

وأهم تحول عرفته المدرسة باعتبارها الوسيلة الأولى لإحداث التغيير

⁽¹⁹⁴⁾ Missionnaires de l'islam en Asie centrale. Les écoles turque de Fethuillah Gülen: PP Bayran Bolai.

وخلق نمط تفكيري محدد هو ذلك التحول الذي وقع سنة ١٩٢٧م حين ألغيت المدارس الدينية، لتجمع المؤسسة التربوية في إطار وكالة المعارف (Maarif Vakaleti) أي ما يقابل وزارة التربية. ويعتبر قانون ٢ مارس ١٩٢٤م قانون توحيد الدراسة، قانوناً فرض توحيد النظم التربوية، فركّز على ضرورة أن تكون التربية تربية وطنية. والذي يُدرَك ضمناً من هذا القانون هو اعتبار التربية الدينية تربية غير وطنية. والحال أن تركيا في هذه المرحلة كانت تريد بناء وطن تركيا على أسس جديدة مقطوعة عن الماضي التاريخي والديني.

ثالثاً: الخدمة والمجتمع المدني

لم تخرج الحكومات المتعاقبة عن هذا الإطار ولم تتعد عنه، ولم يعمل فتح الله كولن ولا الخدمة على الوقوف في وجه هذا القانون وكل القوانين التي تسير في خطه أو تفسره، بل على العكس من ذلك لقد عملت الخدمة على تكييف حركيتها بأسلوب لا يتعارض مع التوجهات العامة لقيم النظام العلماني اللائكي ولقيم الدولة بصفة عامة، بما في ذلك قوانين التربية والتعليم. بمعنى أن الحركة قد ظلت منذ نشاطاتها الأولى تعمل على أن تكون منسجمة مع النظام القائم وعلى ألا تدخل في مواجهة معه، لذلك ظل الأستاذ فتح الله كولن منذ أنشطته الحركية الأولى حريصاً على عدم الإتيان بما قد يفسّر بأنه يريد تأسيس حركة ضد النظام العلماني القائم في تركيا. ومن هنا يُطرح السؤال الآتي، هل حركة "الخدمة" حركة مجتمع مدني؟

سعى محمد شتين (Dr. Muhammed Çetin) باعتباره أحد المهتمين

بظاهرة الخدمة من زاوية علم الاجتماع إلى أن يبين طبيعة الخدمة من خلال كون المجتمع المدني مجالاً يشمل كل تلك المنظمات والنوادي والمجتمعات الناشطة إزاء نظام الحكم: على أساس أن منظمات الحركة الاجتماعية (SMO) ليست منظمات أو مؤسسات ربحية، ولكنها مؤسسات تقوم على أساس التوافق من أجل مشاريع تقدم "خدمة" للمجتمع أفراداً وجماعات، وعلى أساس التعاون من أجل هذه الخدمة المقدمة في جو من محبة الآخرين ومبدأ الإيثار. وهي منظمات ومؤسسات تحرص على تحمل المسؤولية تجاه الآخرين والمجتمع الذي ينتمون إليه موظفة الحيز المتاح ومحترمة له. من هنا فإن الحركة تعمل على تكييف بنيتها وفق تطلعات الجماهير خدمة للمجتمع بمؤسسات وشركات خاصة تحقق تطلعات كل أفراد المجتمع بمرونة كبيرة. بمعنى أن الخدمة توظف مؤسساتها وإمكانيتها لإقامة جو يسوده التعاون ونشر المبادرة الحرة ومساندة المشاريع التربوية، والمشاريع التي تعود بالنفع على كل أفراد المجتمع.^(١٩٥)

الخدمة معروفة بمساعي إيجاد الحلول لمشاكل المجتمع في المجالات الحيوية، وتكثيف الجهد في هذا الإطار بملامسة الحاجات المشتركة بين جميع أفراد المجتمع كالتربية والتعليم.. ومن هنا تكون الخدمة عنصراً متحليلاً لجزء من المشاكل التي تواجه الدولة، بل عنصراً مساهماً في الحلول. فالخدمة هنا لا تقف على طرف النقيض مع الدولة، بل تساهم مساهمة فعالة مع الدولة في البرامج التي تهتم أفراد المجتمع،

^(١٩٥) The gulen movement, p:111-112.

لتكون من خلال ذلك العنصرَ الفعال في وضع قاطرة التنمية والنهوض على السكة. فهي حركة تصنع ما يمكن الاصطلاح عليه بالرأسمال الاجتماعي (Social Capital)، لكن دون أن تكون الخدمة بديلا عن الدولة، بل مكملا لعملها ونشاطها.^(١٩٦)

الخدمة ليس لها أي أطماع أو رغبة فيما هو سياسي، فهي تحصر نشاطها فيما يصنع سعادة المجتمع وينمي أسس الدولة على ركائز قوية على المستوى الاجتماعي والتنموي.

وهناك نقطة مهمّة جدا يتوجب التنبيه عليها وهي أن الحركة ليس فيها أعضاء ينتمون إليها كما ينتمي الأعضاء إلى الجمعيات المنغلقة على ذاتها، لأن الخدمة مجرد أفكار يقتنع بها الناس وينطلقون منحرفين فيها أحرارا في كل ما يقومون به. فالحركة تشجّع الناس على أن يظلوا منفتحين على المحافظة على علاقاتهم وعلى حياتهم الاجتماعية، بغض النظر عن طبيعة الناس الذين يتعاملون معهم.^(١٩٧)

إن الخدمة من هذه الزاوية إطار منفتح لا يضع قيودا على المتطوعين في تنزيل فلسفتها. وحتى عندما يرتكب أحدهم ما يعرقل حركية الخدمة، فإن الحديث عن نظام للعقاب يبدو أمرا صعبا لعدم وجود تراتبية تنظيمية معينة. قد يكون هذا الفرد منتميا لمؤسسة من مؤسسات الخدمة، ولتكن مدرسة، فإن المدرسة هي التي تتخذ في حقه ما يجب، ولكن في الغالب الأعم لا يمكن الحديث عن نظام للعقاب، فالمخطئ يجد نفسه خارج إطار المنظومة الفكرية ومنظومة القيم التي تحرك الخدمة. ولو لم تكن

⁽¹⁹⁶⁾ The gulen mouvement, p:114.

⁽¹⁹⁷⁾ Muhammed CETIN, Hizmet, p:109

"الخدمة" مجرد فكرة معقولة انخرط الناس في تفعيلها لما تمكنت من ذهنيتهم هذا التمكن.

رابعاً: الخدمة ليست جماعة صوفية

إن الحركة أبعد ما تكون عن الطريقة الصوفية التي تستوجب شيخاً وطريقة ومريدين وحلقات للذكر.. والأستاذ فتح الله كولن أبعد ما يكون عن ادعاء الولاية الصوفية، فهو -وكما كان الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي- حريص على ربط الناس بروح الفكر. فقد ربط الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الناس بالقرآن الكريم من خلال رسائل النور، ووجه اهتمام الناس ومحبتهم إلى رسائل النور وليس إلى شخصه، وحتى عندما مات قُدِّرَ لقبه ألا يعرف مكانه إلى اليوم. والأمر نفسه يسير عليه الأستاذ فتح الله كولن، فهو يحرص على أن يربط محبيه وعموم أفراد المجتمع التركي وعموم أفراد المجتمع الإنساني بالقيم النبيلة القائمة على البذل والعطاء وعلى المحبة وعلى الخدمة. وهي قيم متكاملة في القرآن الكريم وفي سيرة الرسول ﷺ وفي سيرة صحابته الكرام رضوان الله عليهم. ولهذا اعتُبر التاريخ وأبطاله الوسيلة الفعالة في بناء الإنسان الكامل في مشروع الأستاذ فتح الله الإصلاحي.

يرى محمد شَتِين أن الطريقة تقتضي قيام الشيخ بتعيين خلفه ووجود تراتبية ما، وهو أمر غير موجود في الخدمة. وإذا كانت الطرق الصوفية وخاصة الطرق المعروفة لها سلسلة شيوخ حتى تنتهي إلى شيخ مؤسس للطريقة، ويحفظ المریدون في الغالب أذكارا وأورادا يرددونها بإذن الشيخ، لا شيء مما ذُكر موجود في حركة الخدمة. لأن المنخرطين

من المتطوعين في الخدمة يرتبطون بالأستاذ بعلاقة احترام وتقدير. فهم يحترمون الأستاذ فتح الله لأنه عالم ورجل صدق ضحى بحياته من أجل أن يؤسس عالما واسعا يسوده التسامح والارتباط بالله، وتتفتي فيه الخلافات والصراعات، ولذلك كانت الخدمة بعيدة عن جو التكية وتقاليدها.^(١٩٨)

لم تعمل الخدمة منذ بداياتها على تمييز نفسها بأسلوب معين في العبادة ولا في اللباس. وبقي الأستاذ فتح الله يلح على ضرورة أن يظل فرسان الخدمة أفرادا من المجتمع. بمعنى أن الانخراط في الخدمة وفي العمل التطوعي لا يعني انسلاخ الناس عن المجتمع الذي ينتمون إليه، وقطع كل علاقة مع أفرادهم ومؤسساتهم. وما يؤكد هذه الأبعاد هو حرص الأستاذ فتح الله على حصر العلاقة في الأبعاد التطوعية بغض النظر عن طبيعة التوجه الفكري والعقدي للمنخرط. ولذلك وجد في طائفة العلويين على سبيل المثال من يؤمنون بأفكار الأستاذ فتح الله ويتحركون في إطار رؤيته بما يخدم مصالح الفئة الاجتماعية التي ينتمون إليها.

نظرا للإلحاح موضوع هوية الحركة على الباحثين والمهتمين، ونظرا كذلك إلى الجوانب المتعلقة بما له ارتباط بالخدمة في علاقتها بالواقع الذي تتحرك فيه، فإن قضية الهوية ملحة جدا ولا تكاد تخلو دراسة تتناول "حركة الخدمة" من وقفات تعريفية. ومرد ذلك هو إلحاح القضية على الدارسين. فالأستاذ محمد أنس أركنة الباحث المتخصص في علم الاجتماع يؤكد أن الحركة قد تمكنت من بناء شخصيتها الخاصة إذ يقول: "إن حركة فتح الله كولن شكّلت منهجها وطريقتها المستقلة في نشاطها

⁽¹⁹⁸⁾ Muhammed ÇETİN, Hizmet, 2012, p:109-110.

الديني والاجتماعي. والملامح الثقافية التي شكلتها هذه الجماعة ملامح أصيلة نابعة من نفسها مع كونها مرتبطة بالتراث^(١٩٩).

بينما في مكان سابق في هذا المبحث أن الحركة مرتبطة ارتباطا قويا بروح الإسلام. فقد عمل فتح الله على مدى سنين طويلة على ترسيخ القيم الإسلامية السامية وعلى تركية الأنفس بربطها بحقيقة الدين وصفائه الإسلامي، وعمل في الوقت نفسه على إبعاد أنظار الجماهير عن كل ما هو أيديولوجي، لأن غرضه لم يكن هو تأسيس أيديولوجية دينية أو سياسية، لأنه كان -وما يزال- يعارض بكل قوة تحويل الدين والإسلام على الخصوص إلى أيديولوجية، ولذلك يرى الأستاذ محمد أنس أركنة أنه من الخطأ النظر إلى حركة الخدمة أو دعوة الأستاذ فتح الله كولين على أنها حركة تتحرك ضمن أيديولوجية إسلامية تقليدية. يقول مبرزا موقف الأستاذ فتح الله بخصوص هذه النقطة: "لنؤكد أولا بوضوح أن حركة فتح الله كولين لا تملك بنية أيديولوجية، ولم تسع إلى تأسيس أيديولوجية دينية أو سياسية. فقد عارض تحويل الدين إلى أيديولوجية سياسية، أو تفسيره على هذا النحو. لذا كان من الخطأ النظر إلى حركته كحركة دينية تتحرك ضمن أيديولوجية إسلامية تقليدية"^(٢٠٠).

يؤكد محمد أنس أركنة أن الإسلام الأيدولوجي كان ردة فعل تجاه أيديولوجيا الاستشراق التي عملت على اعتبار "جميع الثقافات والحضارات خارج الحضارة الغربية نوعا من الوحشية والتخلف. وهذه الثقافة السياسية -التي تعودنا عليها منذ عشرين- كانت عملية تمييز

^(١٩٩) فتح الله كولين جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٤٠.

^(٢٠٠) فتح الله كولين جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٤٦.

سطحية بين الغرب و"الآخرين". وقد استند الاستشراق مدة عشرين إلى هذه الأيديولوجية في علاقتها مع أقطار العالم. إن الاستشراق ليس سوى أيديولوجية سعت منذ القرن التاسع عشر حتى الآن إلى تسهيل التوسع السياسي والعسكري والاقتصادي للغرب، وتأمين التحول الثقافي الذي يستلزمه هذا التوسع. أي إن الاستشراق كان قد عمل آثار هذا الاستعمار العالمي في جيناته، وهكذا ولدت في العالم الإسلامي الأيديولوجية الإسلامية التقليدية مقابل هذا الاستعمار والاستغلال^(٢٠١).

ومن هنا يمكن القول إن أنس أركنة يلمح إلى أن الخدمة لا تدخل في هذه الدائرة من جهة أنها ليست ردة فعل وأنها لا تنظر للغرب نظرة عدا، بالإضافة إلى بعدها الإنساني العالمي، كل ذلك يجعل الحركة بعيدة عن الأيديولوجية السياسية التي تميز حركات الإسلام السياسي. ولذلك فالأستاذ أنس يذهب إلى مَوْضعة فتح الله ورؤيته الفكرية وحركة الخدمة في إطار التحول الذي يعرفه العالم المعاصر، من خلال ما يمكن أن نطلق عليه ما بعد الأيديولوجيا الأمبريالية والاستعمار ومركزية الثقافة الغربية، أو ما بعد أيديولوجيا الاستشراق بالنسبة للعالم الإسلامي.. وذلك من خلال توجه التفكير إلى أيديولوجية أكثر إنسانية وأكثر أخلاقية وأكثر ارتباطاً بالقيم، بمعنى أن فكر الخدمة منسجم في هذا المنطلق مع ما يروج إليه في كافة المتنديات الدولية، ولذلك فالخدمة ليس لها حاجة في توظيف قيم الإسلام التي تنطلق منها في إطار أيديولوجية، يقول: "لا شك أن الوضع العالمي الحالي مختلف عن الوضع والظروف السياسية

(٢٠١) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٤٧.

التي ولدت الاستشراق وولدت الأيديولوجية الإسلامية التقليدية. فقد انفصل الوضع العالمي عن الأسس الأيديولوجية التي ارتبط بها الاستشراق الكلاسيكي، واتجه نحو وضع أكثر إنسانية وأكثر أخلاقية إلى قيم عالمية مشتركة. لذا فمن الخطأ الوقوع في خوف وقلق مما يجري حاليًا في العالم الإسلامي واعتباره نتيجة للمغالبة السياسية ثم تهديدا للعلاقات الدولية، ولاسيما حركة فتح الله كولن، لأن الآلية الأساسية في هذه الحركة هي ماهيتها الدينية والثقافية والاجتماعية البعيدة عن الصبغة السياسية والأيديولوجية. وقد بقي الأستاذ فتح الله كولن طوال حياته بعيدا عن الفعاليات السياسية وعن الأهداف السياسية، ولم يقدم الإسلام في أي وقت من الأوقات كأيديولوجية سياسية، بل رأى أن هذا الأسلوب من التبليغ والدعوة، سيلحق ضررا بالدعوة الإسلامية، وكرر شرح موقفه هذا مرارا وتكرارا سواء في خطبته للجماهير أو مقالاته^(٢٠٢).

وانطلاقا مما تقدم يمكن القول إن مشروع الخدمة ليست حركة دينية مثل الحركات الدينية الأخرى التي تنظر إلى الحداثة نظرة رفض وعدم قبول، هذا في الوقت الذي نجد فيه الأستاذ فتح الله ينظر إلى الحداثة من الزاوية الإيجابية. بل نلاحظ سعيا إلى نوع من المصالحة مع الفكر الحدائثي مع تكييفه وفق المنظومة الإسلامية التي لم يتوقف طيلة حياته على الإلحاح على ضرورتها في كل سعي إلى النهضة والانبعث وفي كل مشروع إصلاحية.

قد تبدو حركة الخدمة وخطاب الأستاذ فتح الله ميالين إلى نوع من

^(٢٠٢) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٤٧-٤٨.

حياة الزهد والتصوف، وقد كتب الأستاذ فتح الله الكثير في التصوف، لكنه في إطار الخدمة كان حريصاً على ألا يميل بها جهة أن تكون جماعة بالمعنى المعروف وألا يميل بها حتى تصير طريقة صوفية توكليية. وقد يبدو الأستاذ فتح الله في مختلف مظاهر حياته رجلاً زاهداً في الدنيا وناسكاً بسبب الخلوة التي ألزم نفسه بها^(٢٠٣)، لكنه لم يفرض مطلقاً على محبيه وتلامذته أن يكونوا مثله أو أن يعتزلوا المجتمع في زوايا وتكايا، بل على العكس من ذلك ظل دائماً يحث الناس على أن يكونوا أفراداً من الناس وأن ينخرطوا في الحياة والمجتمع ويساهموا في إصلاحه وتغييره دون أن يتكلموا عن الإصلاح والتغيير. يقول أنس أركنة: "مع وجود بعض أوجه التشابه بين الآليات الرئيسية لحركة فتح الله كولن والطرق الصوفية التقليدية في استعمال بعض المفاهيم المتعلقة بالتربية الروحية والحياة القلبية، إلا أنها تختلف عنها في مجال تشكيل حركة مدنية مؤثرة، وفي طرز التثقيف، وفي منهجية سلوكيات الحركة. إن حركة فتح الله كولن حركة مجهزة بآليات الحركات المدنية، وفيها الكثير من المفاهيم التصوفية: الفكرية منها والعملية، مثل التواضع والتضحية والإخلاص، ونذر النفس للخدمة، والتوجه نحو الحق تعالى، والعيش لإسعاد الآخرين، وتقديم الخدمات دون مقابل، والتوجه نحو الحياة الروحية المعنوية والقلبية، ولكنها لا تجعل الإنسان يتوقع على نفسه،

^(٢٠٣) نبه إلى أن الأستاذ كولن كان متوثباً كثير النشاط والحركة أثناء شبابه. أما بعد أن تقدمت سنه وشغلته الأمراض عن الحركة فقد خفف من حركته وأثر التدريس والوعظ والكتابة حيث إقامته.. أثر الخلوة بدناً، لكنه ظل جَوَّالاً متحركاً عبر أفكاره التي داعت في الآفاق.

بل يتوجه إلى الآخرين وإلى المجتمع أيضا^(٢٠٤).

يؤكد أنس أركنة أن الحركة بعيدة عن أن تكون حركة صوفية، وبالأحرى أن تكون طريقة صوفية تتمركز حول شيخها وتدخل معه في علاقة شيخ بمريده، أي أن تتلقى من شيخها كل عناصر ترقّيها من أذكار وغيرها من المظاهر التي تميز الطرق الصوفية كالتوجه "نحو العالم الداخلي الخاص والخفي للإنسان، وتحاول إضعاف علاقة سالكيها مع الشؤون الدنيوية ومع الحياة الاجتماعية ودفعهم إلى الحياة الروحية وتجاربها المختلفة وتحمل المعاناة في هذه السبيل"^(٢٠٥).

يؤكد أفراد الخدمة وخاصة النخبة من الرجال الذين تربّوا في كنف الأستاذ فتح الله كولن وتلقّوا عنه مباشرة المعرفة والسلوك، أن الأستاذ فتح الله قدوة لهم في كل أمر. وأول ما يقف عليه المتابع والباحث في حديث هؤلاء التلاميذ عن أستاذهم هو ذلك التطابق الذي يجدونه في أستاذهم بين ما يقوله وما يفعله، فقوله وفعله شيء واحد ووجهان لعملة واحدة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

يؤكد تلامذة فتح الله كولن والمقرّبون منه جميعاً وتطابق أحكامهم وأوصافهم حول مثالية تشبع أستاذهم بالقيم والأخلاق الإسلامية وزهده في الدنيا وارتباطه بالله، وتعلّقه بشخص رسول الله ﷺ، بل يؤكدون بأن تقدير الأستاذ لشخص الرسول ﷺ واحترامه وحبه له ليس له مثيل، ويتجلى ذلك في حرصه على إحياء سنّته بتطبيقها على نفسه قبل الغير.

هذه المظاهر ومظاهر أخرى عرفانية تؤكّد بأن الأستاذ فتح الله يعيش

^(٢٠٤) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٤٩-٥٠.

^(٢٠٥) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٥٠.

في أبعاد روحانية واسعة، لكن دون قطع علاقته بالواقع، فذهنه يقظ يتابع كل شيء من مجريات وأحداث، ويجهد نفسه في إيجاد حلول لها في ضوء اقتناعاته العقدية والفكرية والثقافية، وفي إطار التوازنات الدولية، وفي إطار يراعي روح العصر ولا يصطدم معه؛ بل هو حريص على أن تكون الخدمة هي التعبير الأرقى عن قدرة الإنسان المسلم على التكيف مع المحيط المحلي والعالمي في إطار إيجابي من خلال القفز على كل التناقضات التي يفرزها، والتركيز على العناصر الإيجابية والعمل على توظيف كل ذلك توظيفا سليما.

وأتصور بأن تعامله مع الحداثة ونظرتة إليها يتم من زاوية إيجابية بعد إخضاع معطياتها للمنظور الإسلامي.

خامساً: الخدمة نظام اجتماعي جديد

بناء على ما تقدم يُطرح السؤال الآتي: هل تستجيب "الخدمة" للمعايير التي يضعها علم الاجتماع لتصنيف الحركات والجماعات؟ يرى الأستاذ أنس أركنة أن طبيعة العلاقات التي تنتجها الخدمة وتتحرك في إطارها تتجاوز ما يطلق عليه ماكس ووبر (Max Weber) "وضع العلاقات الدينية والاجتماعية على أساس عقلائي". يقول متحدثنا عن طبيعة العلاقات التي تُسود حركة الخدمة: "ومن هذه الزاوية فإن العمق الديني وشعور العبودية، يحملان أهدافا اجتماعية أكثر شمولية وتكاملا. ويطلق "ماكس ووبر" على هذا الأمر -حسب المصطلحات والمفاهيم التي طورها- تعبير "وضع العلاقات الدينية والاجتماعية على أساس عقلائي". ولكن هذا التعبير لا يستطيع الإحاطة بديناميكية حركة

فتح الله كولن الاجتماعية والثقافية والعقلية إحاطة تامة^(٢٠٦).
 على هذا الأساس يتأكد أن حركة فتح الله كولن هي نظام جديد أو بنية جديدة نابعة من عمق المنطلق الفكري والعقدي الذي تنطلق منه. ولذلك فإن النموذج التفسيري الذي يفسرها ينبغي أن يكون نابعا من ذاتها، إذ ينبغي مساءلة الخدمة من الداخل باعتبارها ظاهرة وُلدت دون أن يكون للفكر والرؤية وأوجه التطبيق والتنزيل أدنى مساحة تفصل بينهما. فالخدمة هي حركية رجل جعل من عدم الفصل بين المعتقد والسلوك اليومي منهجا للإصلاح، مع اشتراك الناس في همّ الإصلاح والبعث الذي حمله بين جوانحه، بل لنقل إنه قد احتفظ لنفسه بكل الإخفاقات والصعوبات التي تواجه كل مشروع خلال مرحلة البناء وأثناء رحلة التشييد الطويلة، لكنه أشرك في الوقت نفسه الناس في النجاح، ولم يستأثر به ليصنع سلطة لنفسه ونفوذا، إدراكا منه أن النجاح لا بد أن يكون رأسمال يوحد الوطن ويوحد العالم دون أن يكون في الخطاب ما يشير إلى هذه الرؤية الموحدة. فقد ظلت الوحدة وحدة ومعنوية افتراضية تلتقي عند حقيقة واحدة هي القيم الإنسانية السامية.

يلحّ أنس أركنة على بناء معالم هوية حركة الخدمة، بتنفيذ ادعاءات علم الاجتماع الذي تأسس في ظل الفلسفة الوضعية وفي ظل التطور الصناعي، ويلح على أن ظاهرة الجماعة في تركيا وفي العالم الإسلامي لا ينبغي تفسيرها بمعطيات غربية عن الوسط الذي نشأت فيه.^(٢٠٧) وفي ضوء ذلك يناقش أنس أركنة تفسير "تونيس" الذي حلل الجماعة

^(٢٠٦) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٥٠.

^(٢٠٧) انظر: فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٦١.

والمجتمع فخلص إلى أن السلوك الإنساني ينبغي تناوله من زاويتين: الزاوية الأولى هي زاوية طبيعة الروابط التي تكون الجماعة والمجتمع. والزاوية الثانية هي زاوية كيفية تغير إرادة الإنسان في الجماعة وفي المجتمع. ورصد ثلاثة روابط تطبع الجماعة، هي صلة القرابة أي الدم، وصلة الجوار، وصلة الصداقة، وتبدو العائلة أهم مظهر يطبع الجماعة، وأهم ما كانت تتميز به هذه الروابط قبل الحداثة هو أنها كانت روابط قوية ودافئة وحميمية، وكانت قائمة على أساس من التعاون والتلاحم والترابط، وكانت تتج الأعراف والتقاليد المشتركة، "لكن كلما توسّعت المجتمعات ذات الطابع الصناعي وسيطرت على الحياة، تقلّصت أشكال الجماعات الريفية وانحلّت الواحدة بعد الأخرى وبدأت الروابط العقلية بالحلول محل الروابط والتقاليد الريفية، أي يظهر في المدينة شكل آخر من الروابط والجماعات الاجتماعية"^(٢٠٨).

تبرز الروابط العقلية في نظر تونيس علاقة متحركة في نظام الجماعة والمجتمع في ظل المجتمع الصناعي وفي ظل الحداثة، في مقابل الروابط الطبيعية أو العاطفية أو ما يطلق عليه الإرادة الطبيعية في مقابل الإرادة العقلية. ومن هنا فإن المجتمعات المدنية وليدة الإرادة العقلية للإنسانية، وهي نتيجة مباشرة للحداثة والثورة الصناعية حين "حلّت روابط عقلانية في هذه المجتمعات محل الروابط القديمة المتمثلة في التعاون والتساند. إن الأفراد في مجتمع المدينة غرباء بعضهم عن بعض، والروابط بينهم منقطعة، وبالتالي فالعلاقة بينهم ليست دافئة كما كانت

^(٢٠٨) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٦٢.

في الجماعات التقليدية في الريف، بل هي روابط ومخططة وموضوعة على أسس عقلانية. الفرد هنا موجود لنفسه فقط ومعزول عن الباقين، والعلاقات قائمة على المصالح المتقابلة، وتسند إلى المنافسة وإلى البيع والشراء، ونرى هنا نموذج الإنسان التاجر الساعي دائما وراء الكسب والربح، بدلا من الفرد والإنسان العاطفي الباحث عن الصداقة والمستعد للبذل^(٢٠٩).

ألح في إطار تناوله لمفهوم الجماعة والمجتمع على ديناميكية المجتمع وعلى ديمومته، لأن الناس يكونون جماعات عندما يكون هناك مصالح مشتركة. والرغبة في تكوين مجتمعات وخدمات وُجدت قبل الحداثة، لكن الجماعة المتكونة وفق هذا النمط فقدت هويتها. فـ"ويبر" يعتقد أن الفعالية الاجتماعية تظهر من خلال الجماعة التي تتحكم فيها الروابط العاطفية في مقابل المجتمع الذي تتحكم فيه الروابط العقلانية، ويعلق أنس أركنة على ذلك بالقول: "على الرغم من التحليلات العميقة لـ"ويبر" فقد أظهر الزمن أن ظاهرة "الجماعة" تستمر في الوجود حتى في أكثر المجتمعات حداثة وعقلانية ولكن على أشكال وصور مختلفة"^(٢١٠).

وانطلاقا مما تقدم وعلى أساسه نلاحظ بأن محمد أنس أركنة يخرج بملاحظة مركزية وهي أن الذين حللوا مظاهر الجماعة حللوها من زاويتين مختلفتين: الأولى علمية معرفية قد لا تنسحب جميع معطياتها على طبيعة الجماعة في العالم الإسلامي عموما وفي تركيا.. وأما الزاوية الثانية فهي زاوية توظف مفاهيم علم الاجتماع من منطلقات أيديولوجية أو

^(٢٠٩) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٦٤.

^(٢١٠) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٦٤.

توظف مفاهيم علم الاجتماع من أجل الترويج لقضايا ورؤى أيديولوجية تذهب على حد اعتبار الإسلام والجماعات الإسلامية خطرا يهدد الحداثة وقيمها، بل تعتبرها تيارا يسير في تيار معاكس لتيار سير الحداثة، خاصة في ظل اقتناع فكري مطلق بأن العالم يسير بخطوط حديثة نحو ترسيخ قيم الحداثة.

يقول أنس أركنة بأن العديد من علماء هذا التيار يؤمنون بأن "الإسلام أكبر خطر وأكبر عدو للمدينة الغربية. وهذا التصرف تصرف أيديولوجي تماما، فهم لا يحاولون الفهم، بل يحاولون "خلق أعداء". كما أن هذا التصرف تجديد لعملية خلق "الجهة الأخرى" أو "الطرف الآخر" المعادي الذي قام به المستشرقون في القرن التاسع عشر. ويسهل هنا فهم السبب وراء محاولة العديد من التحاليل الاجتماعية، وإصرار نجد تكوين الجماعات أمرا سابقا للحداثة، والحداثة عندهم تشكل أفضل وأنضج صفحة في التاريخ الإنساني، ولم يبلغ الإنسان وكذلك المجتمع مرتبة الكمال إلا بفضلها، وأن نموذج الدولة والمجتمع وطرز الحياة والصناعة وصلت بفضلها إلى المرحلة الأخيرة والنهائية التي يمكن للإنسان أن يصل إليها. لذا فكل حركة وكل تنظيم اجتماعي لا يتقبل هذه الحداثة فهو رجوع إلى الوراء"^(٢١١).

لا يقف أنس أركنة هنا في موقع المدافع عن الخدمة ولكنه يعمل على إبراز المعطيات التي تتيح تصنيف الحركة أو تصنيف الخدمة تصنيفا سليما ودقيقا وموضوعيا. وأكثر من ذلك يحرص على أن يكون التصنيف

^(٢١١) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٦٦-٦٧.

علميا.. وفي هذا الإطار يعمل على إثبات الصفة الدينية للخدمة، إذ يعتبرها حركة دينية، بل يعتبر الدين عنصرا أساسيا في الخدمة. وهي باعتبارها حركة معتدلة، حركة تُسقط بعض ادعاءات علم الاجتماع الذي يميل إلى القول بأن الدين يسير نحو الانحسار في ظل الحداثة وبأن تأثيره سينزوي بعيدا، بل إن علم الاجتماع يعتقد أن الدين في ظل الحداثة يعيش مرحلة الاحتضار ويعيش سنواته الأخيرة.^(٢١٢)

بنت الفلسفة نظرتها الفلسفية على أساس عقلي واعتبرت الدين جزء من الجهود البدائية للإنسانية، وروجت لفكرة أن الإنسان "عندما ينتقل إلى عهد التنوير وعهد العلم، فإن الدين سيزول حتما ويختفي، وأن الدين ليس سوى خرافة من الخرافات"^(٢١٣).

الشاهد فيما تقدم هو أن حركة الحداثة كما يتم تبنيها في المعتقدات الأيديولوجية تعتبر الدين عنصرا لا مكان له في ظل المجتمع الصناعي. لكن هذه الرؤية لا تستطيع أن تُثبت صلابتها مع نموذج حركة الخدمة، باعتبار الدين العنصر المركزي الذي ينطلق منه الأستاذ فتح الله كولن في بناء الفعالية الإنسانية في العصر الحديث دون أن يكون لهذه الفاعلية أي تصادم أو تعارض مع قيم العصر.. بعبارة أخرى إن الأستاذ فتح الله كولن عمل على تأكيد أن قيم الإسلام هي فوق قيم العصر وبإمكانها طيها ووضعها تحت جناحها.

لقد سعى الأستاذ فتح الله كولن على مدى سنوات طويلة إلى بناء حركة على أساس هوية جديدة لست هوية أزمة أو ردة فعل على أزمة

^(٢١٢) انظر: فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٧٠.

^(٢١٣) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٧٠.

العلاقة مع الحداثة، بل هوية اجتماعية ذات أهداف اجتماعية. يقول أنس أركنة: "إن الوعي الإسلامي مشترك عام فوق الجماعات والفرقاء، ولا يمكن إرجاعه إلى مصلحة جماعية معينة أو فريق بعينه. وإذا كنا نعني بالوعي عدم الاكتفاء بتدين بسيط فهذا صحيح، وهو يتماشى مع أسس الإسلام القرآن والسنة والاجتماع، وهو يشكل جوابا أو حلا لهوية المسلم التي تعرضت للتخريب بسبب الانحدار الاجتماعي - الاقتصادي، والاجتماعي - الثقافي. وهذا لا يعني بالضرورة أن يكون هذا الوعي بديلا ضد الأزمنة الاجتماعية والثقافية وإنتاج الهوية السياسية هو من وظيفة الأحزاب السياسية. ولا يمكن اختصار أهداف الدين الإسلامي على نطاق الفرد والمجتمع إلى مجرد وعي سياسي. ثم إن أبسط الأهداف الدنيوية ومثلها مرتبطة بشكل مباشر أو غير مباشر مع الحياة الأبدية ومع السعادة الأخروية. ولا يمكن للأهداف الدنيوية الضيقة والعقيمة والأهداف السياسية استيعاب أهداف الإسلام الممتدة إلى اللانهاية واحتضانها، فليس من الصحيح قراءة تصاعد الوعي الإسلامي على ضوء الأهداف الدنيوية والسياسية البحتة لأن هذا يعني هدم مثل الإسلام اللانهاية والأبدية، وهذا ما لا يقبله حتى المسلم الاعتيادي"^(٢١٤).

انطلاقا مما تقدم نستطيع القول إن الأستاذ فتح الله كولن قد عمل على بعث القيم الإسلامية الأصيلة كما عاشها الصحابة الكرام وجيل السعادة في كنف الرسول ﷺ. لكنه أثناء الحركة المرتبطة بالإنسان كانت معالم حركة جديدة تتأسس، حركة لا تستطيع مناهج علم الاجتماع ولا

^(٢١٤) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشراقاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٨٩-٩٠.

علم السياسة ولا كل نظريات العلوم الوضعية، ولا فكر الحداثة أن تفسر نظامها الداخلي وأن تخضع مكوناتها لمصطلحها وتفسيراتها، وذلك لأنها استطاعت أن تبني لنفسها نموذجها الخاص أو لنقل إنها قد أعادت بعث نموذج ناجح وجد من قبل، من خلال العودة إلى التاريخ. فصنعت الحركة نموذجها الذاتي.. ولذلك فإن السعي إلى فهم حركة الخدمة ينبغي أن يكون انطلاقاً من الداخل، أي انطلاقاً من نموذجها الداخلي الخاص. ومن ثمة فهم هوية حركة الخدمة يحتم الدخول إلى عالمها الذاتي الخاص وتحليلها وفهمها على هذا الأساس.

سادساً: نموذج حركي جديد في ظل نموذج بشري

من أهم ما يميز "الخدمة" هو أنها تمكّنت أن تبني نموذجها البشري الخاص وفق صورة طلبت في التاريخ. فالتاريخ عنصر فعال في هذا النموذج البشري. وفي مقال الأستاذ فتح الله كولن بعنوان "حركة نماذجها من ذاتها" ترجم إلى اللغة العربية (في سنة ٢٠٠٨) نلاحظ أن الأستاذ فتح الله كولن يلفت الانتباه إلى طبيعة النموذج الإنساني الذي يؤثت "الخدمة" التي استطاعت أثناء شق طريقها من أن تبني نموذجاً بشرياً في رحمها. لقد تكوّن هذا الإنسان في رحم ولادة هي رحم إسلامية منطلقاً وقلبا وقالبا، وفي رحم مرتبطة بالخالق وبالإسلام وبالقرآن والسنة وبالتاريخ. ولذلك استحققت هذه النماذج البشرية صفة "الإنسان الجديد"^(٢١٥).

يؤكد الأستاذ فتح الله على ضرورة أن يتم الاهتمام بهذه الحركة وأن يعنى بها، يقول: "إن هذه الحركة ظاهرة يجب أن تشرح ويتم الوقوف

^(٢١٥) انظر: مقال "الإنسان الجديد"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١١ (أبريل-يونيو ٢٠٠٨).

عندها بشكل جدي. فقد قررت فئة قليلة ملك الحب قلبها أن تنطلق لنيل رضاه تعالى إلى المشرق وإلى المغرب وإلى أرجاء الأرض جميعاً في وقت لم يخطر فيه هذا بخاطر أحد.. انطلقت دون أن تهتم بآلام الغربة وبفراق الأحبة، ملؤها العزم والثقة... طوت في أفئدتها بعشق خدمة الإيمان لواعج الفراق، وحب الوطن، وآلام فراق الأهل والأحبة... قليل من الناس شعروا مثلهم وعاشوا الجهاد في سبيل الله مثلهم وقالوا وهم ينتشرون في المغرب وفي المشرق مثلما قال حواريو الرسل "خضنا دروب الحب فحن مجانين..." (الشاعر نيكاري). ذهبوا وهم في ميعة الشباب يحملون آمالاً وأشواقاً دنيوية تشتعل في قلب كل شاب والتي لها جاذبية لا تقاوم، فضلاً عن هذه الفترة النضرة من مرحلة الشاب.. ذهبوا في عصر طفت فيه المادية والأحاسيس الجسمانية على المشاعر الإنسانية، وهم يكتبون تلك المشاعر والآمال المشتعلة في صدورهم باشتياق إلى وصال آخر أقوى منها وأكثر التهاباً وتوهجاً وهم ينتشرون في مشارق الأرض ومغاربها ويسيحون حاملين في أفئدتهم تلك الجذوة المشتعلة من نشوة الرعيل الأول^(٢١٦).

يثير الأستاذ الانتباه إلى تلك الحركة القوية التي نشأت في رحم الخدمة ثم انطلقت نحو الآفاق البعيدة تحمل رؤية وعمل حركة تحمل قيما إنسانية جديدة، تحمل حضارة وعمراناً، تحمل محبة تبشر بميلاد إنسان جديد. لقد كان "هدفهم المرسوم في آفاقهم سعادة الإنسانية ورضوان الله تعالى وحظوظهم كحظوظ الربانيين والصحابة"^(٢١٧).

^(٢١٦) "حركة نماذجها من ذاتها"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٤ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

^(٢١٧) "حركة نماذجها من ذاتها"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٤ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

يعتبر الأستاذ فتح الله كولن أن الخدمة فضاء يساعد الإنسان على أن يعيد اكتشاف ذاته، ويعيد اكتشاف هويته وماضيه وتاريخه، لأن هذه النماذج البشرية التي تحرك الخدمة هي نماذج لم تستعر لنفسها هوية ولم تبحث لنفسها عن قدوة في تربة غير التربة التي توجد فيها وولدت فيها، وبذلك كان هذا الجيل هو الجيل الذي ستكتشف الإنسانية بهم نفسها من جديد وستأخذ مكانها الصحيح في كيان الوجود. لذا كان هؤلاء هم الجيل المرتقب، وهم الجيل الذي تنتظره الإنسانية في كل مكان... إنهم جيل المستقبل وأبناؤه.. أيا كان تقييم الناس إياهم، فالمستقبل المنور حامل بأسرارهم" (٢١٨).

إنهم صناع الإنسان وصناع المستقبل الإنساني المشرق من جهة ما يحملونه إلى كل إنسان في هذا العالم من عناصر إيجابية يحاصرون بها العناصر السلبية، يقول الأستاذ فتح الله: "فهم يبنون القلوب الضامئة أينما حلّوا أو ارتحلوا، ويتبهون الفطر السليمة والظاهرة إلى ما وراء أستار الأشياء والحوادث، ويسقون السجايا السليمة القيم الإنسانية" (٢١٩).

إن معالم عالم جديد تلوح في الأفق وستبنى ركائزه بسواعد هؤلاء. وليس هذا فحسب فإن هذه النماذج قادرة على أن تصحح ما أفسده الإنسان، ولن نبالغ إذا قلنا إن نماذج الخدمة ستعيد توجيه الحداثة في الاتجاه الصحيح من خلال إعادة العلاقة الوثيقة بين القلب والعقل وبين القلب والعلم، "فيكون كل من الوجدان والمنطق أحدهما بعدا مختلفا للآخر، وتوضع نهاية للنزاع بين ما هو مادي وما هوي ميتافيزيقي، حيث

(٢١٨) "حركة نماذجها من ذاتها"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٤ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

(٢١٩) "حركة نماذجها من ذاتها"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٤ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

ينسحب كل منهما لساحته ويجري كل شيء في طبيعته وماهيته، ويجد إمكانية التعبير عن نفسه وعن صور جماله بلسانه، ويتم اكتشاف التداخل بين الأوامر التشريعية والأسس التكوينية من جديد، ويشعر الناس بالندم على ما جرى بينهم من خصام وعداء لا موجب له. وسيسود جوٌّ من السكينة والهدوء -الذي لم يتحقق تماما حتى الآن- في الشارع وفي السوق وفي المدرسة وفي البيت، ونصب نسائمه على جميع البشرية لن ينتهك عرض، ولن يداس على شرف، بل سيسود الاحترامُ القلوب، فلا يطمع إنسان في مال إنسان آخر، ولا ينظر نظرة خيانة إلى شرف آخر، سيصبح الأقوياء عادلين^(٢٢٠).

يظن البعض إن هذا خطاب مثالي حالم، وهو فعلا حلم الأستاذ فتح الله وحلم الخدمة، لكنه حلم أخذ في التحقق. وكل يوم يمر على الحركة هو حلقة تضاف في سلسلة الوصول إلى الهدف المرسوم دون أن تكون الخدمة حركة حاملة أو حركة طوباوية. فقد نجحت على مدى أربعين سنة، واستطاعت أن تكوّن لنفسها تراثا قويا مفعما بثقة الناس فيه. إن الرأسمال الحقيقي الذي استثمرت فيه الخدمة واستثمر فيه الأستاذ فتح الله كولين هو الإنسان المؤمن بضرورة أن يقدم لغيره ولمن في حاجة إليه منفعة عامة دون ربطها بمصلحة دنيوية أو مصلحة سياسية. النماذج البشرية التي صنعت الخدمة صنعت أهم عنصر في الخدمة وهو أن صناعة الخير وصناعة الحضارة ليس لها غاية إلا الفوز بالآخرة، ثم أنس ما صنعت من خير وأنس أنك نيست كذلك.

(٢٢٠) "حركة نماذجها من ذاتها"، فتح الله كولين، مجلة حراء، العدد: ١٤ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

وقد يُظنّ أن هذا الخطاب المثالي يبشر بإنسان مجرد من إرادته ومجرد من حريته وأنه مجرد بطل يؤثث فصول رواية خيالية، لكن هذا النموذج البشري صورة فعلية وحقيقية. فهي صورة إنسان يتحرك في الواقع، يتواجد حيث لا يخطر على بال أحد أن يصل إليه إنسان.

يقدم الأستاذ فتح الله في مقالة بعنوان "الإنسان الجديد"^(٢٢١) خصوصيات هذا الإنسان الذي صنع "الخدمة" وصنعه "الخدمة". فهو نموذج إنساني مختلف عن إنسان القرن الثامن عشر وإنسان القرن التاسع عشر الذي انجرف خلف مختلف الفانتازيات واصطدم بماضيه ومقوماته التاريخية. وهو ليس غريبا عن نفسه كإنسان القرن العشرين ولا منكرا لهويته، لأن هذا الإنسان الجديد سيكون في القرن الواحد والعشرين، صاحب الكلمة الفصل.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن هذا الإنسان الجديد الذي يتحدث عنه الأستاذ فتح الله كولن ليس حكرا على "الخدمة" ليتأكد الطابع الفكري للخدمة؛ أي إن الخدمة مجرد فكرة جرى تنزيلها في الواقع، بالنظر إلى الدور الذي قام به أبناء الخدمة في العقود الأخيرة وما يزالون من نشر لروح التسامح والحب والسلام، وأخذ الوجود وخالق الوجود بعين الاعتبار، وارتكاز العلاقات الإنسانية على المستوى الفردي والجماعي. فإن روح "الخدمة" تتحرك في اتجاه الجريان في أوصال المجتمع الإنساني حيث يقول فتح الله: "سيولد إنسان جديد كل الجدة، إنسان يفكر ويحاسب، ويوازن ويدقق، ويعتمد على التجربة قدر اعتماده على العقل،

^(٢٢١) انظر: "الإنسان الجديد"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١١ (أبريل-يونيو ٢٠٠٨).

ويثق ويؤمن بالإلهام والوجدان قدر اهتمامه بالعقل والتجربة.. إنسان يحاول دوما بروحه وبدنه الوصول إلى الأفضل، ويرغب في الوصول إلى الكمال والتكامل في كل شيء.. إنسان يسمو بالموازنة بين الدنيا والآخرة، ويوفق إلى الجمع بين عقله وقلبه فيصبح نموذجا جديدا لا مثيل له. ولا شك أن ولادة هذا الإنسان الجديد ليس بالأمر السهل، فلا بد من آلام مخاض وتوجع وأنين. ولكن حين يئس الأوان فسوف تتحقق هذه الولادة المباركة حتما، ويظهر هذا الجيل الذهبي بيننا فجأة -كالخضر عليه السلام - بوجهه النوراني الذي يشع كالبدر. فكما تنهمر الرحمة الإلهية من خلال الغيوم المتراكم بعضها فوق بعض، وكما تتفجر المياه من ينابيع الأرض، وتفتح زهرات الثلج وتنتشر في مواقع ذوبان الثلج والجليد، وكما تتلأأ قطرات الندى وتتربع على الأوراق، سيسطع نور هذا الإنسان في سماء البشرية البائسة الحزينة لا محالة، ربما اليوم أو غدا أو بعد غد^(٢٢٢).

ومن أهم مواصفات هذا الإنسان الجديد الذي بدأت مقدماته تلوح في الأفق أنه نموذج إنساني ثابت الرؤية راسخ القدم فيما يعتقد.. ليس من السهل زحزحته عن مكانه قيد أنملة أو أقل من ذلك، وفوق كل ذلك فإن "الإنسان الجديد رجل حرّ في تفكيره، حر في تصوّره، حر في إرادته، وحرّيته هذه مرتبطة بقدر عبوديته لله سبحانه وتعالى. ثم إن الإنسان الجديد لا يشبه بالآخرين ولا يتمثل بهم، بل يحاول جاهدا أن يتزيّا بهويته الذاتية ويتزيّن بمقوماته التاريخية"^(٢٢٣).

^(٢٢٢) "الإنسان الجديد"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١١ (أبريل-يونيو ٢٠٠٨).

^(٢٢٣) "الإنسان الجديد"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١١ (أبريل-يونيو ٢٠٠٨).

إن الإنسان الذي تقوم حياته على هذه المواصفات الخاصة النابعة من عمق واقعه التاريخي والاجتماعي والثقافي والديني يملك قدرة كبيرة على التفاعل الكلي والتام مع عصره ومع معطيات العصر.. ومن هنا تبدو الحداثة بالنسبة له عالما يستطيع دخوله وإعادة توجيهه وتصحيح مساره وطبعه بطابعه الخاص. ولذلك كانت الخدمة ورجالها أكثر الناس انفتاحا على ما أوجده العصر من وسائط نفسية وتكنولوجية ووسائل إعلامية متقدمة. بل يمكن القول بأن الأستاذ فتح الله كولن كان سباقا إلى توظيف الإمكانيات التي أنتجها الواقع المعاصر ووسائل النشر والإعلام ووسائل تكنولوجية حديثة، يقول الأستاذ فتح الله: "الإنسان الجديد سيقدم جميع وسائل الاتصال الحديثة، كتباً وجرائد ومجلات، وإذاعة وتلفازا ومنشورات للولوج إلى القلوب والنفوذ إلى العقول والدخول إلى الأرواح. ويثبت جدارته من خلالها مرة أخرى، بل ويسترد مكانته المسلوبة في التوازن العالمي من جديد"^(٢٢٤).

لقد أنجزت الخدمة نموذجها الإنساني انطلاقاً من سبقها الخاص كما يطلق عليها أنس أركنة، فهي لم تستعن بأية إيديولوجية داخلية أو خارجية، لقد استمدت طاقتها من قوة شخصية الأستاذ فتح الله كولن المعرفية والدعوية والعلمية، ومن خطبه الحماسية وحركته المدنية ونشاطه الاجتماعي ومن الثقافة الذاتية ومن التاريخ الذاتي.

ولا شك أن أوساط كثيرة من المجتمع التركي كانت تجد في شخصية النورسي وفي رسائله ما يجعلها مهياً لاستقبال خطاب يوظف البعد

^(٢٢٤) "الإنسان الجديد"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١١ (أبريل-يونيو ٢٠٠٨).

الروحي لرسائل النور بمنهج جديد وبروح جديدة، إذ لم يكن الأستاذ فتح الله كولن بما أوتي من ذكاء وحصانة رأي وحكمة وعلم وبعده نظر وروحانية أن يقف عند الشعار الذي رفعه الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي وهو "إنقاذ الإيمان". لقد كان عليه أن يتقدم بهذه القيمة السامية خطوات إلى الأمام حتى يجعل منها رأسمال حقيقي يغير وجه الواقع وينطلق نحو المستقبل. لم تكن مساهمة رسائل النور في صناعة الخدمة لنسقتها الخاص مساهمة عضوية، بل كانت مساهمة روحية ومعنوية وفكرية.^(٢٢٥) لقد كانت الحركة في حاجة إلى روح فذة ذات خصوصية كبيرة تستطيع فهم الأسس بروح قابلة لأن تتوجه إلى روح الحضارة.^(٢٢٦)

سابعاً: حركة الخدمة وحركة النور

كثيراً ما توصف حركة الخدمة على أنها امتداد لحركة النور أو لنقل لجماعة النور التي تأسست حول رسائل النور، وحول أفكار الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. وهنا يُطرح السؤال "إلى أي حد يمكن اعتبار الأستاذ فتح الله كولن تلميذاً للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، واعتبار حركة الخدمة تفسيراً لرسائل النور وتأويلاً لأفكار بديع الزمان سعيد النورسي؟".

علماً بأن الأستاذ فتح الله كولن لم يلتق بالأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ولم تربطه بالتنظيمات التي تكونت بعد وفاته على يد كبار تلاميذه.

^(٢٢٥) انظر: فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٩٤.

^(٢٢٦) انظر: فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٩٤.

إن الأستاذ فتح الله كولن مؤمن بفكرة الاجتماع حول مائدة الإيمان من خلال رسائل النور، لكنه عمل على بناء منهجه التربوي الخاص، وسهر على تطويره وفق الآمال التي كان يطمح إليها. والدليل على ذلك هو الرعيل الذي تربى في كنفه، والرجال الذين عبروا معه ساحل التجربة، وهم اليوم من أعمدة الخدمة وأطرها الذين يسهرون على تطبيق منهج الأستاذ الحركي والتربوي، ويسهرون على تطوير المنهج والتفكير مع الأستاذ فتح الله وفي تكييف هذا المنهج وفق معطيات الواقع الزمانية والمكانية.

لقد استطاع الأستاذ فتح الله كولن من خلال فكرة الخدمة التغلغل في عمق المجتمع دون أن يكون للحواجز الطبقية والفكرية والأيدولوجية والسياسية أي تأثير، أو أن تكون حائلا يمنع الناس من الاقتناع برؤيته. ولذلك فالخدمة اليوم مزيج من الناس والرؤى تلتقي عند فكرة الخدمة وروحها، "فكتل الجماهير التي تستند إليها حركة فتح الله كولن ليست طبقة معزولة -سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا- عن المجتمع، بل تكتسب التأييد والعون من الفئات والجماهير المختلفة الريفية منها أو الحضرية. إن قاعدتها الجماهيرية متكونة من الطبقات الدنيا والوسطى والغنية في الريف وفي المدن. أما جهاز الحركة فيسير من قبل أفراد متعلمين ومثقفين قد تخرجوا من الجامعات الراقية في المدن المختلفة. ولا تتصرف هذه الفئات المختلفة للحركة بدافع من مشاعر العزلة عن القيم الاجتماعية والسياسة المركزية للبلد، ولا تحمل أي ضغينة أو حقد للطبقة المنتجة التي تدبر البلد، ولا للأوساط الاجتماعية والاقتصادية

الحاملة للقيم الغربية"^(٢٢٧).

وبالاتصال بهذه القضية -أي قضية بناء الخدمة لنموذجها الخاص- تثار قضية الإمكانيات المادية التي تتوفر عليها الخدمة، والتي اعتبرت مدخلا لاتهام الأستاذ فتح الله والخدمة بكونهما يتلقيان الدعم من جهات خارجية نافذة وقوية. وهو الشيء الذي ما توقف الأستاذ فتح الله كولن على تكذيبه وعلى بيان أن من أسباب نجاح الخدمة في نشر أفكارها وتمكنها من الانتشار في العالم كله هو ابتعادها عن أن تكون أداة في يد جهة ما رسمية أو مستقلة محلية أو عالمية.

أما اعتماد الحركة على إمكانياتها الخاصة، فقد استطاعت على مدى خمسين سنة من أن تبني لنفسها سلطة مادية مستقلة. والمصدر الأول لأعبائها المادية هو كتل الجماهير التي آمنت بفكر الخدمة، وتأكدت بأن ما تتطوع به من جهد مادي أو معنوي يوجه التوجيه السليم الذي يعود بالنفع على الوطن وأهله. فالإنسان التركي والمنخرط في الخدمة ينفق بسخاء بكل حب ورضى وإخلاص، لأنه يعلم بأن لا شيء يذهب إلى جيب الأستاذ فتح الله كولن، ولا إلى جيوب المقربين منه. إذ من المعروف أن أيا من مؤسسات الخدمة سواء التربوية منها والإعلامية والاقتصادية والثقافية، لا تربطها بشخص الأستاذ أي رابط عضوي، بل هي مؤسسات مستقلة عنه، ومستقلة بعضها عن بعض.. بعبارة أخرى لقد أوجدت الخدمة نظاما مؤسساتيا يتحرك بعيدا عن الأشخاص، فالشخص يأتي ويذهب لكن عمل المؤسسة نفسها يبقى مستمرا.

^(٢٢٧) فتح الله كولن جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنة، ص: ٩٧-٩٨.

يمكن إدراك هذه الأبعاد من خلال عملية التغيير لأطر الخدمة المستمر، فلا أحد يستمر طويلا في مهمة من المهام، وذلك من خلال مفهوم الهجرة التي اكتست في ظل فكر الأستاذ فتح الله كولن بعدا آخر جديدا ومتجددا باستمرار.

ومما لا شك فيه أن الواقع التركي المتأثر إلى حد بعيد بالظروف التاريخية التي أحاطت به والمتأثر بالتحويلات القوية التي عرفها المجتمع، قد ساهم إلى حد بعيد في تكوين أنماط من الجماعات والحركات السياسية والدينية. حيث تبرز بعض الحركات الدينية التي يعتبرها المهتمون ردة فعل ضد التحويلات المجتمعية والسياسية.. الأمر الذي يسمح بالقول إنها متطابقة إلى حد بعيد مع توجهات نظريات علم الاجتماع العملية منها والأيدولوجية، لكن حركة الخدمة أو جماعة الخدمة - كما يسميها علي بُولَاج - ليست كذلك،^(٢٢٨) يقول عن جماعة الأستاذ فتح الله كولن "هي جماعة تعتمد في مرجعيتها على الفكر والقائد معا، أهم ما تتميز به هذه أنها اجتماعية مننظمة، لديها استعداد للانفتاح على العالم. ليست طريقة صوفية، فغالبا ما يتم الخلط بين الجماعة والطريقة، وقائد الجماعة لذلك ليس بشيخ. إن النمط التنظيمي للجماعات تاريخي. ومن ثم فإن الظاهرة الجماعية التي تشكّلت على ضوء رؤى فتح الله كولن وأفكاره واحتوت على عدد كبير من التجار والصناعيين وأرباب الحرف لهو أعظم ميراث ورثه من التاريخ"^(٢٢٩).

^(٢٢٨) الدين في تركيا، والتغيرات الاجتماعية وفتح الله كولن، علي بولاج، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩، ص: ٢٨٤-٢٩٤.

^(٢٢٩) الدين في تركيا، والتغيرات الاجتماعية وفتح الله كولن، علي بولاج، مؤتمر مستقبل

يركز علي بولاج على ثلاث ملاحظات تميز فكر فتح الله كولن وتطبع الخدمة:

• **الملاحظة الأولى** هي أنه شديد التشبث بالقرآن والسنة. وهو يوظف خطابا ولغة أصيلة وقوية وراقية وليس علمانية كتلك التي توظف في كليات الالهيات في تركيا. فهي لغة الإسلام - كما يقول علي بولاج - أي أن الإسلام في عمقه لا يمكن تقديمه إلا بلغة مثل لغة الأستاذ فتح الله كولن.

• **الملاحظة الثانية** هي أنها معروفة بتشبهها بالتقاليد والعادات، في وقت لا تترك فيه التطور والتقدم بل تعتبر ذلك أمرا صحيا وضروريا. فهي حركة إحيائية كما يقول علي بولاج.

• **الملاحظة الثالثة** في نظر علي بولاج هي أن الأستاذ فتح الله كولن لم يقم بإصلاحات في صميم الدين، بل هو متشبث بالأصول الإسلامية، وبالأحكام والأفكار الأبدية العالمية، ولذلك فهو "يعارض القراءة التاريخية للقرآن الكريم والهرمينوطيقا"^(٢٢٠).

وإذا كان علي بولاج يرى أن الأستاذ فتح الله لم يقم بإصلاحات في جوهر الدين لأنه متصل شديد الاتصال بالأصول ويعتبرها أصلا قويا في كل إصلاح وتغيير حقيقي، فإن هذا لا يعني بأن الأستاذ فتح الله كولن ليس مجددا. فلقد جدد في الروح التي يقدم بها القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة. هذا هو ما يؤكد الذين بحثوا في شخصية الأستاذ فتح

الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩، ص: ٢٩١.
^(٢٢٠) نظرة عامة على الحركات الإسلامية في تركيا وتجربة كولن، محمد أنس أركنه، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ٢٩٤-٣١٤.

الله كولن المفسر، وفي شخصية الأستاذ فتح الله المحدث. فهو ينهج منهج التوفيق بين العديد من الآراء التفسيرية، خاصة فيما يتعلق بالآيات التي تحتاج إلى تأمل كبير دون أن يكون ذلك مانعا لأن تكون له رؤى تفسيرية خاصة. فقد انتقد آراء المعتزلة وعارض آراء الخوارج من خلال تقديم ما يراه ضروريا من ملاحظات بخصوص بعض الآيات وخاصة تلك الآيات المتعلقة بالذات الإلهية والحساب وغيرها.^(٢٣) الشاهد عندنا أن الأستاذ فتح الله كولن مجدد جدد في الروح، وجدد في منهج تنزيل أسس الإسلام بما يتلاءم وظروف العصر الحديث.

ثامناً: إضافات نوعيّة في العمل الدعوي

يرى أنس أركنة أن الإضافات التي أضافها الأستاذ فتح الله كولن في فهمه للإسلام والدعوة هو أهم ما يميز حركة الخدمة باعتبارها جماعة تختلف في فلسفتها وفي منهجها عن باقي الحركات والجماعات. ونذكر بعض الإضافات فيما يلي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر داعين الباحثين للحفر والتنقيب في هذا المجال الواسع الرحب.

١-البذل والإنفاق

فلقد جاء الأستاذ فتح بعمق آخر لمفهوم الزكاة والإنفاق، فالزكاة

^(٢٣) انظر:

Ismail Albayrak. Fethullah Gülen's Approach to Qur'anic Exegesis, in, Mastering Knowledge in Modern times, Fethullah Gülen As an Islamic Scholar, pp: 42-47.

كما يرى الأستاذ فتح الله كولن في حدود ما نص عليه الشرع هي "الحد الأدنى من الإنفاق"، ولذلك فإن تفسيره لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِزَكَاةٍ فَاعِلُونَ﴾ (المؤمنون: ٤) تفهم على أنها فتح لباب الإنفاق على نطاق واسع، وفي إطار ما يطلق عليه أنس أركنة "الفداء" الذي يعني العطاء دون حدود كما كان حال الرعيل الأول في العهد المكي. فحدود الإنفاق مفتوحة، وهذا العنصر من أهم ما أضافه الأستاذ لمفهوم الجماعة، إذ ارتبط الفعل الحركي عند عدد واسع من الناس بالإنفاق.

٢- هيئة المتولي

ارتباطا بالنقطة السابقة أوجدت الخدمة عنصرا آخر له أهمية دقيقة وهو "هيئة المتولي"، أو "مؤسسة المتولي" التي كونت العمود الفقري للخدمة. تحمّلت هذه المؤسسة مسؤولية إنشاء شركات مستقلة عن الأفراد وتمتعت بالمسؤولية المعنوية وفق أسس مستلهمة من نظام الوقف. لكنها أكثر تنظيما من نظام الوقف وأكثر اتساعاً في نشاطها،^(٢٣٢) بل إن هذه الشركات قد تحولت بفضل مؤسسة المتولي إلى مؤسسات عالمية يُنهَج في تدبير شؤونها أكثر المناهج والأفكار تطورا في مجال الاقتصاد والتدبير. وتمثل هذه المؤسسات اليوم الواجهة الاقتصادية القوية للخدمة وهي تتحرك دون أي ارتباط عضوي يربطها بالأشخاص بما في ذلك الأستاذ فتح الله كولن نفسه.

^(٢٣٢) نظرة عامة على الحركات الإسلامية في تركيا وتجربة كولن، محمد أنس أركنة، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ٢٩٤-٣١٤.

٣- الاهتمام بالتربية والتعليم

ولعل أهم إضافة أضافها الأستاذ فتح الله كولن هو تلك الروح التي زرعها في التعليم وفي نظام التربية. فقد ألح على ضرورة توجيه الناس وتوجيه الخدمة إلى الاهتمام بالتعليم واعتبار ذلك اختيارا إستراتيجيا. وقد نجح الأستاذ فتح الله كولن والخدمة في ابتكار أنماط جديدة للرفع من مستوى جودة التعليم والتربية وتكوين الأجيال، بينما كانت القطاعات الإسلامية بصفة خاصة أبعد القطاعات عن التعليم حيث كانوا يرونه مجالا دنيويا تشتغل به الدولة.

ظل الأستاذ يوصي بالتعليم ويحرص على إبراز أهميته، حتى صارت كل الاتجاهات الفكرية بما في ذلك الاتجاهات الإسلامية وغير الإسلامية تتطلع إلى فتح المدارس وتنافس في ذلك. لقد جعل فتح الله كولن من التربية والتعليم هاجس كل أسرة تركية، لأنه ظل يلح في كل دروسه ومواعظه على أهمية هذا الموضوع وخطورته. لقد أعاد الأستاذ فتح الله صياغة المدرسة والمعلم والتعليم والعائلة كأسرة واحدة، وصاغ هذا النموذج في المعاهد التي أسسها، منتجا فلسفة تعليم تتداخل فيها المدرسة والأسرة، وفقا لنموذج وفلسفة تعليم وتنشئة إنسان يتحمل كل أنواع توضيحات سلك التدريس. هذا النموذج ربي عددا كبيرا من كوادر المدرسين الذين يخدمون ويمارسون التعليم بإخلاص في كل مكان في العالم.

٤- القطاعات المهنية

ومن الإضافات الأخرى التي أضافها الأستاذ فتح الله لمفهوم الخدمة تنظيمه لقطاعات المهنيين، وهو القطاع الذي يعتبره أنس أركنة أكثر مجالات الخدمة توفيقا، وأكثر المجالات توفيقا لدى الأستاذ.. لقد أعاد الأستاذ فتح الله تنظيم هذه القطاعات وأعاد توجيهها في الاتجاه الأفضل بعد أن انحرفت عن الأهداف والقيم التي كانت تقوم بها في القديم من خلال ما كان يعرف بتعاونيات الفتوة وجمعيات الأخوة باعتبارها مسلكا صوفيا يقوم على قيم دينية سامية مثل الفداء والتكافل والصدق والعطاء دون انتظار البديل، وعلى التواضع والإيثار.

كل هذه القيم النبيلة عمل الأستاذ فتح الله كوطن على إحيائها في أوساط المهنيين ودفعهم إلى تنظيم أنفسهم، ولعل أهم شيء يميز هذه القطاعات المهنية وأهم إضافة ميزت الخدمة هي تمكنها من امتصاص كل الاختلافات الفكرية والأيدولوجية والمذهبية والدينية في مجتمع حمل السلاح وأراق الدم من أجل اختلافاته وحزيبته سنين طويلة. لقد نجحت حركة الخدمة في أن توحد المجتمع التركي حول الجوانب المشتركة، وأن تقيم جوا من التعاون والتكامل بين جميع فئات المجتمع.





المبحث الثاني: التربية والتعليم مجال الخدمة الحيوي

أولاً: التربية والتعليم من المهد إلى اللحد

الأسس التي يقوم عليها مشروع الأستاذ فتح الله كثيرة ومتعددة، ولكن التربية والتعليم هما المرتكزان المحوريان في رؤية فتح الله الشمولية. فهو عندما يتحدث عن التربية والتعليم يستحضر فكر بديع الزمان سعيد النورسي الذي يذكر بأن الأعداء المعنويين للإنسان هم: الجهل والفقر والفرقة، وبأن لكل مرض من هذه الأمراض علاج، فالفقر يعالج بحث الناس على ممارسة التجارة والعمل والكسب الحلال والاجتهاد. وأما الفرقة فيتغلب عليها بالحوار، وبث ثقافة التسامح، وحسن إنصات الأطراف بعضها لبعض، والاقتناع بأن هناك دائماً حيزاً للالتقاء والتفاهم، ومجالاً مشتركاً في الرؤى والأفكار يمكن الاشتغال حوله وعليه. وأما الجهل فيداوى بالتربية والعلم والمعرفة، على أساس أن التربية والتعليم هي المكون الذي يسبق جميع المكونات الأخرى.

حافظ فتح الله على الترتيب نفسه عندما كان يؤسس فكر الحركة والعمل، ولذلك جعل من محاربة الجهل المنطلق الأول لكل عملية بناء وتشديد. ومن يتبع خطواته في محافظة "إزمير" على الخصوص سيلاحظ كيف كان حريصاً على تأسيس ضوابط تربوية وقواعد تكوينية، تستهدف

إيجاد جيل من الرجال حملة المشروع وحملة الأمل في المستقبل.. رجال مرتكزين على التزكية الروحية وإشباع العقل والفكر، مجهزين بكل ما يحتاج إليه من زاد يمنح المناعة والقوة. ولكي يكون هؤلاء الرجال في مستوى طموحاته كان لا بد من أن يشحنهم بروحانية مرحلة تاريخية بعينها هي مرحلة عصر السعادة. لقد رسخ في روح فتح الله وعقله أن الذين سيحملون مشروع البحث والإحياء هم نماذج إنسانية تشبه الصحابة رضوان الله عليهم جميعا.

وما تميز به الأستاذ وكان سببا في تحقق حلمه هو أنه لم ينغزل في برج عال ينتظر ويحلم وحده، بل قرن النظرية بالتجريب والتطبيق، ولا شك في أن هذا النظام الذي تأسس على مدى خمسين سنة لم يكن ليصل إلى ما هو عليه الآن من النضج والانسجام لو لم يكن الأستاذ نفسه قدوة لهؤلاء الرجال في التفاني والتضحية وفي استحضار السنة النبوية في شخصه وسعي حثيث لتجسيد أخلاق القرآن في شخصه.

لا شك في أن رؤية الأستاذ فتح الله في تفعيل رؤية بديع الزمان سعيد النورسي قد عرف الكثير من التحولات وإعادة النظر في بعض عناصرها المطبقة، خاصة إذا تم استحضار التحولات التاريخية والسياسية والاجتماعية التي مرت بها تركيا في القرن الماضي. لكن مشروع إيجاد منظومة تستطيع تجاوز الجهل ظلت تتحرك دون أن تتوقف، إذ لا يجوز الظن بأن مؤسسة التربية والتعليم عند الأستاذ قد وُلدت ناضجة مكتملة منذ البداية.

وبعبارة أخرى إن نظام محاربة الجهل في منهج فتح الله الإصلاحية، قد مر بالكثير من مراحل التجريب والتعديل قبل أن يستقيم وفق الصورة

التي هو عليها اليوم، والتي تتيح للدارس وصفها بالمشروع المتكامل والناضج.

إن تركيز فتح الله على التعليم والتربية يأتي من اقتناع فكري ومنهجي هو استحالة تصور النهضة والبناء والتأسيس دون إصلاح منظومة التربية والتعليم. ولذلك يبدو الأستاذ فتح الله متشبعًا بشعار "طلب العلم من المهد إلى اللحد"، بل إن الإنسان بالنسبة للأستاذ فتح الله يأتي إلى العالم عاجزًا ومحتاجًا، وهو لا يستطيع تجاوز عجزه وحاجاته إلا بالتربية والتعليم، إذ يقول: "نولد عاجزين وجاهلين لضوابط الحياة، ونضطرّ إلى إصدار صراخ من أجل الحصول على المساعدة. وبعد عام بالكاد نستطيع الوقوف على قدمين والخطو بضع خطوات، والمفروض أن نميز بين الخير والشر، وبين ما فيه مصلحة وما فيه مفسدة، ونحتاج إلى عمر كامل لتحصيل النضج المعرفي والروحي. فدورنا الأساسي هو الوصول إلى الكمال وصفاء الفكر والتصرفات والمعتقد... والغاية هي الارتقاء إلى مقام الإنسانية الحقيقية التي تستحق الحياة السعيدة والأبدية في العالم الآخر" (٢٣٣).

الإنسان في عرف الأستاذ ليس مجرد جسد وعقل، بل هو روح كذلك. وروحه تحتاج إلى أن تتغذى وأن تشبع. والإشباع يتم بمعرفة الله تبارك وتعالى، والاعتقاد به. (٢٣٤) أي تحتاج إلى التربية بصفة عامة والتربية الدينية

(233) M. Fethullan Gulen, Essais, Perspectives et Opinions, Publié par Light, Inc, Izmir- Turquie/2006, p:72

(٢٣٤) انظر:

M. Fethullan Gulen, Essais, Perspectives et Opinions, Publié par Light, p:72.

على الخصوص.

التربية واجب مقدس، فهي تعكس اسم "الرب" أي المرَبِّي والمرشد، وهي تتحقق بالقدوة الحسنة.. فالتربية الحقّة والتعليم الصحيح يرفع الإنسان إلى مصاف الإنسانية، وتجعل من الفرد عنصراً مفيداً للمجتمع ونفسه وللعالم كله.^(٢٣٥)

التربية والتعليم مسألة حيوية بالنسبة للفرد والمجتمع، لكن إذا كان الجميع يستطيعون تلبية رغبات أجسامهم، وتربيتها، فإن القلة هي التي تستطيع تربية الروح والمشاعر. ولذلك كان رفع مجتمع من المجتمعات وإعلاؤه متصلاً برفع الأجيال إلى مصاف الإنسانية الحقّة. والوصول إلى هذه النتيجة السامقة، ليس له سبيل إلا سبيل الرؤية التربوية الواضحة الجليلة، كالرؤية التربوية المتصلة بدين سماوي كامل متكامل.

ثانياً: التربية والتعليم نشاط الخدمة المركزي

سبق أن أشرنا في مكان سالف أن قطاع التربية والتعليم هو القطاع الحيوي بالنسبة لـ"الخدمة" بل يمكن القول بأن التربية والتعليم هي المجال الحيوي الذي تعرف به "الخدمة"، ولذلك يغلب على الأستاذ فتح الله كولن صفة "رجل التربية" أو كونه مربياً وعالم تربية بالمفهوم المعاصر، لأن الأستاذ فتح الله كولن صاحب نظرية تربوية عميقة تجمع بين عدة جوانب، أخلاقية وفكرية وفلسفية، بالإضافة إلى جوانب أخرى تطبيقية. نظرية التعليم عند الأستاذ فتح الله تركز على أسس أهمها المرَبِّي

⁽²³⁵⁾ M. Fethullan Gulen, Essais, Perspectives et Opinions, Publié par Light, p:75.

والمربّي أو المتعلم، ثم المدرسة باعتبارها مجالاً لا باعتبارها مصطلحاً. فقد تحولت هذه المكونات عند الأستاذ فتح الله كولن إلى مجال لإحداث التغيير. فنظرية التربية تبدأ في الحقيقة من البيوت، أو المحاضن الصافية التي تحقق التميز النوعي والتميز التربوي. إن الأستاذ فتح الله بما أوتي من بعد نظر وطاقه روحية ورصيد معرفي حوّل هذه البيوت التي استلهم فكرتها من نموذج دار الأرقم بن أبي الأرقم في العهد المكي من المدرسة النبوية المحمدية إلى فضاءات تربية ومساحات نورانية من أجل إحداث التغيير والبناء المنشود. لقد جعل من هذه البيوت وسيلة لتغيير الناس وتغيير واقعهم، فكانت هذه البيوت بمثابة المعمل الذي يصنع اللبنة الضرورية لكل بناء، أو لنقل إنه قد ساعد الناس على إدراك الطاقة الكامنة فيهم. ودفّعهم إلى توظيفها التوظيف الحسن بما يعود بالفائدة على المجموع وفي المقدمة المجتمع والوطن.

ركز الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في قضية التغيير على الفرد، وجعل منه المنفذ لتحقيق التغيير والإصلاح. وإذا كان الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي قد ركز على النخبة، فإن الأستاذ فتح الله ركز على الجماهير الواسعة وعلى عموم المجتمع. بعبارة أخرى إذا كان النورسي قد ركز على التغيير الذاتي الفردي من أجل الوصول إلى المجتمع، فإن الأستاذ فتح الله كولن قد ركز على المجتمع كله باعتباره بوتقة واحدة متكاملة لا يمكن لأي مشروع حضاري وعمراني أن يسير دون أن تكون هذا الوحدة منسجمة ومتجانسة في الحد الأدنى. ولذلك بيوت الخدمة محاضن تشع بالنور والحياة لما كانت تقوم به من إعداد لرجال يطلق عليهم الأستاذ فتح الله "فِدَائِيُّو المَحَبَّة" إذ يقول: "إن فِدَائِيَّي المَحَبَّة

ينظمون أنفسهم بشعور المحبة تجاه بيئتهم، وحتى حدتهم وغضبهم له طابع المهابة والجدية، لأنه يسعى للتنظيم والتقويم، أي يكون على الدوام مقيدا وبناء" (٢٣٦).

لقد أطلق على هؤلاء الكثير من التسميات والكثير من الأوصاف. فقد اعتبرهم إنسانا جديدا "ومجانين" لما يثرون عليه من قيم فاسدة وينشرونه من قيم إيجابية تتجاوز كل المقاييس المألوفة،^(٢٣٧) وهؤلاء لا يمكن تكوينهم ولا إيجادهم إلا من خلال مكون تربوي مدروس، تعتبر محاضن النور أحد أهم أسسه.

جذور المنهج التربوي وأسسه عند الأستاذ فتح الله كولن ينبغي البحث عنها في المراحل الأولى لحياته، وخاصة في المرحلة التي قضاها الأستاذ مشرفا على وقف "كستانة بازاري" (أو سوق الكستانة). لقد بدأت معالم الرؤية والمنهج الإصلاحي عنده تتخلق في هذه المرحلة. وقد كان من الممكن ألا يكون لهذه المرحلة الجينية ثمار إيجابية لو لم تجد رجلا نجيبا يستطيع أن يمد التجربة بروحانية وطاقه عرفانية أخذت في التكون هي الأخرى. لقد وجد الأستاذ فتح الله نفسه أمام معطيات واقعية

(٢٣٦) الموازين أو أضواء على طريق، فتح الله كولن، ص: ١٠٥.

(٢٣٧) يقول الأستاذ فتح الله كولن واصفا هؤلاء: "مجانين أريد، حفنة من المجانين! يثرون على كل المعايير المألوفة، يتجاوزون كل المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرون وإليها لا يلتفتون. أريد حفنة ممن نُسبوا إلى حفة العقل لشدّة حرصهم على دينهم، وتعلقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدّحهم سيّد المرسلين ﷺ، إذ لا يفكرون بملذّات أنفسهم، ولا يتطلّعون إلى منصب أو شهرة أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا ومالها، ولا يفتنون بالأهل والبنين... يا ربّ، أتضرّع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعط كل سائل مطلبه، أما أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا ربّ، يا ربّ" (مجلة "حراء"، العدد: ١٤ (يناير-مارس ٢٠٠٩)).

متناقضة، وتاريخ مليئ بالتجارب الإنسانية العميقة والخالدة ومستقبل يلوح في الأفق واعد المعالم، لكنه متلاطم الأمواج في الوقت نفسه. لقد كان الأستاذ فتح الله يلمس بعقله وروحه أن هذه المعطيات كلها تبدو متناقضة وأنه -لكي يفك التوتر بينها ويجعلها عناصر للبناء- لا بد من إيجاد الخيط الرابط والناظم لها حتى تحقق آمال الإنسان في كل مكان. كان النورسي رحمه الله يدرك بعينه الثابنتين أن العالم الإسلامي يحمل في أحشائه ثقافة أوربا وعلومها وبأنه سيلدها يوماً ما، وأن أوربا حامل بقيم الإسلام وبأنها ستلدها يوماً من الأيام. أما فتح الله كولن فقد كان يرى الإصلاح الحقيقي يبدأ أولاً باستيعاب حقيقة العصر وبفهم حاجاته ووضع اليد على أمراضه، وتوظيف علومه للمصلحة وليس للمفسدة، يقول الأستاذ فتح الله مبرزا هذه الحقيقة: "إن من لا يعرف مجريات عصره كمن يعيش في دهليز مظلم، عبثاً يحاول أن يبلغ شيئاً عن الدين والإيمان إلى الآخرين، فعجلات الزمن والحوادث ستُفقد التأثير إن عاجلاً أو آجلاً"^(٢٣٨).

وليس فقط معرفة حقيقة العصر بل معرفة ثقافة العصر، إذ كيف يمكن التصدي للثقافة المنحرفة وكيف السبيل إلى معرفة مدى انحرافها أو عدمه إن لم تكن هنا معرفة دقيقة بثقافة هذا العصر.^(٢٣٩)

لا شك في أن الأستاذ هنا يتحدث عن المبلِّغ ووظيفته، لكن أليس المرابي والمعلم مبلِّغاً، أو ليس المرابي مشروع مبلِّغ في المستقبل، لأن

^(٢٣٨) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن (ترجمة: إحسان قاسم الصالحي)، دار

النيل، ط: ٢ القاهرة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٦م، ص: ٩٢-٩٤.

^(٢٣٩) انظر: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص: ١١١-١١٢.

العبرة هنا ليست بالمهمة التي يقوم بها الإنسان والوظيفة التي سيؤدّيها في مستقبل حياة، بل العبرة بما يبلغه عن لسان الحال. فإذا كان الداعية والخطيب والعالم والمعلم يبلغون بلسان المقال - كل حسب مجال اهتمامه - فإن هناك مبلغين آخرين يبلغون بلسان الحال، وهؤلاء هم أفراد المجتمع المثالي فردا فردا، أو المجتمع الإيجابي فردا فردا. لقد أدرك الأستاذ فتح الله كولن انطلاقا من وعي ذاته أولا ووعي واقعه ثانيا أن المنفذ الأساسي إلى الإصلاح والتغيير هو التربية والتعليم، حيث يقول: "مستقبل كل إنسان متعلق بما تأثر به وانطبع عليه في طفولته وشبابه من دروس التربية والسلوك. فإن كان قد قضى طفولته وشبابه في جو إيجابي يربّي المشاعر العلووية توقعنا كونه إنسانا يُحتدّى به من الناحية الفكرية والخلقية"^(٢٤٠).

ويقول مبرزا المسار الوحيد للإصلاح وبناء الأمة وبناء الحضارة: "إن إصلاح أي أمة لا يكون بالقضاء على الشرور، بل بتربية الأجيال تربية صحيحة، ورفعها إلى مستوى الإنسانية الحق. وعندما يبذر البذور المقدسة التي هي عبارة عن خليط من الشعور الديني والتاريخي والأعراف في أرجاء الوطن، فسترى نباتات وشتلات عدة وهي تنبت في موضع كل شريحة"^(٢٤١).

وبكلام أدق إن التربية مهمة خطيرة وعنصر فعال في الإصلاح والتغيير، ولذلك فإن من لا يفقه ولا يعرف دقائقها وخصوصياتها وخلفياتها ومنطلقاتها فلن ينجح في بناء هذا المجتمع الصالح. وأتصور أن البحث

^(٢٤٠) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ٧٧.

^(٢٤١) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ٧٧.

في موضوع التربية وفلسفتها عند الأستاذ فتح الله يحتاج إلى دراسات خاصة وبحوث مستقلة من أجل إدراك كل الأبعاد الظاهرة والخفية في فلسفته التربوية مع ربطها بجانبها التطبيقي الذي تجسده حركة الخدمة في كل أبعادها. وحسبنا في هذا المقام العمل على مقارنة المعالم الأساسية في مشروعه التربوي.

يظهر جلياً أن الأستاذ فتح الله يعتبر أن التربية والتعليم من خلال "الخدمة" عصب البناء والتشييد والعمران والحضارة. إنه هو السباحة في المجال الحيوي كما يطلق عليها سمير بودينار.^(٢٤٢)

يميز الأستاذ فتح الله بداية بين التربية والتعليم، فالتربية هي الإطار الكبير الذي يحتوي التعليم، لأنه كما يفهم من مضمون كلام الأستاذ فتح الله كولن لا يمكن لمهمة التعليم أن تنجح إذا لم يتم رعايتها بنظرة تربوية دقيقة، يقول: "المربيات والمربون الذين لم يتعلموا على يد خبيرة، ولم يتلقوا التربية من مصدر موثوق يشبهون العمي الذين يحملون المصابيح لإنارة الطريق أمام الآخرين. والوقاحة وعدم التربية المشاهدة عند الصغار تدل على عدم صفاء النبع الذي يتلقون منه التربية. وعدم التوازن الموجود في العائلة من ناحية التصرف أو الفكر ينعكس في روح الطفل ويتضاعف هناك. ومنه يسري طبعاً إلى المجتمع"^(٢٤٣)، "يجب أن تولى أهمية لدروس التربية والثقافة الدينية في المدارس بقدر الأهمية المعطاة

^(٢٤٢) انظر: فلسفة التعليم: السياحة في المجال الحيوي، د. سمير بودينار، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩. دار النيل، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص: ٢٤١-٤٤٩.

^(٢٤٣) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ٧٨.

للدروس الأخرى في الأقل، حتى تتربى أجيال قوية في خلقها وسلوكها وروحها فيحولوا ربوع هذا الوطن إلى جنة والتعليم شيء والتربية شيء آخر. فمن الممكن أن يكون أكثر الناس معلمين، ولكن القلة فقط منهم يستطيع أن يكون مربياً." (٢٤٤)

يكشف عمقُ هذا الكلام عن تمييز الأستاذ بين التربية ومهمة التعليم، وذلك بجعل التربية أساساً للتعليم.. لأن التعليم مسألة تقنية، وباستطاعة كل الناس ممارسة التعليم، لكن القادرين على التربية قلة. وقد كان الأستاذ يلاحظ بأن الدولة تبذل ما في وسعها من أجل التعليم، لكنها كانت تبدو عاجزة عن تربية الأجيال. كما أن التربية التي قد تقدم في هذا التعليم تربية تفسد أكثر مما تصلح أو تفسد ولا تصلح، ولذلك كانت التربية أسبق على التعليم، لأنه إذا كان التعليم مسألة تقنيات، فإن التربية هي الطاقة التي تحركه وفق مرام محددة ينبغي الوصول إليها.

يؤكد فتح الله كولن في الكثير من كتاباته أن أهم هدف في حياة الإنسان هو البحث عن المعرفة الحقة. والمجهود الذي يبذله الإنسان في هذا الاتجاه يسمى تربية. وهي مسلك للارتقاء والوصول إلى المكانة التي يستحقها باعتباره كائناً كاملاً، وباعتباره أرقى المخلوقات، بل إن الإنسان يحتاج إلى عمره كله لكي يصل إلى الكمال، وإلى مرتبة الإنسان الكامل، أو أن يصل إلى مرحلة الكمال الروحي والمعرفي. (٢٤٥)

يرى الأستاذ فتح الله أن المهمة الأساسية التي يتوجب على الإنسان

(٢٤٤) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ٧٨-٧٩.

(245) M. Fethullan Gulen, Essais, perspectives et opinions Publie par The light, inc Izmir turquie 2006, p:72-74.

القيام بها هي أن يحاول الوصول إلى صفاء الفكر والمنهج والمخططات والمعتقد، والقيام بدور العبودية للخالق، والعمل على إدراك دوره في نظام الوجود، وصولاً إلى إدراك حقيقة الإنسان الحقيقي الذي يستحق منحة الخلود في الحياة الأخرى، فكل هذه المقومات لا يمكن أن تدرك إلا بالتربية.^(٢٤٦) إنسانية الإنسان متصلة شديدة الاتصال - في رأي الأستاذ - بمدى صفاء المشاعر، علماً بأن الإنسان الممتلئ بمشاعر سيئة هو في الحقيقة شبه إنسان، وإنسانيته تحتاج إلى إثبات. وإذا كان الجميع يستطيع تربية وبناء الجانب الجسدي المادي، فإن قلة هم الذين يستطيعون تغذية الروح والمشاعر، ويملكون القدرة على الوصول إلى المصدر الذي تصدر منه، ويستطيعون بلورة المناهج التي تمكن المتلقين من اكتساب روح التربية والتعليم.

ثالثاً: كيان الإنسان في ظل الحياة المعاصرة

لقد أغرقت المدنية المعاصرة في فصل الإنسان عن جانبه الروحي وحصرت نظرتها له في الجانب المادي، بل إن الفلسفة قد جعلت الكيان الإنساني مجرد مادة، وعلى أساس ذلك بنت فلسفتها المرتبطة بالإنسان في كل مجال بهدف واحد هو إشباع رغباته المادية.. وظلت فلسفة التربية منحصرة في الإجابة عن أسئلة الجسد وكيفية إشباع رغباته التي لم يعد لها حد، وصار الإنسان من هذه الزاوية مجرد وسيلة تستهلك ما طوره التقدم الصناعي من حصيلة تستجيب لهذا الجانب.

(246) M. Fethullan Gulen, Essais, perspectives et opinions Publie par The light, inc Izmir turquie 2006: p:72.

فالأستاذ فتح الله كولن عندما ينظر حوله لا يجد سوى هذه الحقيقة. وما حصله من معارف، وخاصة اطلاعه على أفكار الفلسفة الحديثة بما فيها الفلسفة المادية قد جعل منه مفكرا واعيا بما يحيط بإنسان العصور الحديثة. وعلى عادته فهو لا ينتقد لأجل النقد، ولكنه ينتقد من أجل البناء، ولا ينتقد إلا من خلال إعطاء البديل الفكري أو النظري، بل والبديل العملي.

قد تكون أفكار الأستاذ فتح الله كولن في مجال التربية أفكارا متداولة وأفكارا سبق إليها، لكن ما يميز التربية عنده هو اقترانها بفعل عملي. لقد أدرك الأستاذ فتح الله كولن منذ وقت مبكر أن لا بد من وجود مجال حيوي تطبق فيه الأفكار وتنزل فيه، فكانت المدرسة بمفهومها الشامل.

رابعاً: التربية مدرسة ومدرس

أغلب من تحدث عن المستقبل ربط ذلك كله بالتعليم وخاصة تعليم الشباب وتربيتهم، لأن الشباب هم مستقبل كل أمة، ومن لا يهتم بشبابه لا يعنيه مستقبل أمته في شيء، ولذلك يقال إذا حددت الحال التي تريد لشبابك أن يكونوا عليها في المستقبل أقول لك طبيعة المستقبل الذي تريد لأمتك والحال التي ستكون عليها هذه الأمة في المستقبل.

ومن هذه الزاوية فالأستاذ فتح الله كولن أكثر مفكري العصر الحديث اهتماماً بهذه الحقيقة، إذ لم يتوقف عند باب التنظير بل تجاوز ذلك إلى الفعل والتطبيق، إن من خلال الممارسة الفعلية لعملية التربية والتعليم، أو من خلال وضعه لمنهج عملي بتعهد الشباب في المناومات وبيوت الطلبة، أو من خلال إقناع الناس وخاصة أهل المال والاقتصاد ببناء مدارس

ومعاهد من مستوى راق، في الشكل وفي طريقة التدبير والتسيير وفي طبيعة مخرجاتها. وفي هذا الإطار ينبغي الإشارة إلى أن من أهم ما يتصل بالعملية التربوية هو إعداد الإطار الكفاء للقيام بهذه المهمة الخطيرة، وهم المدرسون؛ فهذه الفئة تقع على عاتقها مهمة توجيه النشء توجيهها سليما وفق مبادئ تحدد مسبقا.

فالمدرسة عند الأستاذ مختبر الإكسبير ويمنح الحياة، ويداوي أمراض الناس. والذين يقومون بذلك هم المرَبون والمعلِّمون. فالمدرسة هي المكان الذي نتعلم فيه كل ما يتعلق بالحياة الدنيا والحياة الأخرى، إذ تشرح الضروري من الأفكار والوقائع، وتتيح للمتعلِّم فهم محيطه وحقيقة إنسانيته، وتمهِّد السبيل لإدراك معاني الأشياء والوقائع، لتنقل المتعلِّم بذلك نحو الانضباط الفكري والأخلاقي، ونحو الصلاح والقدرة على النجاح وعلى الفعل الإيجابي. إن المدرسة بالنسبة للأستاذ فتح الله كولين معبد أو بيت عبادة، ورجال الدين فيه هم المعلِّمون والمرَبون، وأما المصلون فهم هؤلاء الذين يأتون من أجل تحصيل التربية والمعرفة.

المربي الأصيل هو الذي يزرع البذور الصافية الطيبة ويعتني بها كما تعتني الأم بصغارها، لأن من أهم مهام المربي هو الاعتناء بكل طيب وجميل؛ فهو يوجه المتعلِّمين والأولاد في حياتهم ويساعدهم على مواجهة الأحداث والوقائع، وعلى مواجهة العالم.^(٢٤٧)

العملية التعليمية قد تكون مرتبطة بتلقين مجموعة من المهارات والكفايات التعليمية والتقنية، وقد تكون نقلا لمجموعة من المعلومات.

(247) M. Fethullan Gulen, Essais, Perspectives et Opinions, p:80-81.

لكن التربية أعمق بكثير، لاسيما إذا ارتبطت برؤية تربوية سامية، فإن المخرجات ستكون من مستوى قوي جدا.

هذا هو عمق ما يراه الأستاذ حين يميز بين وظيفة التعليم ومهمة التربية. فهما شيان مختلفان، لأن الكثير من الناس يستطيعون تعليم الآخرين، لكن قلة منهم يستطيعون تربيتهم. وأفضل منهج في نظر الأستاذ في مجال التربية هو التربية الدينية.^(٢٤٨)

خامساً: مفهوم المدرسة عند الأستاذ فتح الله كولن

كانت المدرسة حاضرة في كل مراحل تكوين الخدمة. وهنا لا نقصد المدرسة بمفهومها المادي، ولكن نقصد المدرسة بمفهومها العام والمعنوي. فالمدرسة بمفهومها المعنوي أو المؤسسي ظلت هي الإطار القوي الذي تتمحور حوله الخدمة. فقد نتصور تخلي الخدمة بصفة عامة عن مؤسساتها أو أن تترك بعض المجالات، لكنها حتما لن تترك مؤسسة المدرسة. فهي حاضرة بصورة مباشرة وغير مباشرة في كل محطات الخدمة.

وعلينا التمييز في هذا الإطار بين ما تقدمه مؤسسة المدرسة من معطيات أخلاقية وقيم، وبين ما تقدمه من معطيات علمية ومعلومات وأفكار. فقد يكون المستوى الثاني -القائم على المعلومات والمعارف والكفاءات التي تؤهل المتعلم للقيام بدوره داخل المجتمع في حدود الجوانب العملية- قويا وضروريا، لكن هذا الجانب المعرفي والمعلوماتي إنما هو مجرد مجال تقني يحتاج إلى عنصر أهم مرتبط بعمق الإنسان الذي يحمله هذه

(248) M. Fethullan Gulen, Essais, Perspectives et Opinions, p:81.

المعطيات، وهذا هو ما تقوم به المدرسة في المستوى الأول، أي إنها تعد الجانِب الروحي والمعنوي في هذا الإنسان، وتعد الأرض التي ستنبِت فيها المعلومة والفكرة لكي تثمر جنات وارفة الظلال، وتلد انبعاثاً ونهضة. والمتأمل في حياة فتح الله كولن، وفي تاريخ الخدمة بصفة عامة سيلمس أنه في عمقه تاريخ مسلك مدرسي بالمعنى الأول، ومؤسسة المدرسة حاضرة في كل شيء. ألم يكن مسجد الشرفات الثلاث مدرسة حاسمة في حياة الأستاذ، وفي الثكنة العسكرية وأثناء التجنيد، وفي السجن؟! ألم تكن مرحلة الإشراف على مدرسة "كَسْتَانَة بَارَازِي" مرحلة مدرسية بكل ما تحمله الكلمة من معنى؟! ألم يكن الأستاذ فتح الله يرضى بالقليل وينفق راتبه على طلبته؟! ألم تكن المخيمات مدرسة؟!!

لقد كانت مؤسسة المدرسة حاضرة في جميع مراحل البناء الحركي للخدمة. وقد تبدو بيوت الطلبة والمبيتات والمخيمات، والسكن الداخلي، ومجالس الصحبة ومحاضن التربية التي طوّرها الأستاذ أوجهًا مختلفة ومتنوعة للمدرسة.. فالمدراسة في عرف الخدمة بسيطة في صورتها وأشكالها، لكنها دقيقة في أبعادها وفي منهجها؛ فهي تدين لرؤية الأستاذ وحركيته بالشيء الكثير، فقد طور منهجا بنفسه وغذاه بروحه وعاش جميع تفاصيل نجاحه وفشله، بل عاش بنفسه أهم مراحل تطوره عندما كانت السلطة الحاكمة ترى في بيوت الطلبة وفي المنامات والداخليات خطرا يهدد مستقبل البلد.

في هذه المؤسسة يترقى المرَبّي - وليس المتعلم - روحياً، ويُربّي على القيم والأخلاق، وتجعل منه القدوة الحسنة صورة نموذجية لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان المتحمل لمسؤولية كبرى، وهي مسؤولية إعداد

الأجيال القادمة في المدرسة بالمفهوم العام.

استفاد الأستاذ فتح الله كولن من ملاحظات الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الذي وقف على الاختلالات الخطيرة التي ميّزت المدرسة من شكلها التقليدي، وفي شكلها الأوربي الحدائثي الوضعي، حيث لاحظ بأن المدرسة التقليدية عاجزة بما تقدمه عن أن تكون مدرسة للعصر، وأما المدرسة الحديثة بسبب إغراقها في الوضعية وحصر نظرها في المعرفة المقطوعة عن النظرة الدينية لم تكن قادرة على أن تقدم النموذج القادر على البناء والتشييد. ولذلك فقد عاش بديع الزمان ردحا من الزمن على أمل أن يُقنع من يستطيع إنشاء مدرسة أطلق عليها اسم "مدرسة الزهراء" حيث تجمع بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية لكي تكون دليلا على أن لا تعارض بينهما بل يكملان بعضهما البعض. ولما يئس من ذلك وأمام ضغط الواقع وأحداثه قرّر التضحية بحياته وسعادته الخاصة. واعتزل العيش في وسط المجتمع يهتئ أرضية لمن يتواصل معه روحيا ويحوّل أفكاره إلى منجز حقيقي. وأظن أن الأستاذ فتح الله كولن كان هو العقلية الفذة التي كان النورسي يحلم بأن تسير برؤيته الإصلاحية وتجعل منها قاعدة لتوسيع دائرة الفكر الإصلاحي. لقد مكّنته كتابات النورسي من أن يسلك مسلكا معرفيا وحركيا ذي توجهات متعددة، وليس طريقا أحادي الاتجاه.^(٢٤٩)

إن المدرسة وفق المنظور الذي يؤمن به الأستاذ فتح الله الذي سيصنع الخدمة تحتاج إلى بنية تحتية، وهذه البنية التحتية تقوم على الإنسان.

(249) Turkish Islame and the secular state, p:21-22.

لقد ركّز الأستاذ فتح الله في منهجه التربوي على دفع الناس إلى إعادة اكتشاف هويتهم في أعماقهم وبعثها من كمونها وإحيائها من جديد. بعبارة أخرى لقد ركّز على دفع الناس إلى اكتشاف ذواتهم من خلال الإسلام ومن إعادة بعث إشراقات الدولة العثمانية.⁽²⁵⁰⁾

لقد عمل الأستاذ على بعث إسلام نابع من الخصوصية التاريخية لتركيا باستحضار روح التقاليد الإسلامية في الدولة العثمانية ومزجها بمفهوم الوطنية التي أعاد شرحها بالقول إنها ليست استحضارا لجانب الدم والجنس، بل باستحضار تاريخ البذل والعطاء والتكافل والتسامح والعيش جنبا إلى جنب.

لقد كان الأستاذ فتح الله كولن قبل البدء بتنفيذ مشروعه أو حلمه البعثي في حاجة إلى ماض صلب يكون الإسلام أصلا فيه وأصلا له. كانت عودته إلى التاريخ العثماني بمختلف تجلياته الروحية والمادية، وخاصة روح الفتوة والدروشة. لقد آمن فتح الله بضرورة بعث تلك الروح المتسامحة والمتعاونة التي كانت تعم كل الفئات التي تعيش تحت سلطة الدولة العثمانية. وأما الإسلام الذي يعتقد الأستاذ فتح الله كولن أنه يستطيع القيام بهذه المهمة السامية فهو "الإسلام" في صفائه الأول كما تلقاه الرسول ﷺ عن ربه ﷻ، وكما بلغه إلى صحابته الكرام. ولذلك لم يوظف قيم الإسلام توظيفا أيديولوجيا.

لقد كانت بيوت الطلبة والمنامات والصحة والأقسام الداخلية هي الوسائل الموظفة من أجل غرس قيم البذل والعطاء والتضحية والتفاني

(250) Turkish Islame and the secular state, p:22-24.

والفتوة وتحمل المسؤولية، ولم تكن الأبعاد الأيديولوجية التي كانت حركات أخرى في المرحلة نفسها تحاول غرسها في بعض الأوساط. لقد عمل الأستاذ على غرس هذه القيم باعتبارها قيما تقدم خدمة، وهذا من أجل التمهيد للثورة التربوية الكبرى.

سادساً: مرتكزات التربية عند فتح الله كولن

ترتكز الرؤية التربوية عند الأستاذ فتح الله كولن على ثلاثة مرتكزات هي: غرس القيم، وتلقين العلوم والمعارف، ثم الانضباط الفردي.. على أن لكل هذه العناصر ارتباط متين بعنصر أمتن وهو نيل رضى الله تبارك وتعالى. فالتربية التي يريد الأستاذ والتي اجتهد وعمل من أجلها تنغيا لإيجاد إنسان له شعور بالمسؤولية تجاه ذاته والآخرين وواقعيه.. ودليل ذلك هو استعدادة للتضحية من أجل الآخرين، أي أن ينفي ذاته من أجل الآخرين.. لأن من شأن هذه القيمة أن تصنع إنسانا زاهدا فيما عند الآخرين حيث يطمع أن ينال رضى الله تبارك وتعالى. ولذلك فهذا الإنسان لا يركض خلف ما يركض خلفه الذين تشبعوا بقيم من أجل أهداف أيديولوجية. فهذا النموذج الإنساني لا يمكن أن ينخدع بشعارات السياسة والسياسيين، لأن السياسة حسب منظور الأستاذ سياسات، وأخطر ما فيها هو أنها تفرق وتصنع العداوة، حيث يقول: "السياسة موجودة في كل أمر. أما سياسة الذين يهيئون لإيقاظ الأمة وبعثها من جديد فهي إثثار أمر الأمة على كل شيء وتقديمها على كل شيء وعدم التفكير في أي مصلحة شخصية واستفراغ الجهد في مصالح الأمة"^(٢٥١).

^(٢٥١) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ١٢٩.

ما يزال الأستاذ إلى اليوم وهو في أمريكا يقوم بدور المربي والموجه في إعداد الأطر المهيأة أفضل تهيئ للقيام بالمهام العامة للخدمة. ولذلك فإن محيط الأستاذ فتح الله اليوم محيط جامعي، أو بالأحرى لقد فتح كولن جامعة للتربية العليا وليس للتعليم العالي، وهي جامعة لا يدخلها سوى من توفرت فيه شروط أهمها الاستعداد المعنوي والروحي لاستقبال الواردات العرفانية، بالإضافة إلى الاستعداد الذهني والفكري والمعرفي الذي يؤهل لأن يكون الإنسان على استعداد للتجاوب معرفيا وعلميا مع أفق الأستاذ.

وما يزال إلى اليوم يقوم بدور الأستاذ المرّبي وفق نمط تقليدي متجدد، إذ يتحلّق حوله طلبته ويطلب إليهم واجبات محددة هي عبارة عن قراءات دقيقة في أمّهات الكتب والمصادر يُتوجّها الأستاذ بتعليقات وإضافات. والمتأمل فيما درّسه الأستاذ من مصادر في مجالات مختلفة من العلوم الشرعية، يرى أنه يرمي إلى هدف محدد، وهو بناء رجال على دراية دقيقة بالعلم الأصيل. علما بأن جامعة الأستاذ هذه لا يلتحق بها سوى المتفوّقين من خريجي الجامعات، فالقضية تتعلق ببناء مجتهدين قادرين على ربط روح الشريعة بما سيلحقون به من حيثيات الحياة العامة. ظلت جهود الأستاذ فتح الله لعقود تتبلور تحت نار هادئة، في هدوء تام دون أن تثير حولها الضجيج عكس ما كانت تفعل العديد من الحركات الإسلامية ذات التوجه الأيديولوجي والسياسي. ورغم محاولات التضييق على حركة فتح الله ورغبة جهات معينة من داخل دواليب الحكم والمجتمع المدني جرّ فتح الله كولن والحركة إلى ميدان الصراع والتطاحن، فقد أبى فتح الله والذين تربّوا في مدرسته إلا أن

يحافظوا على الظهور بمظهر الحركة المسالمة التي تريد مصلحة الوطن دون أن تكون لها مطامع وتطلعات سياسية. لقد كانت هذه المرحلة مرحلة حاسمة في تاريخ الحركة، لأنها هي التي مكّنت الأستاذ من أن يمدّ خيوط الثقة بين حركة الخدمة وبين مختلف فئات المجتمع، لأن الأستاذ فتح الله كولن يؤمن بأنه لكي يكون للأفكار صدى ولكي يكون لأي مقترح استجابة، ينبغي جعل الناس يثقون فيما يفكر فيه وفيما ينجزه من أفعال على أساس الفكر والعلم والبحث عن مصلحة الوطن والأمة، بل ومصلحة الإنسانية كلها. كانت هذه المرحلة مرحلة حاسمة في تاريخ المشروع الإصلاحي ومشروع البعث والنهضة، وبعبارة أخرى لقد كان الأستاذ فتح الله يهيئ الكادر البشري "الجيل الذهبي"^(٢٥٢) وينتظر الفرصة المواتية لكي ينطلق في المجال الحيوي الذي هو التعليم.

يرى الأستاذ الدكتور "رجب قَائِمًا قَجَان" أن العهد الجديد في تركيا وفي العالم والتحويلات التي جاءت بها العولمة قد أحدثت تغييرات جوهرية في فلسفة التعليم حسب الحاجات التي تحددها الدولة أو نظام الحكم، ووفق التوجهات العامة المراد الوصول إليها، يقول: "لا يمكن أن يقال إن مفهوم التعليم الإلزامي والتعليم للجميع الذي تشكل مع الدولة القومية الحديثة هو نشاط بعيد التقييم. إن تنشئة المواطن المناسب للدولة القومية كان أحد الأهداف الأساسية للتعليم. ومع العهد الجديد

^(٢٥٢) "الجيل الذهبي"، مفهوم اصطلاحي عند الأستاذ فتح الله يحيل على مخرجات المراحل الأولى للانبعاث والنهوض. فهذا الجيل هو الذي سيعيد للأمة وللإنسانية قيمتها الحقيقية، من خلال ربطها بالخالق، وجعلها أكثر تفاعلا مع الوجود والكون، باعتبارها مظاهر تدل على الخالق.

حدثت تغيرات جوهرية في فلسفة التعليم. والآن أصبحت تنشئة الأفراد الذين يتبنون القيم الديمقراطية وحقوق الإنسان إحدى الأهداف الأساسية للتعليم في المدارس^(٢٥٣).

سابعاً: التربية الشمولية

ومن هذا المنطلق فإن الأستاذ فتح الله كان مستعداً فكرياً وحركياً لتحويل التغيير إلى فرصة تاريخية لا يوجد بها التاريخ والعصر إلا قليلاً. ولذلك يرى "رجب قايماقجان" أن حركة الخدمة تأتي "في المقدمة في تحويل التغيير إلى فرصة مقارنة مع منظمات المجتمع المدني الأخرى. أما المجال الأكثر فاعلية في استفادة كولن من الإمكانيات التي أتت بها العولمة فهو "التربية". كان واضحاً تأثير الأهمية التي أعطتها رؤية كولن للتعليم المدرسي الجيد بصفة خاصة في إطار قراءة روح العصر قراءة جيدة وتحويل التغيير إلى فرصة. وبالتالي يمكن أن يطلق على هذه الحركة أنها "ظاهرة تربوية"^(٢٥٤).

لم يكن الأستاذ فتح الله والذين تربوا على يديه في البدايات أو طلائع الجيل الذهبي يمتلكون إعداداً وعدة كافية، بل كانت عدة الأستاذ فتح الله كولن ورجال الخدمة آنذاك الرؤية الواضحة في مجال التربية والتعليم.

^(٢٥٣) مفهوم التربية الشمولية لكولن وانعكاسه على المدارس، رجب قايماقجان، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩. دار النيل، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص: ٤٥٠.

^(٢٥٤) مفهوم التربية الشمولية لكولن وانعكاسه على المدارس، رجب قايماقجان، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩. دار النيل، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص: ٤٥١.

لقد كان الأستاذ يؤمن بما يمكن أن يُطلق عليه كما يقول "رجب قائماق جان" التربية الشمولية".

لم تكن هذه التربية الشمولية مجرد رؤية أو نظرية، بل كانت مسلكا تربويا شرع فيه الأستاذ فتح الله عقودا قبل ظهور الفرصة الذهبية. وذلك لأن الأستاذ فتح الله كولن كان يدرك أن المشكلة المركزية في وطنه تركيا وفي العالم الإسلامي وفي العالم كله هي مشكلة التربية والتعليم، وأن أسباب مشاكل العالم كله وفي تركيا على الخصوص متصلة بطبيعة النظم التربوية وبطبيعة المدرسة. رأى الأستاذ فتح الله أن المدرسة التقليدية التي كانت تدرس العلوم الدينية وتدرس علوم الآلة بالإضافة إلى علم الكلام والمنطق والحساب والأصول، كانت عاجزة عن تقديم هذه العلوم وفق نمط يث فيها الحياة ويبعث الحياة فيمن تلقاها.. أجل، كانت تعاني من عجز تام في طريقة تبليغ المعرفة وفي المبلِّغ الذي يبليِّغ وفي المتلقي أو المبلِّغ إليه، نظرا لوجود هوة عميقة بين ما تقدمه المدرسة التقليدية وبين التحولات التي كان الواقع الاجتماعي قد دخل فيها، ولم يكن بمقدور المتخرج من هذه المدارس مواجهة تحديات الواقع.

أهم انتقاد وجهه الأستاذ للمدرسة التقليدية هو أنها أوصدت أبوابها أمام العلوم الطبيعية، رغم كونها عنصرا حتميا في تكميل أبعاد العلوم الشرعية والعلوم الدينية، يقول "رجب قائماق جان": "يرى فتح الله كولن أن مشكلة التربية مشكلة جوهرية في العالم المعاصر وليس في تركيا فحسب، ويرى أن أساس أزمة المجتمع الحديث هو تمزق روابط التكامل بين العقل والقلب في التربية والفكر العلمي، إذ يقول أن الفكر العلمي الحديث والنظام التعليمي قطع الصلة بين جميع الوشائج

الإنسانية والاجتماعية والفكرية وبين المقدسات بطريقة وضعية منذ عدة عصور. ومن ثم فهما يمثلان لدى الأستاذ أهم الأسباب في الأزمات الأخلاقية والمعنوية والفكرية التي تتعرض لها المجتمعات الحالية. كما يرى كولن أن الحل لهذه المشكلة يكمن في تحقيق التكامل بين العقل والقلب في التربية وفقا لرؤيته الشمولية حول إلى العلاقة بين الإنسان- الكون-الله^(٢٥٥).

يرى قايماق جان أن رؤية الأستاذ فتح الله كولن أو مشروع الخدمة في الأصل "حركة تربية"، لكن منظورها التربوي يقوم على جملة إضافات مركزية في أصل التعليم. ومن هذه الإضافات التي تعتبر اليوم القيمة المضافة التي تقدمها المدرسة بمفهومها المؤسسي في إطار الخدمة، اعتبارها القلب والعقل عنصرين متكاملين على أساس أنه لا ينبغي الفصل بينهما ولا ينبغي التركيز على جانب دون آخر، بل ينبغي التركيز عليهما معا. وهو ما يطلق عليه التربية الشمولية، وهي شمولية من هذا الجانب، أي من جهة نظرتها للإنسان على أنه كيان متكامل، لأن الإنسان يحتاج إلى إشباع الجانبين المتضمنين في أصل تكوينه، حيث يقول الأستاذ فتح الله كولن: "إنسانية الإنسان لا ترتبط بجسده المادي الفاني فحسب، بل ترتبط بروحه المشتاق إلى الأبدية والخلود كذلك. وهذا هو السبب الكامن وراء عدم وصوله إلى الإشباع والرضا أبداً، حيث يعامل وكأنه جسد فقط"^(٢٥٦).

^(٢٥٥) مفهوم التربية الشمولية لكولن، د. رجب قَيْمَاقْجان، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم

الإسلامي، ص: ٣٥٠-٣٦٨.

^(٢٥٦) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ٧٥-٧٦.

ولا نستهدف بالتربية الشمولية التي يتحدث عنها "قايماف جان" تمكين المتربي والإنسان بصفة عامة من أن يتعرف على حقيقته وهويته، ويدرك ماهيته، ويتأهل لمعرفة خالقه فحسب.. بل بالتربية يتمكن كذلك من الحد من "التأثير الطاغي لهذا التوجيه من الأحاسيس التي استقرت في الطبيعة البشرية لتحقيق مقاصد وأهداف معينة، ولكشف الطرق الموصلة إلى الكمال أمام هذه الأحاسيس التي تبدو وكأنها ضارة. وذلك بتوجيهها إلى كل ما هو جميل وطيب، وتعمل على تقوية شعور الفضيلة وقوة الإرادة والقدرة على التفكير وحب الحرية لدى الفرد، وحب الحرية يعني العبودية الحقيقية لله" (٢٥٧).

إن النموذج الذي يقتبس منه، ويسترشد به الأستاذ فتح الله، ومن خلال إرشاده مؤسسة المدرسة، هو سيرة النور الخالد ﷺ وسيرة الصحابة الكرام خلال فترة عصر السعادة. في هذه المرحلة يكمن النموذج الذي تُقتبس منه الصورة التي تحقق هذه التربية الشمولية، أو لنقل التربية المتكاملة. وفي هذه الدائرة فإن المعرفة التي يحصلها المتربي في مؤسسة المدرسة يجب أن تكون وسيلة لإضافة ما يتيح له الاتصال مباشرة مع الخالق سبحانه. يقول الأستاذ محمدا صفة الإنسان الذي يستحق وراثة الأرض: "التوجه إلى العلم بميزان العقل والمنطق والشعور.. هذا التوجه الذي يشكل جواباً عن تمايل البشر وحيدته في انسياق البشرية بفرضيات سوداء في مرحلة زمنية معينة، سيكون خطوة مهمة باسم الخلاص الإنساني. ولقد أشار بديع الزمان النورسي إلى أن البشرية تتوجه في آخر الزمان بكل طاقتها

(٢٥٧) مفهوم التربية الشمولية ككولن، د. رجب قَيْمَافْجَان، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم

إلى فنون العلم والمعرفة، فتستمد كل قوتها من العلم، ويمتلك العلم مرة أخرى الحكم والقوة، وتصير الفصاحة والبلاغة وقوة البيان موضوعاً في سبيل قبول الجمهور للعلم، وموضع اهتمام الجميع.. وذلك يعني عودة الحياة إلى العلم والبيان. ولا نرى سبيلاً غير هذا، يخلصنا من أجواء دخان الأوهام وضبابها المحيط ببيئتنا، ويوصلنا إلى الحقيقة، بل إلى حقيقة الحقائق. فإن عبورنا لفراغ قرون، وبلوغنا حدّ الإشباع في المعرفة، وإثبات وجودنا وثقتنا بأنفسنا مرة أخرى بتعمير خراب حس الانسحاق المزمّن في شعورنا الباطن، لا بد له من إمرار العلم في منشور الفكر الإسلامي، وتمثيله والإفادة عنه. وقد شهدنا في تاريخنا القريب خلاً ملموساً في الفكر العلمي وتزلزلاً في توكير رجال العلم يصعب تعميّره، بسبب تشتت التوجهات والأهداف حيناً، أو اختلاط المعلومة بالعلم، والعلم بالفلسفة حيناً آخر^(٢٥٨).

يبدو انتقاد الأستاذ للمدرسة الحديثة أو للمدرسة في صورتها الغربية التي حطت رحالها في عالمنا شديداً. فقد كوّنت هذه المدرسة أجيالاً من الشباب والرجال تعلقت عقولهم وقلوبهم بالمادة وبالطبيعة، فكانت أن قادت الأمة إلى الهاوية وإلى الانهيار.. ولتجاوز هذه الأزمة وما صنعتها من ويلات لا بد من التجديد الذاتي للذات "في ظل الفكر العلمي الذي نشحن به شبابنا، وبتمازجهم تمازجا كاملاً بالعلم والفكر، كما فعلنا ذلك قبل الغرب بقرون مديدة"^(٢٥٩).

وبكلام دقيق إن الأستاذ فتح الله يؤمن بأن الأجيال التي ستربّي في

^(٢٥٨) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص: ٤٦-٤٧.

^(٢٥٩) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص: ٤٨.

مؤسسة المدرسة، ويُراعى في تربيتها العلاقة التكاملية بين القلب والعقل ستكون أجيالا ذهيبة غير مغتربة عن ذاتها وهويتها.

ثامناً: من المدرسة النظرية إلى المدرسة العملية

أهم ما يميز الأستاذ فتح الله كولن باعتباره رجل تربية وباعتباره معلماً ومدرسا مارس وما يزال يمارس أشرف مهنة وهي مهنة التدريس. هو أنه قرن النظرية بالتطبيق، وربط النقد بإعادة البناء. ولذلك حث رجال الخدمة والمؤمنين بفكره بضرورة الإقدام على فتح المدارس. فكانت الانطلاقة من إزمير في سنة ١٩٨٢م مع فتح أول مدرسة وفق المناهج التي تحددها الدولة والجهات الرسمية المشرفة على قطاع التعليم. لكن على أساس الرؤية التي عمل الأستاذ على مدى أكثر من ثلاثة عقود على إيجاد البنية التحتية الفكرية والبشرية المؤهلة لكي تقوم المدرسة بدورها. وبالموازاة مع المدارس أنشئت العديد من الأقسام التحضيرية أو "الدرّس خانات" التي كانت تقوم بتأهيل الطلبة لدخول الجامعة، من خلال حرص الأستاذ المرابي على تلقين التلميذ أو المترابي العديد من المهارات وتمكينه من جملة من الكفاءات العلمية والمعرفية التي تؤهله لأن يكون متفوقاً في دروسه.

يؤكد الأستاذ فتح الله في كل مرة أنه لا علاقة عضوية تربطه بالمدارس، وأن ما يسمّى اليوم اصطلاحاً بـ"مدارس فتح الله كولن" أو "المدارس التركية" المنتشرة عبر ما يزيد عن ١٦٠ دولة، والتي يتجاوز عددها ٢٠٠٠ مدرسة، ليست على علاقة مباشرة بالأستاذ فتح الله كولن، إلا فيما يتعلق بالفكرة والرؤية التي أقنعت مجموعة من رجال الأعمال بجدوى

الاستثمار في مجال التربية.^(٦٦) والاستثمار المراد هنا هو الاستثمار في الإنسان الذي سيصير عنصراً إيجابياً لذاته ولوطنه وللإنسانية كلها دون إهمال جانب الربح والاستفادة الاقتصادية، علماً بأن الربح والاستفادة الاقتصادية في مؤسسات الخدمة ليس هو الهدف الأولي أبداً.

كثيراً ما يُتساءل عن علاقة هذه المدارس بعضها ببعض وعمّا إذا كان هناك من إطار يجمع كل هذه المؤسسات، سواء تلك التي في تركيا أو التي توجد خارج تركيا.. جواب هذه القضية ليس متيسراً أو سهلاً لأن هذه المدارس في أصلها مجموعات، وكل مجموعة منها تابعة عضويًا لشركة من الشركات التي تنشط في مجال التربية.. بمعنى أن كل مؤسسة تتمتع بالاستقلال المادي وتدير أموراً باستقلالية تامة. يضاف إلى ذلك أن ما تحصله أو تحققه هذه المؤسسات من أرباح يتم استثماره داخل الشركة نفسها ويوظف في الغالب في تطوير أداء المؤسسة وفي بناء مدارس أخرى في تركيا أو في الخارج.

وما يؤكد هذه الاستقلالية هو تلك المنافسة الشريفة القائمة بين مختلف هذه المؤسسات في إطار تطوير أدائها وتقوية فرص نجاحها في مهمتها الأساسية المتمثلة في التربية والتعليم. وبعبارة أخرى لقد تحولت التربية في إطار الخدمة إلى مجال للاستثمار. وفي هذا يمكن أن نقف في تركيا على مجموعة من الشركات التي أنشأت في الغالب أقساماً إعدادية، ففي إسطنبول اشتهرت مجموعة فيم (FEM) ومجموعة أنافن (ANAFEN)، ومجموعة الفاتح (FATİH)، ومجموعة جوشكون (COŞKUN)؛ وفي

^(٦٦) انظر:

محافظة إزمير اشتهرت كُورُفَز (KORFEZ) ويامانلر (YAMANLAR)، وفي أنقرة العاصمة اشتهرت مَالْتَبَه (MALTEPE) سامانْيُولُو (SAMANYOLU)... وتفتح كل مؤسسة من هذه المؤسسات مدارس لها أو فروعاً في أكبر المدن التركية، وتحظى هذه المؤسسات باحترام كبير لدى العائلات نظراً لجودة التعليم الذي تقدمه، ونظراً للعناية التي تجدها من الأطر التربوية. ولا يعني هذا أنه لا يوجد هناك هيئة استشارية وتوجيهية تقوم بالتنسيق على مستوى المناهج وتبادل التجارب واقتسام نتائج النجاح الذي تحقّقه.. ويبدو أن هذا الحقل ذا خصوصية كبيرة، ولذلك فهو يحتاج إلى دراسة خاصة، نرجو أن تتاح لنا فرصة القيام بها لاحقاً.

تعتبر المدينة الساحلية "إزمير" مهد الخدمة، فهي المدينة التي مارس فيها الأستاذ فتح الله الخطابة والوعظ في مساجدها الكبيرة. وقد كانت المدينة معروفة منذ العهد العثماني بانخراط أهلها في إطار جمعيات وتجمعات مهنية.

كان "وقف المعلمين الأتراك" أو "وقف معلمي تركيا" أهمّ وقف أسّسه محبّو الأستاذ فتح الله كولن وتلامذته في إزمير حيث استهدف جمع الأطر التعليمية تحت إطار واحد، ولما كان هؤلاء أنفسهم آباء فقد كان الغرض كذلك هو دعم أبنائهم في تملّصهم. بعد مدة من إنشائه شرع الوقف في إصدار مجلة سِيزِنْتِي (SİZİNTİ) ١٩٧٩م قبل الانقلاب العسكري الذي حدث في ١٩٨٠م، والذي غير الواقع السياسي التركي إلى حد بعيد. ستصير هذه المجلة فيما بعد أهمّ مجالات الخدمة. وأسندت كتابة المقال الافتتاحي للمجلة للأستاذ. عملت المجلة على إرساء ضوابط المنهج الذي تتبناه في مجال التربية. وما كان يميزها هو تلك المقالات

العلمية التي كانت تنشر بجوار المقالات الأخرى في مختلف مجالات العلوم الإنسانية، وخاصة في المجالات الدينية والإسلامية. وتعتبر المجلة اليوم من أهم المجالات في تركيا، بل هي اليوم مؤسسة قائمة بذاتها ولها أنشطة مهمة. ولا شك أن "وقف المعلمين" هذا والهيئات التي صدرت عنه يمكن أن تعتبر المحطة التي يلتقي عندها أغلب المدارس التي تعرف بـ"مدارس فتح الله".. فهي التي تقوم برسم الإطار النظري والفكري الديدداكتيكي بهذه المدارس. ومن ثم يمكننا أن نقول بأنه إذا لم تكن هناك علاقة عضوية وإدارية واقتصادية تربط بين هذه المدارس فإن الإطار النظري والفكري من أجل تطوير أداء هذه المؤسسات التربوية بصفة عامة هو الموحد القوي والعنصر والأساسي والمركزي.

أنشأت الخدمة -أو المُقتنعون بفكر الأستاذ- العديد من المدارس وقاعات الدرس والجامعات في المدن الكبرى وفي الولايات البعيدة، إضافة إلى وجود ملحوظ على المستوى الخارجي خاصة في منطقة آسيا الوسطى ومنطقة البلقان. ومنذ أن استقر الأستاذ فتح الله كولن في أمريكا للعلاج زاد النشاط التربوي والتعليمي في مناطق مختلفة من العالم، بما في ذلك أوروبا وأمريكا.

وكما أشرنا سالفا فإن مفهوم المدرسة عند الأستاذ فتح الله كولن يرتكز على الجمع بين القلب والعقل أو بين المعرفة والقيم، في إطار ما يطلق عليه التربية الشمولية. وإذا كانت مدارس "الخدمة" تلحّ على قضية القيم، فإن هذه القيم لا تقدم بصورة جافة أو تدرّس كما تدرس المواد الأخرى، لأن الغاية من هذه المدارس هو تكوين نموذج إنساني متشبع بالقيم وله كفايات معرفية وعلمية تؤهله لأن يساهم في بناء وطنه. ولذلك

فإن القيم تقدم بصورة انسيابية من خلال القدوة الحسنة وفي إطار تبرز فيه شخصية المعلم المربي الذي هو أهم عنصر في المنهج الذي وضع ضوابطه الأستاذ فتح الله كولن نفسه.

فقد كان باعتباره معلماً ومدرساً هو أول من ربّى تلامذته بالقدوة الحسنة. فتاريخ الأستاذ فتح الله كولن قد وضع أهم خطوات هذا المنهج، من خلال الأساليب التي عامل بها الأستاذ تلامذته في المنامات أو في البيوت وفي المخيمات، لتنتقل هذه التجربة إلى القدر الواسع من الأطر التربوية. ومن هنا فإن للمعلم جملة من المميزات يجب أن يتحلى بها لكي يقوم بمهمته على الصورة المثلى. فالمربي شخص له استعداد لمرافقة المتعلم، وهو إنسان يقوم ببناء شخصية المتربي الأخلاقية وبناء سلوكه من أجل الوصول إلى استيعاب حقيقة خلقه، حتى يكون قادراً على تحمل المسؤولية وعلى التسامح.^(٢٦١) وليس معنى ذلك أن علاقة المربي بتلميذه تقف عند حدود المدرسة وحجرة الدرس، بل هي علاقة تستمر في البيت ومع العائلة. وذلك لأن هذا المربي يعتبر نفسه مسؤولاً عن تلميذه في المدرسة وخارج المدرسة. فعلى المربي تقع مسؤولية كبيرة جداً، ألا وهي إنشاء "الجيل الذهبي" وإنشاء "جيل الأمل"، وهذه المهمة تحتاج إلى مربٍ يعي دوره على أكمل وجه. ولذلك كانت المدرسة بمفهومها الشامل عند الأستاذ فتح الله كولن مختبراً لا يقوم بتقديم المعلومات والكفايات المعرفية فحسب، بل هي مؤسسة تعلّم المربي كيف يثير أسئلته الوجودية وأسئلة خلقه ودوره في هذا الوجود. ففي المدرسة يتعلم المتربي كل ما

^(٢٦١) انظر:

يتعلق بالحياة الدنيا والحياة الأخرى. ولكي تكون المدرسة مؤسسة ذات جودة عالية فإن المتعلم يجب أن يجد في المدرسة كل ما يريده من اهتمام وحب، ويجب أن يتقن لغته الأم، وأن يلقن التربية الروحية والقيم السامية، فالهوية الاجتماعية يجب أن تتأسس على هذه الأسس.^(٢٦٢)

يقول "رجب قَائِمًا قُجَانُ": "مدارس كولن هي مدارس خاصة، لذلك يحق لها اختيار معلمها من كافة الزوايا. فإن أعظم الفروق التي تراعيها هذه المدارس عند اختيار معلمها هو توظيف الناجحين في تخصصاتهم، والذين يجيدون تربية الإنسان تربية شمولية."^(٢٦٣)

المعلم أستاذ مقدس يصوغ الحياة ويرشد الأمة ويعلو بأخلاقها وشخصيتها، إنه هو من يعجن الأم والأب معا. وكل عجيب لم يخرج من يديه فلا طعم له. إنه بطل المحبة والتسامح الذي يعرف طلابه بجميع صفاتهم ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم.

وعلى العموم فإذا كان الأستاذ فتح الله يتحدث على أن غاية وجود الإنسان هو التبليغ، فإن المعلم وفق المعايير التي يضعها التصور الإسلامي هو أهمّ المبلّغين. وإذا كان الأستاذ يؤكد بأن التبليغ هو غاية وجودنا، فإن ما يقوم به المربي والمعلم هو عمق التبليغ. ولذلك فإن روح التبليغ ومعايره هي نفسها المعايير التي تؤطر مهمّة المدرس في رؤية الأستاذ. ومن أهم تلك العناصر نجد عنصر "التضحية". لقد انبنى المشروع التربوي للخدمة في كليته على التضحية بالمال والنفس والوقت

(262) M. FETHULLAH GULEN, ESSAIS, perspectives et opinions, p:80-81.

(٢٦٣) مفهوم التربية الشمولية ككولن، د. رجب قَائِمًا قُجَانُ، مؤتمر مستقبل الإصلاح في العالم

وأشياء كثيرة. لقد نجح الأستاذ بفضل تأثير خطابه من أن يغرس في عروق المعلمين حب التضحية، فهاجروا إلى المناطق النائية وتركوا الأهل وبذخ العيش ويسر الحياة، وغامروا بأرواحهم عندما اختاروا عن طواعية السفر إلى مناطق تعاني من الحروب ومن صعوبة الطقس والجغرافية القاسية للقيام بالمهمة المقدسة، وهي إنشاء "الجيل الذهبي".





المبحث الثالث: إنسان الحوار والتسامح في ضوء رؤية الأستاذ فتح الله كولن التربوية

أولاً: الخدمة وثقافة الحوار

الحوار والتسامح ليس مجرد شعار يرفع، أو جملة جميلة ينمق بها الخطاب أو يرصع بها كلام المنتديات، بل هو تربية وقيم ملتصقة بأجيال الأمل التي تربت في كنف فتح الله كولن وفي كنف الخدمة. والمتنعم في خطاب فتح الله سيجده خطاباً ينطلق من الأمل في المستقبل، بل هو خطاب يقيني بخصوص هذا المستقبل، وهي ميزة تميز الأستاذ فتح الله عن غيره من مفكرى الإصلاح في العالم العربي والإسلامي (على حد علمي). إذ لا نجد في خطابه نبرة يأس ولا شك في أن جميع الشروط قد اجتمعت من أجل انبعاث حضاري جديد، وبأن أفراد الأجيال المقبلة ستكون لهم كلمتهم، وبأن الإسلام سيحمل البلمس الشافي لكل مشاكل العالم، ولكل فرد من أفراد المجتمع الإنساني.

إن فكر فتح الله كولن مقبول في الغرب، وهذا عنصر يميز حركته عن أغلب الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي والعربي.. إذ إن خطابها عليه خطوط حمراء، فالحركة التي تعرف باسمه والتي أخذت في الالتفاف حوله في ستينيات القرن الماضي لا تعتبر تنظيمًا مهيكلًا له إدارة ومجالس

كما قد يظنّ البعض، بل هي مجرد فكرة آمن بها الناس وآمنوا بمعقوليتها، وشحنهم خطاب الأستاذ بروحانية خاصة، فانطلقوا ينفذون آماله التي هي في الحقيقة آمالهم -هم أنفسهم- الدفينة في أعماقهم.. حملوها جيلا بعد جيل، وسقاها الأستاذ كولن وتعهدّها بالرعاية كي تحيا وتنضج.

إن دعوة الخدمة نموذج يحتذى به في مجالات عديدة، منها مجال الانفتاح على العالم، لأن خطاب الخدمة خطاب مبشر وليس خطابا منفرا. ولذلك حث الأستاذ منذ الثمانينيات الأتراك على الهجرة إلى مناطق مختلفة من العالم. كانت البداية بآسيا الوسطى بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، ثم إلى أمريكا وأوربا وإفريقيا. وقد كانت المدارس والتعليم أهمّ الوسائل التي انفتحت بها الخدمة على كل هذه المناطق. فمؤسّسة المدرسة بكل هياكلها وسيلة فعالة في ربط روابط الحوار والتقارب بين الشعوب والثقافات من أجل مصلحة مشتركة واحدة.

ثانياً: منطلق الحوار، حيز مشترك

يرى الأستاذ أن جميع أفراد الإنسانية يشتركون في نقاء المشاعر وصفائها، إذ لا يختلف الناس حول حقيقة القيم السامية وحول تفسيرها. فالصدق هو الصدق في كل مكان، والأمانة هي الأمانة لا يختلف مفهومها عند كل الناس مهما اختلفت دياناتهم وعقائدهم وفلسفاتهم. فإن جميع أفراد الإنسانية يلتقون حول هذه القيم النبيلة السامية، ولا يختلفون حولها ولا يختلف تأويلهم لها كذلك. ولذلك وجب الاشتغال على هذا الحيز المشترك. فالقواسم المشتركة تشكل بالنسبة للأستاذ فتح الله رصيда مهمّاً يُفتح الحوار انطلاقاً منه وفي إطاره.

إن التربية والتعليم يبيان منطق الحوار والتسامح، إذ لا وجود لحوار دون حضور لرؤية الحوار والتسامح في صلب السلوك الإنساني وفي أصل ذهنيته، ولا سبيل إلى ترسيخ ذلك كله دون رؤية تربوية وخطة تعليمية واضحة.

القضية هنا هي قضية إنسان، فالإنسان هو الأساس.. والأستاذ فتح الله يعتقد بأن الأزمات التي عرفها العالم في القرون الأخيرة تسبب فيها الإنسان نفسه، لأنه انحرف عن المنهج الصحيح من خلال حصر زاوية النظر في الجانب المادي وفتح المجال أمام إشباع الرغبات المادية والجسدية، دون التفكير في إشباع الجانب الروحي.

في مقارنة لها بين كونفشيوس وأفلاطون والأستاذ فتح الله كولن تبين الأستاذة الدكتورة الأمريكية "جيل كارول" أن القاسم المشترك بين جميع الثلاثة هو اشتغالهم على الإنسان. وهم من خلال بحثهم عن هذا النموذج المثالي قد ركّزوا على التعليم والتربية من أجل الوصول إلى مبتغاهم هذا، فتقول: "التعليم هو القاعدة العامة التي يركز عليها أيّ جهد لتحقيق الإنسانية الكاملة أو المثالية... إلى درجة أنهم يقولون: إنه من دون العنصر التعليمي فإن صرح النظام بأكمله سينهار، بل والأكثر من ذلك أن كلاً منهم يحدد نوعاً من التعليم هو الذي سيحقق أقصى إمكانية للحصول على نوعية التهذيب للشخصية الإنسانية التي يسعى إليه كل منهم باختصار. يتفق كونفشيوس وأفلاطون وفتح الله كولن على أن التعليم القوي الموجه هو حجر الزاوية في تنمية الإنسان المثالي الأرقى. ومن ثم يجب صياغة الأطر الاجتماعية في الأساس حول آليات ذلك التعليم حتى يتمكن المجتمع من تكوين أعلى وأفضل زعمائه من داخله

هو^(٢٦٤).

وقد يكون بين هؤلاء بعض عناصر الالتقاء، لكن يبقى لكل واحد منهم عناصر تميزه عن الآخر. وأتصور بأن العنصر الذي يميز فتح الله كولن هو أن المهتم يستطيع الحكم على التجربة وتقييمها من خلال الملاحظة الواقعية المتمثلة في حركية الخدمة، وفي المدارس المنتشرة في كل مكان، ومن خلال النماذج البشرية المتحركة والمتفاعلة واقعياً، وهي نماذج لم تنزل من السماء، بل هي نتيجة منهج تربوي محدد. لكننا لا نستطيع محاكمة التجارب الأخرى نظراً لأننا لا نستطيع الحكم على ما قام به كل من كونفشيوس وأفلاطون تطبيقياً. ولهذا تبقى تجربة فتح الله تجربة حيّة تُجيب على كل الأسئلة المعرفية نظرياً وعملياً، وتجربة كونفشيوس وأفلاطون رصيدها النظري لا يسمح بتقييمها تقييماً سليماً. ومن أهم عناصر الاختلاف هو نظرة الأستاذ فتح الله كولن للإنسان.. إذ الإنسان بؤتفة مكوّنة من جوانب مادية ونفسية وعقلية ثم روحية. فهو كيان متكامل من خلال تكاثف كل هذه العناصر. وكل مكون من هذه المكونات يحتاج إلى بناء خاص دون تنافر مع العناصر الأخرى، لأن عملية البناء تسير متساوقة في كل الجوانب. وهذه العناصر كلها لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال تربية وتعليم قائم على رؤية دينية، إذ يقول الأستاذ فتح الله: "إن الإنسان ليس مخلوقاً يتكون من جسم فقط أو عقل أو مشاعر فقط أو روح فقط، بل هو عبارة عن مزيج منسجم من كل هذه العناصر. فكل واحد منّا له جسم ينطوي على مجموعة متشابكة من

(٢٦٤) محاورات حضارية، جيل كارول، ص: ١٠٦.

الحاجات، وكذا عقل له حاجات أكثر دقة وحيوية من الجسم. وتسيطر على العقل مخاوف بشأن الماضي والمستقبل... كما أن كل إنسان هو مخلوق مكون من مشاعر وروح نكتسب من خلالها هويتنا الإنسانية الفعلية، فكل فرد هو هذا كله معا. وعندما ينظر الإنسان -رجلا كان أم امرأة- باعتباره مخلوقا يحمل كل هذه الجوانب، وعندما يتم تلبية كل حاجاته فإنه سيصل إلى السعادة الحقيقية. وفي اللحظة الراهنة لا يمكن تحقيق التقدم والتطور الإنساني الحقيقي إلا بالتعليم^(٢٦٥).

وعلى العموم فإن الأستاذ يعتقد اعتقادا راسخا أن الإنسان يرقى بالتعليم، فأول واجبات الإنسان هو إدراك المعرفة، فالتربية والتعليم هي الوسيلة التي يرتقي بها الإنسان في مدارج الكمال، لأن الإنسان هو أرقى المخلوقات استعدادا.

ثالثا: الحوار والتسامح تربية لا مبادئ

وبناء على ما تقدم فإن قيم الحوار والتسامح وقبول الآخر هي مهمة التربية، ولذلك كانت التربية مقدسة وخطيرة في الوقت نفسه. فكما سبقت الإشارة إلى أن طبيعة القيم المنقولة إلى المتلقي بواسطة التربية تحدد طبيعة المخرجات، خاصة إذا تعلق الأمر بالطفولة التي هي في الأصل صفحة بيضاء يمكن للمربي أن يكتب عليها ما شاء.. ومن هنا فإن فكر التسامح والحوار وقضية زرع القيم في النشء من أجل المستقبل ترتبط شديد الارتباط بالإطار البشري القادر على نقل قيم هذه التربية. لأن القيم ليست معلومات تلقن، بل هي اقتناعات توجد في أصل الشخصية.

وبكلام آخر لا يمكن تصور وجود قيم الحوار في عقول وقلوب أفراد المجتمع الإنساني إذا لم يرتبط ذلك كله بالإطار التربوي المؤمن بهذه القيم، والمؤمن بضرورة أن تسود.. هذا هو أساس ما تبني عليه رؤية الأستاذ.

رابعاً: أنوار تركيا تشع على العالم

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الباب هو أن أفكار الأستاذ قد انطلقت وجرّبت في تركيا ونجحت، رغم كل ما كان هذا الواقع يعرفه من تناقضات وصراعات أيديولوجية وسياسية. لقد كان شعار الأستاذ دائماً هو نبذ الخلاف. وفي شرح قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ (الأنفال: ٤٦)، يقول: "تُخاطب هذه الآية المؤمنين فتوصيهم قائلة لا تدخلوا في أي نزاع مادي أو معنوي، بل حاولوا الاتحاد حول نقطة مشتركة ولا تقعوا في نزاع حتى لو كان حول أمر إيجابي، ولا تدعوا الحسد ولا التنافس ولا الغبطة أن تقودكم إلى النزاع، وإلا فشلتكم وذهبت قوتكم. إن ثمره العمل الفردي تبقى في مستوى الفرد، أمّا الأعمال المنفّذة في ظلّ وحدة الجماعة فتكافأ برحمة الله تعالى، وهكذا يكتسب كلّ فرد ثواب جماعة كاملة" (٢٦٦).

بفضل هذا التصور الحركي المتميز استطاع فتح الله أن يجمع ما يستحيل جمعه. إذ لو تعلق الأمر برؤية تتعصب لذاتها وتنطلق من منطوق المركزية لما استطاعت التجربة أن تحقق ما حققته من نجاح. ولذلك فإن نجاح التجربة محلياً أعطتها المشروعية لتجرّب خارجياً. وهنا ينبغي الوقوف عند ملاحظة مهمة وهي الدعوة التي ووجهها الأستاذ إلى المجتمع

(٢٦٦) أسئلة العصر المحيرة، فتح الله كولن، ص: ٢٤٤.

التركي وخاصة ما يطلق عليهم في اصطلاحات الخدمة "الأصناف" ورجال المال والاقتصاد بأن يتوجهوا إلى مختلف مناطق العالم من أجل نقل رسالة سامية هي رسالة القيم الأخلاقية الإنسانية السامية، وقيم الحب والتسامح والسلام. كان هؤلاء بمثابة العنصر الممهد لمرحلة أخرى زاهرة هي مرحلة وضع أسس بناء مجتمع إنساني متسامح.

يؤكد الأستاذ فتح الله أن موضوع التربية يتشكل من ثلاثة جوانب؛ الجانب الأول إنساني نفسي، والجانب الثاني وطني اجتماعي، والجانب الثالث جانب عالمي. ومن خلاله يعتبر الأستاذ أن الشرق المتشعب بثقافته الأصيلة والمتشعب بهويته الذاتية يستطيع تقديم قيمة إضافية للغرب الذي أعلن القطيعة منذ زمن بعيد مع الدين ومع القيم، وأعلن الولاء للأناية الفردية، وأعلن المادية شعاراً، والانفصام بين الدين والعلم مذهباً، واعتبر العلم قضية مادية صرفاً ليس للدين فيها أي دخل.

يؤمن الأستاذ بأن أهم ما يمكن للمسلمين بكل موضوعية تقديمه للغرب ولثقافته هو نظرة الإسلام للإنسان على أساس تكوينه المركب. فالقرآن الكريم باعتباره خطاباً للناس لا يتعارض مطلقاً مع العلم، وبعبارة أخرى كما يقول الأستاذ الوجود أو الكون هو قرآن واسع، وأما القرآن فهو من زاوية أخرى كون جرى ترميزه (أي تحويله إلى رموز كتبت) على الورق أو في المصحف.^(٢٦٧)

كل هذا يؤكد بأن لا تعارض بين القرآن -أو الدين بصفة عامة- والعلم، ومن هنا يتأكد كذلك أن لا تعارض بين العلم والعقل. ولما كان

العلم غير متعارض مع الدين، فإن الدين لا يتعارض مع العقل، بمعنى أن الحقيقة الدينية تساند الحقيقة العلمية وتدعمها. إضافة إلى أن الحقيقة العلمية إذا كانت سليمة فلن تكون متعارضة مع القرآن.

على هذا الأساس ينبغي أن تتأسس التربية ويتأسس التعليم والمدرسة. فكل من التربية والتعليم والمدرسة مطالبون عند الأستاذ بالأخذ بهذه الرؤية في القيام بمهمتها المقدسة، أي بأن تجعل المؤسسة التعليمية بكافة مكوناتها القيم والأخلاق محركا لكل ما تمثله المدرسة، وأن تحرص في الوقت نفسه على جعل المتعلم يتذوق حقيقة العلاقة التي تربط الدين بصفة عامة بالعلم والمعرفة. ولهذا فإن القيمة المضافة للمدرسة هي إنشاء أجيال متعلمة مسلحة بالقيم والأخلاق معترفة بعلاقة الوجود بخالقه، ومسلحة في الوقت نفسه بالعلم.

للمدرسة دور آخر مهم وهو دور نشر التسامح والتعايش وقبول الآخر. فهذه المدارس المنتشرة عبر مناطق مختلفة من العالم والتي يزيد عددها عن الألفي مدرسة، تراهن على التسامح والحوار. ويقوم بذلك إطار بشري ينظر للحياة نظرة إيجابية، ونظرة إصلاح وتصحيح. فهذا النموذج الإنساني نموذج يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ويلغي ذاته في سبيل المجموع، بل مستعد لأن يهاجر في سبيل هذا الأمل، وهو قبل كل شيء متطوع من أجل إنجاز مهمته. وهنا تبرز بصورة قوية فلسفة التبليغ عند الأستاذ وعند النموذج الإنساني الذي تكوّن في المدرسة الفكرية لفتح الله كولن. هذا النموذج الإنساني يعلم جيدا بأنه مسؤول بمهمة سامية ونبيلة هي مهمة إصلاح العالم وحمل إكسبير المحبة والأخوة الإنسانية إلى كل مكان. ولذلك فإن الأجر الحقيقي هو أن ينجح

في مهمته وأن ينال أجر خالقه. فكل مدرسة تُفتَح في أي مكان من العالم هي لبنة تضاف إلى هذا المشروع الإنساني النبيل الذي بدأ الأستاذ فتح الله يبني قواعده وأساسه منذ ما يزيد عن خمسين سنة.

خامساً؛ صورة مثالية لمهاجر التربية

يبدو هذا الكلام مثالياً وبعيدا عن الواقعية، ولكنه في الحقيقة مثالي في واقعيته، لأنه قطع مراحل طويلة في طريق تحويل الفكر إلى منجز حضاري يتجاوز المحلية إلى العالمية مبشرا بعالم جديد، وتتجاوز فيه الخلافات والنزاعات، يقول الأستاذ فريد الأنصاري رحمه الله: "لولا أنّي رأيتهم لقلت إنه مجرد وهم أو هراء أو خيال.. ظلال نورية لجيل الصحابة الكرام، جمعوا بين خصلتين عظيمتين من خصالهم الكبيرة: الهجرة والنصرة. فلم يكن منهم مهاجرون وأنصار، بل كانوا مهاجرين أنصاراً، وللصحابة فضلهم الذي لا يبارى! الهجرة إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ كلمات تتلفظ بها الأفواه، ولكن قلّما تعيها القلوب. فأن يترك الفتى حياة الراحة والدعة وبريق المدينة الجذاب، ثم يضرب في الأرض ليغوص في غربة بعيدة، يحمل في يده قنديلا من نور، بحثاً عن المستضعفين في بقاع الأرض من أجل إطعامهم جرعة من رحيق الحياة، فيتحمّل في سبيل ذلك فناء نفسه وذويان ذاته ونسيان دنياه. فتلك تجربة روحية لا يعرفها حقاً إلا من عاناها، وإنها لعقبة دونها عقبات، تنتصب في مدارج المجاهدات"^(٢٦٨).

هذا و"الن تجد عند أمثال هؤلاء شعارات تُفَرِّقُ ولا تجمع، وتشتت

^(٢٦٨) "رجال ولا كأي رجال"، فريد الأنصاري، مجلة حراء، العدد: ١٣، (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

ولا توحد، وتقود إلى النزاع من أمثال "هم" و "نحن" أو "أنصارنا" و"أنصارهم". ولا توجد عندهم أي مشكلة ظاهرية أو خفية مع أحد. ليس هذا فحسب، بل تراهم في سعي دائم ليكونوا ذوي فائدة لكل من حولهم، ويبدون عناية فائقة لعدم إثارة أي مشاكل أو حساسيات في المجتمع الذي يعيشون فيه. وعندما يرون سلبيات في مجتمعهم فلا يتصرفون كُمحاربين غلاظ، بل كُمُرشدِين رحماء.. يقومون بدعوة الأفراد إلى الأخلاق والفاضلة، ويسعون في هذه السبيل سعياً حثيثاً، ويبدلون ما بوسعهم للابتعاد عن فكرة الحصول على نفوذ سياسي أو الوصول إلى مناصب مختلفة مهما كان الثمن وأياً كان الأسلوب"^(٢٦٩).

تعطي هذه الصورة القلبية لهؤلاء الانطباع بأننا أمام قصص خيالية، فأن يترك رجال وطنهم بنية الهجرة التي لا عودة بعدها، وأن يهاجر إلى أبعد المناطق وأخطرها من أجل فكرة آمن بها، وأن يهاجر رجل أعمالٍ ليساهم في بناء مدرسة ويكون الراعي لها، لهو ضرب من الخيال لكنه واقع حاصل، ولهذه الأسباب ينبغي دراسة الظاهرة وتحليلها. يقول الأستاذ فتح الله كولن في هذا الصدد: "إن هذه الحركة ظاهرة يجب أن تُشرح ويتم الوقوف عندها بشكل جدي.. فقد قررت فئة قليلة ملك الحب قلبها أن تنطلق لنيل رضاه تعالى إلى المشرق وإلى المغرب وإلى أرجاء الأرض جميعاً في وقت لم يخطر فيه هذا بخاطر أحد.. انطلقت دون أن تهتم بآلام الغربة وبفراق الأحبة، ملؤها العزم والثقة... طوت في أفئدتها بعشق خدمة الإيمان لواعج الفراق، وحبّ الوطن، وآلام فراق الأهل والأحبة..."

^(٢٦٩) "أرواح نذرت نفسها للحق"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٩ (أبريل-يونيو ٢٠١٠).

قليل من الناس شعروا مثلهم وعاشوا الجهاد في سبيل الله مثلهم وقالوا وهم ينتشرون في المغرب وفي المشرق مثلما قال حواريو الرسل "خُصْنَا دروب الحبّ فنحن مجانين" (الشاعر نيكاري)... ذهبوا وهم في ميعة الشباب يحملون آمالاً وأشواقاً دنيوية تشتعل في قلب كل شاب والتي لها جذبية لا تقاوم فضلاً عن هذه الفترة النظرة من مرحلة الشاب.. ذهبوا في عصر طفت فيه المادية والأحاسيس الجسمانية على المشاعر الإنسانية، وهم يكتبون تلك المشاعر والآمال المشتعلة في صدورهم باشتياق إلى وصال آخر أقوى منها وأكثر التهاّباً وتوهجاً، وهم ينتشرون في مشارق الأرض ومغاربها ويسيحون حاملين في أفئدتهم تلك الجدوة المشتعلة من نشوة الرعيل الأول. لم تكن هذه السياحة من ذلك النوع الذي يهيم به الشاب في مرحلة مراهقته خلف حلم ملكة جمال مزيفة ويعيش طوال عمره بسداجة في أوهام وخيالات آلام الفراق، مبتعداً عن ذاته ولا يستطيع الوصول أبداً إلى مبتغاه. بل إن سياحة هؤلاء الأفاضل سياحة واعية ملؤها المشاعر الصادقة والإرادة الحازمة والإخلاص الصادق العميق... ويمكنكم أن تعبروا عن هذا بأنهم المستعلون على كل حبّ سواه تعالى، المجاهدون في سبيل دعوتهم، ديناميكيتهم الإيمان دوماً، وأحوالهم الطبيعية العشق، ومبتغاهم نذر أنفسهم لله تعالى، وأسوتهم النور الخالد ﷺ. أجل!.. لم يتعثر هؤلاء لطبع أنفسهم ولم يستسلموا أمام العراقيل. الحب الوحيد الذي لم ييهت في أفئدتهم كان حب الله ومحاوله كسب رضاه، والوصول إلى الحق تعالى. لذا شدّوا رحالهم إلى أبعد زوايا العالم. ساروا في هذا الطريق، فافتخر بهم الطريق، وسعد بهم الربانيون، وشقي بهم الشياطين.. ساروا دون خيل ولا عربة، لا سلاح لهم ولا

ذخيرة... الإيمان العميق الذي كان يعمر قلوبهم ويتفجر فيها كالحمم كان منبع قوتهم وقدرتهم.. وهدفهم المرسوم في آفاقهم سعادة الإنسانية ورضوان الله تعالى.. حظوظهم كحظوظ الحواريين والصحابه.. وصلوا في عفتهم وطهرهم إلى عفة الملائكة الأطهار، وسجلوا ذكريات ملاحم لا تنسى ولا تمحى" (٢٧٠).

تدل هذه الأوصاف على مدى قيمة هؤلاء الرجال عند أستاذهم الذي يعترف لهم بالفضل، وهي خصلة نادرة لا يتصف بها سوى العظماء الذين يحترقون كالشمعة من أجل أن تنير قلوب الآخرين. فالأستاذ لا يرجع الفضل إليه بل يرجعه لهؤلاء الذين انطلقوا يجوبون الآفاق. فهم صورة من أستاذهم حينما ينكرون ذاتهم ويسندون الفضل لغيرهم، وبذلك يتأكد أن ما آمن به هؤلاء هو فعلا مجرد فكرة معقولة أطلقها رجل رباني فأحدث أثرا بليغا هو هؤلاء الرجال وهذه المؤسسات وهذه المدارس.. وهؤلاء هم الذين سيثيدون صرح الحضارة الإنسانية بالحوار والتسامح، وسيجدون من أجل تحقيق ذلك في كل مرة ألف وسيلة ووسيلة.. وكما نجحوا في غرس فسيلة المدارس في كل مكان في هذا العالم واستطاعوا التكيف مع واقع وثقافة كل بلد على حدة، دون الحياض عن الجوهر الذي يسترشدون به رغم المصاعب والعراقيل، سينجحون في ميادين أخرى.

هؤلاء هم فسائل "الإنسان الجديد" الذي بشر به الأستاذ في مقالته التي تحمل العنوان نفسه، وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي هل هؤلاء هم "الإنسان الجديد" أم هم مجرد مقدمة له؟ والجواب هو أن الأستاذ يقصد

في مقالته هؤلاء الرجال، ولأنهم ثمرة طيبة تؤتي أكلها كل حين، فإنهم بما يحملونه من صفات ومميزات سيساهمون في بناء "الإنسان الجديد" بما سيغرسونه من قيم ومبادئ في قلوب من يذهبون إليهم ومن يستقبلونهم في مدارسهم ومن سيزورونهم في بيوتهم. إنهم بناء العهد الجديد، يقول الأستاذ: "نحن اليوم على مشارف عهد جديد في مسيرة تاريخ الإنسانية، متفتح على تجليات العناية الربانية. لقد كان القرن الثامن عشر، بالنسبة لعالمنا، قرن التقليد الأعمى والمبتعدين عن جوهرهم وكيانهم؛ وكان القرن التاسع عشر، قرن الذين انجرفوا خلف شتى أنواع الفانتازيات واصطدموا بماضيهم ومقوماتهم التاريخية؛ والقرن العشرون، كان قرن المغتربين عن أنفسهم كلياً والمنكرين لذواتهم وهويتهم، قرن الذين ظلوا يُنقَّبون عن مَنْ يرشدهم وينير لهم الطريق في عالمٍ غير عالمهم. ولكن جميع الأمارات والعلامات التي تلوح في الأفق تبشر بأن القرن الواحد والعشرين، سيكون قرن الإيمان والمؤمنين، وعصر انبعاثنا ونهضتنا من جديد." (٢٧١)

لقد تحقق على يده هؤلاء كما يرى الأستاذ بناء صروح الحوار. ولذلك تلمس في خطابه أن عهداً جديداً يلوح في الأفق ملؤه المحبة والتآخي والحوار والعمل من أجل مصلحة الإنسان في كل مكان. فعلى الجميع أن يكون متيقناً كيقين الأستاذ فتح الله بأنه قد تم تجاوز العراقيل الموجودة بين القارات بفضل القرآن، وتحقق حوار مستند إلى الحب وإلى التوقير.. وتأسست وستأسس أرضية لتفاهم جديد بفضل هؤلاء الربانيين. لقد

عرفت الإنسانية في الماضي أمتنا بأنها أمة مستبشرة قد ضحك لها حظها، فما المانع أن تكون اليوم أيضاً كما كان الحال من قبل؟ بينما نرى أن شللاً من الحب بدأ يهدر فعلاً بين الناس في كل مكان وصل إليه هؤلاء المهاجرون في سبيل غايتهم. ففي كل مكان، وفي كل موضع يهب نسيم من الطمأنينة والسكينة يشعر به الجميع. والأكثر من هذا فقد تكونت في كل ناحية وجانب ما نطلق عليه وصف جزر السلام والمحبة على أسس مستقرة ومتمينة. من يدري فقد يتحقق في المستقبل القريب بفضل هؤلاء المخلصين الناذرين أنفسهم لفكر البعث والإحياء تأسيس الصلح بين العقل والقلب مرة أخرى. فيكون كل من الوجدان والمنطق أحدهما بُعداً مختلفاً للآخر، وتوضع نهاية للنزاع بين ما هو مادي وما هو ميتافيزيقي، حيث ينسحب كل منهما لساحته ويجري كل شيء في طبيعته وماهيته، ويجد إمكانية التعبير عن نفسه وعن صور جماله بلسانه. ويتم اكتشاف التداخل الموجود بين الأوامر التشريعية والأسس التكوينية من جديد، ويشعر الناس بالندم على ما جرى بينهم من خصام وعداء لا موجب له، وسيسود جو من السكينة والهدوء -الذي لم يتحقق تماماً حتى الآن- في الشارع وفي السوق وفي المدرسة وفي البيت، وتهب نسائمه على جميع البشرية. لن يُنتَهَكَ عرض، ولن يُداسَ على شرف، بل سيسود الاحترام القلوب، فلا يطمع إنسان في مال إنسان آخر، ولا ينظر نظرة خيانة إلى شرف آخر. سيصبح الأقوياء عادلين، وسيجد الضعفاء والعاجزون فرصة في حياة كريمة. لن يُعْتَقَلَ أحد لمجرد الظن.. لن يتعرّض مسكن أحد ولا محل عمله لهجوم.. لن تُرَاقَ دَمُ أي برئ.. لن يبكي أي مظلوم. سيَجَلُّ الجميعُ اللهَ تعالى وسيحبُّ الناسُ... حينذاك فقط ستكون هذه الدنيا التي

هي معبر للجنة فردوسًا لا يُملُّ العيشُ فيه" (٢٧٢).

إن أهم ميزة تتميز بها هؤلاء الأبطال المهاجرون هي أنهم قد اختاروا عن طواعية أن يكون مكان هجرتهم هو مكان قبرهم لا يتراجعون عن ذلك وهم لا يتزحزون عن هذا الاختيار الذي هو سبب وجودهم. ولذلك فهم لا ينتظرون الأجر الدنيوي، بل غاية المنى عندهم هي أن يكون عملهم خاصًا لوجه الله تعالى، يقول الأستاذ فتح الله: "إن أهم جانب يستدعي النظر ويجلب التقدير والإعجاب عند الأبطال الذين أحبوا الله تعالى ونذروا حياتهم في سبيل رضاه وارتبطوا بغاية مثلى هي نيل محبته.. إن أهم جانب لدى هؤلاء الأبطال وأهم مصدر من مصادر قوتهم، هو أنهم لا يبتغون ولا ينتظرون أي أجر مادي أو معنوي. ولن تجد في خططهم وحساباتهم أنهم يعيرون أهمية لأمر يسعى طلاب الدنيا للحصول عليها كالأموال والأرباح والثروة والرفاهية... هذه الأمور لا تشكل عندهم أي قيمة، ولا يقبلون أن تُشكل عندهم أي مقياس" (٢٧٣). لأن المقياس الوحيد عندهم هو نجاحهم في مهمّة السفارة التي كلّفوا بها، ليسوا كسفراء الدول المعتمدين الذين يبذلون ما في وسعهم من أجل الحفاظ على مصالح بلادهم ويجتهدون أيما اجتهاد من أجل النجاح في مهامهم فيرجعون في يوم من الأيام إلى وطنهم، بل هؤلاء لا يرجعون، لأنهم هاجروا، ولأن دولتهم الحقيقية دولة معنوية ترتفع فوق الدولة بمفهومها المادي.. إن دولتهم هي المحبّة والأخوة ومبادئ التسامح

(٢٧٢) "أرواح نذرت نفسها للحق"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٩ (أبريل-يونيو ٢٠١٠).

(٢٧٣) "أرواح نذرت نفسها للحق"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ١٩ (أبريل-يونيو ٢٠١٠).

والحوار والاحترام المتبادل، فيسعون "نحو سلطنة القلوب"^(٢٧٤).
والحديث عن الحوار والتسامح والنظر إلى الإنسان باعتبار إنسانيته
لا باعتبار دينه ولونه وجنسه في حالة هؤلاء ليس مجرد شعار بل هو
حقيقة، تشهد عليه العديد من التجارب في مناطق مختلفة من العالم
معروفة بمشكلاتها العرقية والإثنية وحتى الصراعات ذات الطابع الديني،
لكن هذه المدارس استطاعت جمع المتناقضات واستطاعت دمج الكل
في بوتقة واحدة. وهذا هو ما تبيّنه إحصائية قديمة لعدد المدارس وعدد
الطلبة ونسب حضور غير المسلمين فيها.

اسم البلد	عدد المدارس	عدد الطلاب	نسبة المسلمين	نسبة غير المسلمين
كازاخستان	٢٩	٨٢٨٤	%٨٠	%٢٠
أفغانستان	٦	٢١٤١	%١٠٠	
الفلبين	٥	٦٩٤	%٤٥	%٦٥
تايلاند	٤	١١٩١	%١٠	%٩٠
إندونيسيا	٥	١٢١٦	%٩٩	%١
أستراليا	١٠	٢٦٥٥	%٩٤	%٤
مقدونيا	٤	٤٠٠	%٤٤	%٢٦
نيجيريا	٤	١٤٤٦	%٦٥	%٤٥
السنغال	٤	٦٤٠	%٩٠	%١٠
النيجر	٤	٤٥٠	%٩٩	%١
المغرب	٥	٨٤٤	%١٠٠	

^(٢٧٤) مقال "نحو سلطنة القلوب"، فتح الله كولن، مجلة حراء، العدد: ٢٨ (يناير-فبراير ٢٠١٢).

٤	٩٤٦	%٢٥	%٤٥	كينيا
٤	١٠٢٠	%٤٥	%٦٥	أفريقيا الجنوبية
٥	١٠٢٤	%٢٠	%٨٠	مونغولستان
٤	٢٨٥	%١٠٠		السودان
١٤	٢٨٣٣	%٩٤	%٤	ألبانيا
١٤	٤٤٤٥	%٩٩	%١	باكستان

تبين هذه الإحصائيات التي تعود لتاريخ ٢٠٠٤-٢٠٠٨ أن هذه المدارس تراعي الخصوصية المحلية، إذ تجد فيها المسلمين مع غير المسلمين بل في بعض المدارس تجد أن المسلمين هم أقلية. فوجود طلبة مسلمين إلى جانب طلبة غير مسلمين يؤكد ما أشير إليه سالفًا.

سادسًا: المدارس في البحث العلمي

وفي الختام لا بد من أن نشير إلى أن العديد من الدراسات والبحوث والندوات قد تعرضت لتجربة المدارس ومساهماتها في الحوار وفي نشر فكر التسامح بين الناس، خاصة في المناطق التي تعاني من مشاكل وصراعات طائفية وعرقية ودينية. فعلى سبيل المثال تعطي "المدرسة التركية الفلبينية للتسامح" نموذجًا حيًا لما يمكن للمدرسة تقديمه، وتؤكد بعض الدراسات نجاح التجربة في بناء صرح من الحوار والتعايش بين التلاميذ وهو ما انتقل بعد ذلك إلى الأولياء فصارت المدرسة إطارًا يتناسون فيه صراعاتهم ويقبلون فيه بعضهم البعض. ونجحت مثل هذه المدارس في تحويل الصراعات والخلاف الأيديولوجي في شمال العراق

إلى بحث عن القواسم المشتركة بدل البحث عما يفرق.^(٢٧٥)
ولا يفوتني التذكير بتجربة "شارتر سكول" في الولايات المتحدة
الأمريكية التي تحتاج وحدها إلى وقفة خاصة أتمنى أن تتاح الفرصة
للقيام بذلك في وقت لاحق.



^(٢٧٥) للتوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى العديد من الدراسات منها:

الفصل الخامس:

**المثقف العربي وفكر الأستاذ فتح الله كولن
الأسئلة وأفق الانتظار**



المثقف العربي وفكر الأستاذ فتح الله كولن^(٢٧٦)

أولاً: تركيا والمثقف العربي

كيف ينظر المثقف العربي إلى تركيا؟ سؤال مهم جداً، لعوامل عدة، أهمها عامل الموقع الذي شغلته تركيا من خلال الدولة العثمانية في العالم العربي. وبغض النظر عن موقف العرب من الدولة العثمانية وموقف الأتراك أنفسهم من العرب، فإن الدولة العثمانية كانت عنصر توحيد. فقد استطاع الأتراك العثمانيون حماية استقلال العديد من الدول العربية لمدة ليست بالقصيرة. ولم تكن الدولة العثمانية تميز بين رعاياها، لكن القطيعة بين العالم العربي وتركيا بعد سقوط الدولة العثمانية وقيام الجمهورية التركية، وسَّع الهوة بين العالم العربي وتركيا إلى درجة العداء.

ظلت تركيا بعد الثورة مجهولة للعالم العربي لعدة عقود، بسبب مواقف الموقف الرسمي التركي من العرب، فقد أقام سياج القطيعة السياسية والثقافية بين تركيا والعالم العربي، وساهمت القطيعة مع الماضي وما

^(٢٧٦) لقد كتب هذا المقال بعد قراءة لمجموعة من المقالات الصحفية التي كتبت في الصحافة العربية عن مشروع الأستاذ فتح الله كولن، إضافة إلى كُتب ودراسات ألفت من قبل مفكرين وأكاديميين من العالم العربي، ومؤتمرات وندوات وأنشطة علمية أخرى أُقيمت في مناطق مختلفة من العالم العربي والإسلامي.

يذكّر به في تعميق بقاء العالم العربي معزولا عن تركيا.

لم تكن الإشكالات الحضارية في تركيا مختلفة عن إشكالات العالم العربي، لكن أسئلة التطور والعلاقة مع الغرب، وأسئلة الأخذ بأسباب النهضة والانبعاث أثّرت في تركيا سنوات كثيرة قبل أن تثار في العالم العربي، في حين أن المفكر الإصلاحي العربي لم يكن يعرف الكثير عمّا كان يجري في تركيا، ولم يكن يعرف الكثير عن الحركات الفكرية التي كانت مراميها الإصلاحية تتجاوز الخلافة والدولة العثمانية. كانت الدولة العثمانية رأسا والعالم العربي جزء من الجسد، فعمل أعداء الدولة العثمانية على الفصل بينهما، فكانت دعوات التحديث في تركيا متقدمة عن دعوات العالم العربي.

الأحداث الجسام التي عرفتها تركيا في القرن الماضي أكسبتها مناعة وقوة، واستطاعت بفضل ذلك أن تشقّ لنفسها طريقا متوازنا وواضحا. فتركيا اليوم تستطيع أن تؤثر حضاريا وثقافيا في محيطها، وهي اليوم من أهم ديمقراطيات العالم. لقد أصبحت تركيا محط اهتمام المثقف العربي ومتابعته منذ ثمانينيات القرن الماضي بعد التحولات التي عرفتها في مسيرة ترسيخ التقاليد الديمقراطية.

هذه الخصوصيات وغيرها تمثل للمثقف العربي مجالا جديرا بالاهتمام. فهل بمقدور تركيا المساهمة في الإجابة عن أسئلة العالم العربي المتعلقة بالنهضة والانبعاث؟

يُعتبر الإنسان العربي تركيا دولة متقدمة تسترعي الانتباه، ويتابع أحداثها، وتحفز فيه مشاعر خاصة، وتساؤلات دقيقة عن أسباب نهضتها وانبعاثها، وتدفعه إلى إعادة طرح الأسئلة الوجودية القديمة الحاضرة،

التي أثّرت قبل مائتي سنة أو أكثر، ولسان حاله يقول "لا شك أن لهذه النهضة أسبابا لا أسراراً".

تدرك النخبة المثقفة أن خلف هذا النشاط حركة فكرية ناضجة وثقافة قوية تديرها حركة مجتمعية ناضجة، تتجلى بعض مظاهرها في المشاركة المكثفة في انتخابات تعديل بعض بنود الدستور الأخيرة. وداخل هذا الزخم من الأسئلة يبرز عنوان كبير هو "حركة فتح الله كولن" أو "الخدمة" كما يصطلح عليها اجتماعياً، ويبرز من خلال هذا العنوان الكبير عنصران مهمّان هما "فتح الله كولن" و"الخدمة".

ثانياً: المثقف العربي يتعرف على فكر الأستاذ فتح الله كولن

أول ما يلفت انتباه المثقف العربي هو اكتشاف مفكر وعالم ومثقف ومصالح مختلف عن طينة دعاة الإصلاح في العالم العربي. وأهم ما يقف عليه في شخصية الأستاذ فتح الله كولن هو البعد الحركي في مشروع إصلاح اجتماعي متكامل انخرط فيه جزء مهم من المجتمع.

انتبه المثقف العربي إلى تلك المؤسسات التربوية والثقافية والفكرية والإعلامية والاقتصادية ذات الوجه الحضاري المشرق، وانتبه إلى كون الأستاذ مجرد مفكر اقتنع الناس بمعقولية أفكاره فأمنوا بها وبمعقوليتها، وانطلقوا يحولون الأفكار إلى مؤسسات أبعادها حضارية وإشعاعها عالمي. ومرد ذلك هو ربط الأستاذ في مشروعه الإصلاحية بين الفكر والحركة بالحرص على إقناع مكونات المجتمع بأن الفكر في حد ذاته ليس له قيمة إن ظل حبيس الأذهان والكتب والرفوف دون أن يتحول إلى حركية مبدعة تشهد عليه مؤسسات تعود بالنفع على جميع مكونات

المجتمع وعلى مؤسساته.

اشتغل الأستاذ فتح الله طيلة حياته على غرس قيمة حب الوطن في قلوب أفراد المجتمع التركي، وحب الإنسان باعتباره أحد مخلوقاته تعالى، دون أن يكون لهذا الأمر أي ارتباط بالسياسة، لأن الأستاذ مقاطع عمليا للسياسية، ويؤمن بأن الأسلوب الذي تُدبَّر به السياسة يفرِّق الناس شيئا وفرقا متناحرة، في الوقت الذي يؤمن هو بما يوحد ويجمع. ودليل ذلك هو حملة الحوار التي دعا إليها في بداية السبعينات من القرن الماضي مختلف الفرقاء والتيارات الفكرية والسياسية لفتح مجال للحوار والنقاش والالتقاء حول الحيز المشترك الذي يوحد في العمق بين مختلف مكونات المجتمع وهو حب تركيا.

ثالثاً: صدمة الاكتشاف

رَسَخ في "لا شعور" الإنسان العربي إحساس عميق باليأس من قدرة الذات على تحقيق ما تصبو إليه من بعث ونهضة، ووصل الماضي بالحاضر، والانطلاق إلى المستقبل. وظلَّت الكثير من أدبيات الإصلاح لا تتجاوز إطار النظرية على مدى مائة وخمسين سنة أو أكثر، ولم تستطع أغلب المشاريع تنزيل أفكارها إلى الواقع، ولم تربط الفكر بالحركية، بل لقد ظل المثقف الإصلاحى حبيس سلوك سَلَخ ذاته وتحميلها مسؤولية أزمة حضارية مستمرة، فأفقد الإنسان العربي الأمل في المستقبل. ولذلك فإن أفقا مختلفا فُتِح أمام المثقف العربي بتعرفه على فكر الأستاذ فتح الله كولن وعلى "الخدمة" التي جعلته يلامس فكرا متقدما يراعي خصوصية الذات وهويتها الفكرية والثقافية، ويأخذ كينونتها بعين الاعتبار في

مجالات مدنية مختلفة تساهم بفعالية في الحياة الثقافية والاجتماعية، والاقتصادية لتركيا. ولم تستأثر بنجاحاتها فخرجت إلى العالم ترفع شعار محبة الإنسانية بغض النظر عن الدين والعرق والجنس، شعارها في ذلك من أجل عالم يسوده التسامح والسلام.

المجتمعات العربية لم تقدم للإنسانية شيئاً يذكر منذ ما يزيد عن ثلاثة قرون خلت، هذا هو شعور المثقف العربي. لكن معرفة الخدمة ومؤسساتها المدنية بدّد بعضاً من هذا الإحساس، بعد أن أصيب بصدمة معرفية يمكن أن نطلق عليها "صدمة الاكتشاف" التي تلخص إحساس اكتشاف الخدمة، هذا ما توحى به أغلب - إن لم نقل كل - المقالات والأعمدة التي حررها هؤلاء المثقفون الذين رغم انتمائهم إلى اتجاهات فكرية وثقافية كثيرة، يتفقون على الحكم نفسه، وهو اكتشاف صورة حضارية هي في الحقيقة منجز سلطة معرفية إصلاحية للأستاذ فتح الله كولن.

إن النتيجة المباشرة لهذه الصدمة هي خلخلة العديد من الأفكار النمطية التي قيدت ذهنية المثقف العربي وفكره لقرنين أو أكثر. لقد استطاع التحرر من نمطية فكرية يائسة، واستعاد الثقة في كون عقل الذات الإبداعي يستطيع الانبعاث من جديد إذا ارتبط بالسنن الكونية. فتبديد اليأس وبناء الثقة في المستقبل وزرع الأمل أهم ما يخرج به المثقف العربي من تجربة الاكتشاف، لأن الثقة في الذات وفي قدرتها على الفعل والحركة عناصر أساسية في منهج الأستاذ فتح الله كولن الإصلاحي وفي رؤيته للوجود. فهو يؤمن بأن القرن الواحد والعشرين سيكون قرن الإنسانية المؤمنة، لأنها ستحمل الدواء للإنسانية كلها، ويعتقد كذلك أن إنسان المجتمعات المسلمة - وخاصة الفتية منها - سيكون في القابل

القريب صاحب القول الفصل في الألفية الثالثة. (٢٧٧)

رابعاً: معايير تفاعل المثقف مع شخصية الأستاذ

ما الذي استرعى انتباه المثقف العربي في فكر الأستاذ فتح الله كولن وفي "الخدمة"؟ وبعبارة أخرى ما المعايير التي تجعل من شخصية ما شخصية جديرة بالاهتمام؟
هناك معايير كثيرة لكن أهمها:

أولاً: معيار الحضور الفكري لزمن طويل دون انقطاع. وهي حال تنطبق على الأستاذ فتح الله كولن الذي ظل حضوره الفكري والحركي مستمرا منذ ستينيات القرن الماضي دون انقطاع، وهو اليوم في سن السبعين لكنه ما يزال نشيطا قادرا على الإبداع الفكري وعلى صناعة الأفكار.

لقد أثر هذا العامل في المثقف العربي، ولفت انتباهه ما في هذا الحضور من العمق والمنهجية والأصالة مع المرونة والمعقولية المتوازنة التي تراعي خصوصية العصر.

ثانياً: معيار مدى انتشار رؤى الشخصية الفكرية ومدى تأثيرها، والأستاذ فتح الله كولن بطل في هذا المجال، إذ اختير أول شخصية مؤثرة في القرن الماضي. الأمر الذي زاد من اهتمام المهتمين به. فالخدمة وفكر الأستاذ هما اليوم موضوعان للدرس عند عدد واسع من الباحثين والدارسين والمفكرين من علماء الاجتماع والفكر والفلسفة والأدب. ومن النادر أن تجد مفكرا مسلما يحظى باهتمام المثقف الغربي وخاصة

(٢٧٧) انظر: ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص: ٤.

المثقف الأمريكي كما هو الحال مع الأستاذ. لقد ساهم هذا العامل في تعميق اهتمام المثقف العربي بشخصية الأستاذ فتح الله كولن.

ثالثاً: معيار انتشار أفكار الشخصية على نطاق واسع أثناء حياته. إذ الغالب أن ينتشر فكر المفكرين بعد وفاتهم، لكن في حال شخصية الأستاذ فتح الله كولن نلاحظ أن قلمه سيال، مع قدرة كبيرة على إنتاج الأفكار، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

رابعاً: معيار "العالمية"، ويستمد مشروعيته من اقتناعات الأستاذ فتح الله كولن الفكرية التي ترى ضرورة احترام الإنسانية في كل مكان بغض النظر عن هويتها وثقافتها ودينها وجنسها، كما تستمد هذه "العالمية" أبعادها من روح الإسلام وقيمه التي غيرت وجه العالم في محطات تاريخية كثيرة. فعالمية فكر الأستاذ هي من عالمية الإسلام ومن القيم التي يمثلها. يبدو المثقف العربي في ظل هذه المعايير حريصاً على دخول العالم الفكري والحركي للأستاذ فتح الله كولن وتفكيك منهج اشتغاله وصولاً إلى مخطط تفسيري يفسر المشروع برمته ويفسر الخدمة.

هذه العوامل مجتمعة جعلت هذا المثقف مذهولاً مما يخترنه عالم الأستاذ؛ على أن أهم ما يستفزه هو أسباب نجاح المشروع في الوقت الذي فشلت فيه مشاريع أخرى، وخاصة الإسلام السياسي.

تنوع رؤى وتحليلات المثقفين العرب للخدمة، وتختلف حسب منطلقتهم الفكري والاقتناع الثقافي.. لكنهم يلحون جميعاً على الجوانب الحركية والمدنية والاجتماعية في الخدمة وفي فكر الأستاذ فتح الله، وعلى ذلك الاختيار الاستراتيجي الذي يفضل وقوف "الخدمة" بعيداً عن السياسة باعتبارها شيئاً ينحرف بالعمل الاصلاحى عن أهدافه السامية

المنتصبة عاليا فوق السياسة والأشخاص.

إن المصطلحات التي يوظفها المثقف العربي لوصف "الخدمة"، تلتقي جميعها عند أسباب النجاح؛ ف"الخدمة" عند بعضهم "تجربة"، وعند البعض الآخر "حركة مدنية اجتماعية"، ويراها آخرون "جماعة إسلامية" أو "طريقة صوفية"... لكن يبقى النجاح هو العنصر المهم في "صدمة الاكتشاف" هذه. بعبارة أخرى إن أهم ما يثير المثقف العربي في "الخدمة" هو نجاحها.

إن المثقف العربي مصدوم أمام موضوع مركب. فإذا اعتبرنا شخصية فتح الله كولن وما يمثله نصا فهو النص متعدد المستويات. الأمر الذي يفرض تساؤلات عديدة لتجلية مستويات هذا النص، وتحديد أنسب مناهج مقارنته. ويتفق الجميع تقريبا على أن تحليل عالم الأستاذ فتح الله كولن ومؤسسة "الخدمة" لن يتجاوز حدود المقاربة في البداية، لأن هذا النص المتعدد عسير على النظر السطحي، ولأن الأستاذ فتح الله كولن مفكر نشيط لا يتوقف عن صناعة الأفكار وعن الكتابة. إذن فما مستويات هذا النص، وما طبيعته، وما أنسب مناهج مقارنته..؟ هذه أهم الأسئلة التي يطرحها المثقف العربي. ويمكن تقسيم هذا النص المتعدد إلى:

القسم الأول ويتكون من النصوص التي كتبها الأستاذ وما يزال على مدى حياته الفكرية والحركية، وهي عبارة عن مقالات نشرها الأستاذ منذ ستينيات القرن الماضي، ثم جمعت في كتب يتجاوز عددها ٢٥ كتابا حتى الآن، إضافة إلى أكثر من ٥٠ كتاب تم تفرغها من محاضرات الأستاذ وعرضت على تصحيحه ثم طبعت بعد أن صححها ووافق على طباعتها. القسم الثاني وهو كثير جدا، تمثله مواعظه وخطبه المنبرية التي

ألقاها في المساجد السلطانية في مختلف المدن التي أقام فيها كـ"إزمير" و"إسطنبول".. ويتكون هذا القسم من دروس ألقاها على امتداد عقود على تلامذته في حلقات خاصة. وما تزال مستمرة إلى اليوم في مقامه في "بينسلفانيا" في الولايات المتحدة الأمريكية. وتتميز المرحلة الأمريكية في حياة الأستاذ فتح الله كولن بطابع خاص يسمح لنا بأن نطلق عليها "المرحلة الأمريكية"، وهي مرحلة تثير انتباه المثقف العربي على اعتبار أن الأستاذ فتح كولن يكاد يكون العالم والمفكر المسلم والمثقف الشرقي الوحيد الذي يخاطب العالم من الولايات المتحدة الأمريكية، القوة الأولى في العالم.

تجدر الإشارة إلى أن المترجم من كتب الأستاذ فتح الله كولن إلى العربية قليل بالنسبة لما أُلّف، فهي لا تلبّي سوى جزء يسير من أفق انتظار المثقف العربي كما توحى بذلك مقالاته.. لأن المترجم من فكر الأستاذ فتح الله كولن يجيب على جزء مهم من أسئلة المثقف العربي. ولذلك فإن ترجمة كل تراث الأستاذ سيفتح آفاقا أوسع.

وهناك مستوى الآخر لا يقل أهمية عن المستوى الأول ويتركز حول شخصية فتح الله كولن، لأن حياته المفعمة بالأحداث الكبرى تبرز معالم شخصية لها أثر كبير في فهم جوانب مهمة من الحياة المعاصرة في تركيا على الخصوص.. فالتتبع الكرونولوجي لتفاصيل حياته منذ الطفولة حتى صار أكثر شخصيات القرن العشرين تأثيرا، زيادة على الجانب العرفاني والمعنوي في شخصيته، عناصر مهمة جدا في تفسير عالم الأستاذ فتح الله كولن. وأغلب المقالات والدراسات -إن لم نقل كل- تنقل قليلا أو كثيرا عند هذا الجانب، ويمكن اعتبار "عودة الفرسان" للمرحوم الأستاذ

الدكتور فريد الأنصاري أهم تجسيد لهذه الرؤية وأهم تعبير عن نظرة المثقف العربي الذي تتغير العديد من اقتناعاته الفكرية بمجرد تعرّفه على فكر الأستاذ فتح الله كولن.

تعتبر "الخدمة" مكونا مركزيا بما تمثله من قيمة اجتماعية وحركية في مجالات كثيرة كالتربية والتعليم والعمل الاجتماعي المتمثل في كونها -أي "الخدمة"- معينا للأسرة التركية في العناية بالأبناء ومرافقة مسارهم التربوي والدراسي، بل إن هذا العامل هو المنطلق الأساس الذي نبتت عليه الخدمة في مراحلها الأولى قبل أن تنطلق. وأما المجالات الأخرى فتقدم المساندة المخلصة للمجتمع من خلال مؤسسات ثقافية إعلامية تجعل من القيم والأخلاق السامية المعيار الوحيد المحرك لها.

تقوم مؤسسات الحوار والتقريب بين الأفكار بدور كبير في امتصاص خلافات المجتمع وإعادة توجيهها في الاتجاه السليم الذي يعود بالنفع على المجتمع كله. ويبرز في هذا الإطار "وقف الصحفيين والكتاب" الذي تثير فلسفته المثقف العربي الذي يتوقف عنده محللا لفكرته ومشيدا بنتائجه.

خامساً: القراءة الانطباعية

المتأمل فيما كتبه المثقف العربي عن الأستاذ فتح الله كولن وعن الخدمة، يلمس ميله إلى القراءة الانطباعية، وهي تلك القراءة التي تأتي بعد "صدمة الاكتشاف"، في شكل مقالات صحفية وتعليقات شفوية موثقة.

فما حقيقة هذه القراءة الانطباعية، وما المتحكم فيها؟

تعتبر هذه القراءة في الغالب عن "صدمة الاكتشاف" في صورة

انطباعات أولية تطرح أسئلة وتخمن أجوبة سريعة، لكنها في الوقت نفسه تمنى الذات بإجابة أعمق، وبكتابات عارفة في المستقبل. والغالب عليها هو وصف مؤسسات "الخدمة"، ومختلف المنجزات المدنية التي تؤثت فضاء "الخدمة"، وخاصة المؤسسات التربوية والتعليمية، والمؤسسات الإعلامية. ولا تكاد مقالة من المقالات ولا نص من النصوص يخلو من وقوف على البعد الإصلاحي لفكر الأستاذ فتح الله كولن الذي يكشف عن الوجه الحقيقي للإسلام القائم على التسامح والحوار وإرادة مصلحة الإنسانية كلها، وتجسده "الخدمة" في شخصه قبل غيره.

ومن القضايا المثيرة لانتباه المثقف العربي قضية العالمية وانطلاق الخدمة إلى مناطق مختلفة من العالم وهجرة الأستاذ نفسه إلى أمريكا.. لأن هذه القضية تفتح على مشروع لا يقف عند حدود الوطن القطري كما هو حال أغلب مشاريع الإصلاح في العالم العربي التي حصرت نظرها في نطاق ضيق لا يتجاوز الوطن القومي. فمفهوم الوطن عند الأستاذ مفهوماً متقدماً يحتاج إلى دراسة وتحليل، ليس هذا مقامه.

العنوان بالنسبة للنص محطة مهمة، وله وظائف إستراتيجية كثيرة، منها تكثيف دلالة النص والإعلان عنه وتبئير أهم قضاياها. إن العنوان من مقترب آخر هو هوية النص وبطاقته التعريفية التي يطلع بها على المتلقي.. فالنص مهما كان طوله أو تركيبه لا يعرف بداية إلا من خلال جملة قصيرة هي عنوانه. فالعنوان يسهل الجانب التداولي في النص، فوظيفة التداول أهم الوظائف التي يقوم بها العنوان، كما يرى اللساني "ليو هوك" في كتابه "علامة العنوان"، والناقد "شارل كريفل" في كتابه "إنتاج الإثارة الروائية". ومن هنا فإن عنوان ما يكتبه المثقف العربي عن الأستاذ

وعن "الخدمة" تبرز فيه عناصر الإعجاب ويعبر عن "صدمة الاكتشاف". فعنوان في المقالة الانطباعية يستجيب لأغلب المعايير المذكورة سلفاً، إذ يحرص كاتب المقالة على تضمين عنوانه رسالة كاملة، تبيّر الأستاذ فتح الله كولن وشخصيته، أو تبيّر الخدمة ودورها في النهضة والانبعاث، أو تبيّر بعض مؤسسات الخدمة ودورها.

كان النقد الصحفي في فرنسا خلال ستينيات القرن الماضي لا يُعتبر معرفةً في نظر النقد الأكاديمي. لكن تيار النقد الصحفي الذي شق طريقة بقوة انتقد بشدة النقد الأكاديمي باعتباره نقداً متجاوزاً لا يطرح قضايا النص والإبداع بمقاييسه الفعلية التي يصل بها إليها إلى المتلقي. كان النقد الصحفي تعبيراً عن الآفاق الجديدة التي تحوّل إليها النص متجاوزاً معايير النقد الكلاسيكي والنقد الأكاديمي في ظل فلسفة الحداثة. فهل المقالة الصحفية المكتوبة بروح الانطباع مقالة تقف عند حدود الانطباع ولا تتجاوزه؟ وهل للمقالة امتداد معرفي؟

سادساً: خصوصيات المقالة الانطباعية

تتميز المقالة الانطباعية بالعديد من الخصوصيات نذكر منها:
 أ- التركيز على الوصف، وذلك أن المثقف العربي المصدوم بما عاينه واكتشفه يصف بدقة كل شيء، يصف دون أن يحلل وكأنه يريد إلغاء ذلك الاقتناع الدفين في داخله الذي يقول من المستحيل تحقق أي نوع من الإصلاح وتحقق نتائجه على الواقع. فالوصف محور لهذه الصورة الدفينة وإقناعٌ للذات بأن شروطاً قد تحققت فأتجت الموصوف.

ب- التركيز على الخصوصيات الحركية، مع بعض التفاوت من مثقف

وآخر. فما يراه هذا لا يثير انتباه الآخر، تبعا لأفكار كل مثقف على حسب اهتمامه وثقافته، فهذا يركز على العمل الاجتماعي الحركي، والآخر يركز على التربية والتعليم، بينما يركز آخر على الحوار، وآخر على صيت الخدمة في الخارج وفي الداخل، في حين يركز البعض على الإجماع الحاصل حول شخصية فتح الله في تركيا باعتباره مفكرا ومثقفا وعالما.

ت-غالبا ما تُكْتَبُ المقالة على مراحل، وسبب ذلك هو طول أغلب المقالات، وكون كتابها أصحاب أعمدة على الجرائد والمجلات، وغالبا ما يكون العمود محصورا في عدد الكلمات، ولذلك يضطر إلى تقسيم المقالة إلى حلقات.

ث-يغلب على بعض المقالات الطابع المذكراتي، أو نوعا من التوثيق للرحلة. الشيء الذي يسمح بإدراجها في باب "أدب الرحلة"، وهو جنس أدبي توثيقي أصيل في الثقافة الإسلامية، يقوم فيه صاحب الرحلة بتوثيق مشاهداته ولقاءاته. ولذلك فإن هذه المقالات تتيح لمن يريد دراسة نظرة الغير للخدمة، مادة مهمة للدراسة.

ج-التركيز على إسلامية التجربة. لا شك في أن الذين تعرفوا على الخدمة لم يكونوا كلهم من الاتجاه الإسلامي، إذ بينهم من يحسب على الاتجاه الليبرالي، واتجاهات فكرية مختلفة.. لكن الجميع يركز في كتاباته وتعليقاته على الطابع الإسلامي للتجربة، وعلى الجانب الوسطي المعتدل فيها.. ومنهم من استوقفه موقف الحركة من الإرهاب والعنف، وخاصة تنديد الأستاذ فتح الله كولن بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، مباشرة بعد وقوعها.

ح-بعض المقالات تشير -دون أن تعبر عن ذلك صراحة- إلى وجوب

الاهتمام العلمي والمعرفي بمؤسسة "الخدمة" وفكر الأستاذ فتح الله كولن.. فأغلب الذين كتبوا هذه المقالات يتفوقون على أن مقالاتهم مجرد رؤوس أقلام، ومجرد ملاحظات ممهدة لقراءة عارفة لمؤسسات الخدمة وللشخصية الفكرية التي أوحت بالخدمة.

خ- بعض المقالات تنظر للهموم المحلية من زاوية الخدمة، وفكر الأستاذ فتح الله كولن. لأن المثقف عندما يتعرف على الخدمة وعلى شخصية الأستاذ يستحضر واقعه العربي والمحلي. وعندما يكتب، يكتب من خلال مقارنة الفكر الإصلاحي عند الأستاذ فتح الله كولن بطرف ضمني مغيب هو الفكر الإصلاحي العربي؛ وعندما يصف الخدمة يستحضر ضمنيا العمل المدني وقضية تحويل الفكر إلى فعل في العالم العربي. ولا يهم هنا ماذا يكتب المثقف العربي، بل الذي يهم هو تخلصه من عقدة استحالة تحقق شيء يغير وجه الواقع.

د- الميل إلى المقارنة الأولية بين الواقع المحلي والعربي والواقع التركي، فبعض المقالات تقارن بين الواقع التركي بمستوياته المختلفة السياسية والفكرية والاجتماعية، مع استحضار الواقع العلماني الذي نجحت فيه التجربة.

ذ- تتضمن هذه المقارنات أسئلة ضمنية، بل يمكن القول بأن كل مقال هو مجموعة أسئلة ضمنية تطرح في ضوء التجربة الإصلاحية التركية وفي ضوء ما تساهم به الخدمة.. والسؤال الضمني دائما هو "لماذا نجحت الخدمة حيث تعثر الفكر الإصلاحي العربي؟ وكيف السبيل إلى الاستفادة من الخبرة التركية في تحقيق انبعاث العالم العربي؟".

ر- بعض المقالات يغلب عليها الرغبة في تحقيق المعرفة، لأن كتابها

باحثون في مجالات معرفية مختلفة، ويُعتبر فكر الأستاذ فتح الله كولن و"الخدمة" موضوعاً يسعف في تطبيق منهجية محددة، ولذلك فإن المسحة المعرفية تلمس بعض ملامحها في بعض المقالات، لكن بالتأكيد المقالة هي مجرد ممهد لقراءة أعمق.

ز- وعلى العموم فإن هذه المقالات رغم طابعها الانطباعي تفتح مجالاً للبحث، وهي كثيرة تلامس مجالات متعددة في فكر الأستاذ وفي "الخدمة".

سابعاً: فكر الأستاذ فتح الله كولن في البحث الأكاديمي

وأما بخصوص البحوث الأكاديمية، ذات الهدف المعرفي المحدد فهي قليلة، بالنظر إلى عدد المقالات المنشورة على أعمدة الجرائد والمجلات العربية، وعلى مواقع الانترنت. ويرد ذلك إلى قصر المدة التي تعرف فيها المثقف العربي على فكر الأستاذ فتح الله، وعلى "الخدمة"، وهي مدة لا تتجاوز عقداً من الزمن. ويمكن تصنيف هذه الكتابات الأكاديمية إلى:

١- كتب ودراسات علمية

١. مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي.. خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، مؤتمر، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م.
٢. البراديم كولن، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، على ضوء نموذج الرشد، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١١م.
٣. أبواب المستوى.. حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.

٤. ذي قربتي.. مقالات وخواطر وقصص من واقع الخدمة، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
٥. الزمن والوقت.. نصوص ومفاهيم مؤسسة على الرؤية الكونية لفكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
٦. الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٧. هندسة الحضارة.. تجليات العمران في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٨. عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، أ.د. فؤاد البنا، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٩. العروج الحضاري.. بين "مالك بن نبي" و"فتح الله كولن"، أ.د. فؤاد البنا، كتاب الأمة، قطر ٢٠١٣م.
١٠. الضاربون في الأرض، أديب إبراهيم الدباغ، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
١١. فتح الله كولن في شؤون وشجون، أديب إبراهيم الدباغ، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
١٢. نداء الروح.. رحلة في عالم الفرسان، د. مريم آيت أحمد، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
١٣. فتح الله كولن.. رائد النهضة في تركيا المعاصرة، أ.د. عبد الحليم عويس، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
١٤. آفاق اليقينيات العلمية، من تجليات رؤى فتح الله كولن الاستشرافية، د. عبد الإله بن مصباح، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.

١٥. محاورات حضارية، حوارات نصّية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني، أ.د. جيل كارول، دار النيل، القاهرة ٢٠١١م.
١٦. فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنه، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م.
١٧. فتح الله كولن.. قصة حياة ومسيرة فكر، أرطغرول حكمة، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
١٨. عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن.. رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب، أ.د. فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م. (٢٧٨)

٢- رسائل جامعية

هناك مجموعة من رسائل الماجستير والدكتوراه التي أنجزت والتي ما تزال قيد الإنجاز في جامعات مختلفة من العالم العربي. وهي تكشف بأن الاهتمام بفكر الأستاذ فتح الله كولن قد وصل إلى مستوى التعليم العالي وأصبح هما ملحا على البحث العلمي الجامعي.

وفيما يلي سرد لمجموعة من الرسائل العلمية التي أنجزت والتي ما تزال قيد الإنجاز في جامعات عربية مختلفة:

١. "محمد فتح الله كولن، ومنهجه في التجديد والإصلاح"، جمال

(٢٧٨) كتاب الأستاذ فريد الأنصاري "عودة الفرسان" الذي مزج بين السيرة الذاتية والسيرة الغيرية وأجناس أخرى، وخاصة جنس الرواية. تعتبر هذه السيرة كما يطلق كاتبها حقل تجريب بالنسبة للمؤلف. فحياة الأستاذ فتح الله كولن ونظرة الكاتب الخاصة إليه أسعفته في تجريب ما يريد تجريبه من أساليب الكتابة..

جمعة السفرتي، كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، رسالة دكتوراه، ٢٠١٣م، بيروت.

٢. "تربية الإنسان عند فتح الله كولن"، محمد أحمد عواد الزعبي، جامعة اليرموك، رسالة دكتوراه، ٢٠١٣م، الأردن.

٣. البراداييم كولن؛ باعتباره باردايما حضاريا بديلا، طه كوزي، جامعة أريس الأمريكية بالتنسيق مع معهد المناهج في الجزائر، رسالة دكتوراه، قيد الإنجاز، الجزائر.

٤. "أصول إدارة التنوع في المجتمع في العهدين النبوي والراشدي، دراسة مقارنة مع فكر الأستاذ محمد فتح الله كولن"، أمير عبد الكريم سُوبر، الجامعة القديس يوسف، رسالة دكتوراه، قيد الإنجاز، لبنان.

٥. "منهج الأستاذ فتح الله كولن في الإصلاح والتغيير الاجتماعي"، عبد الحميد داودي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، رسالة دكتوراه، قيد الإنجاز، المغرب.

٦. "الفكر التربوي عند الأستاذ فتح الله كولن، المدارس نموذجا (دراسة تحليلية)"، مولود بوزتاش، جامعة الزيتونة، رسالة دكتوراه، قيد الإنجاز، تونس.

٧. "محمد فتح الله كولن وجهوده في العقيدة والأخلاق"، أمل نعيمات، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، رسالة دكتوراه، قيد الإنجاز، الأردن.

٨. "الدور التربوي لمدارس الخدمة بتركيا"، جمال حوشبي، الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، رسالة دكتوراه، قيد الإنجاز، السعودية.

٩. "الفكر الإصلاحي عند الأستاذ فتح الله كولن"، إبراهيم أكتاش، جامعة محمد الخامس، رسالة دكتوراه، قيد الإنجاز، المغرب.

١٠. "حركة كولن التركية جهودها وأثرها في الدعوة إلى الله"، علاء علي محمود شكر، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، رسالة الدكتوراة، قيد الإنجاز، مصر.

١١. "الخطاب الإسلامي بين مقتضيات العصر ومشروع الحداثة والتواصل، نموذج تجربة فتح الله كولن"، هشام الراس، جامعة عبد المالك السعدي، رسالة ماجستير، ٢٠١٠م، المغرب.

١٢. "محمد فتح الله كولن وجهوده في الفكر الإسلامي المعاصر"، أحمد هزاع قايد العلواني، جامعة إب، رسالة ماجستير، ٢٠١٣م، اليمن.

١٣. "الفعالية في فكر الأستاذ فتح الله، خديجة فوديح، جامعة الخروبة للعلوم الإسلامية، رسالة ماجستير، ٢٠١٣م، الجزائر.

١٤. "فاعلية الإنسان" من خلال فكر: جودت سعيد وفتح الله كولن، سعاد دوفاني، جامعة الأمير عبد القادر، رسالة ماجستير، ٢٠١٣م، الجزائر.

١٥. "الفكر العقدي عند الأستاذ فتح الله كولن وأثره على الدراسات المغربية"، إبراهيم أكتاش، جامعة القرويين، رسالة ماجستير، ٢٠١١م، المغرب.

١٦. "التجديد في الفكر الديني المعاصر في تركيا، نموذج دعوة محمد فتح الله كولن"، أبو زيد عبد الرحيم عبد العاطي، جامعة الزقازيق، رسالة ماجستير، ٢٠١٠م، مصر.

١٧. "أسس منهجية لبناء شخصية إنسانية متوازنة عند فتح الله كولن"، إبراهيم الخمليش، جامعة عبد الملك السعدي، رسالة ماجستير، قيد الإنجاز، المغرب.

١٨. "ترجمة المصطلح والمفهوم في فكر الأستاذ "فتح الله"، جابر

ناصر بوحجام، جامعة أريس الأمريكية بالتنسيق مع معهد المناهج في الجزائر، رسالة ماجستير، قيد الإنجاز، الجزائر.

١٩. "الاستشراف الحضاري عند فتح الله كولن.. البعد الثقافي أنموذجاً"، أيوب ياشار، جامعة الزيتونة، رسالة ماجستير، قيد الإنجاز، تونس.

٣- مؤتمرات وندوات دولية

أما المؤتمرات والندوات التي عقدت حول فكر الأستاذ كولن فهي كثيرة، لاسيما في السنوات الأخيرة حيث شهدت هذه التظاهرات العلمية تنوعاً في الموضوعات والبلدان، وفيما يلي إشارة إلى بعض تلك المؤتمرات والندوات:

١. "دور القرآن الكريم في بناء الإنسان والعمران"، جامعة ابن طفيل، ١٢ ماي ٢٠١٣م، القنيطرة / المغرب.

٢. "الانبعاث الحضاري في فكر الأستاذ فتح الله كولن"، جامعة شعيب الدكالي، ٢٢ ماي ٢٠١٣م، الجديدة / المغرب.

٣. "ملامح التميز المنهجي في التعامل مع السيرة النبوية من شفا القاضي عياض إلى النور الخالد لمحمد فتح الله كولن"، جامعة القاضي العياض، ٢٠ ماي ٢٠١٣م، مراكش / المغرب.

٤. "الثقافة والفكر والإصلاح.. الجذور التاريخية والأسئلة الراهنة، الشيخ الطاهر بن عاشور والأستاذ فتح الله كولن نموذجاً"، مركز الفاضل بن عاشور للثقافة والفنون، ١٠ ماي ٢٠١٣م، تونس العاصمة / تونس.

٥. "المنهاج النبوي: من الإنسان القدوة إلى المجتمع المثالي"، ٧ فبراير ٢٠١٣م، سيدني وملبورن / أستراليا.

٦. "من الإنسان الغاية إلى المجتمع الراشد.. قراءات في الانبعاث الجديد من خلال السيرة النبوية"، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة سراييفو، ١٣-١٤ أبريل ٢٠١٣م، البوسنة والهرسك.
٧. "مساءلات في بناء ذاتنا الحضارية"، مركز التنوير المعرفي، ٨ يناير ٢٠١٣م، الخرطوم / السودان.
٨. "فلسفة البناء الحضاري عند مالك بن نبي وفتح الله كولن"، جامعة الجزائر، ١٨ نوفمبر ٢٠١٣م، الجزائر العاصمة / الجزائر.
٩. "القضية الكبرى لأمتنا.. من الإنسان الأفق إلى المجتمع المثالي"، مكتبة الإسكندرية، ١١ نوفمبر ٢٠١٣م، الإسكندرية / مصر.
١٠. "إنسان العقل والفعل في فكر فتح الله كولن"، جامعة الجزيرة، ٩ يناير ٢٠١٣م، ولاية مدني / السودان.
١١. قراءات في كتاب "ونحن نبني حضارتنا" للمفكر محمد فتح الله كولن، جامعة محمد الخامس، ١٩ يناير ٢٠١٢م، الرباط / المغرب.
١٢. "رؤي معاصرة للإصلاح الإسلامي ودورها في تعزيز السلام العالمي.. تجربة فتح الله كولن التركية نموذجا"، ١٦ يناير ٢٠١٠م، عمان / الأردن.
١٣. "النور الخالد: قيم كونية من مشكاة النبوة"، جامعة محمد الخامس، ٢٦ ديسمبر ٢٠١١م، الرباط / المغرب.
١٤. "قراءات في كتاب "ونحن نبني حضارتنا" للأستاذ فتح الله كولن، جامعة الجزائر، ٢٦ سبتمبر ٢٠١٢م، جزائر العاصمة / الجزائر.
١٥. "مشروع النهضة عند الأستاذ فتح الله كولن"، معهد المناهج، ٢٦ سبتمبر ٢٠١٢م، العاصمة الجزائر.
١٦. "مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي.. خبرات مقارنة مع

حركة فتح الله كولن التركية"، جامعة القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م، القاهرة / مصر.

لقد كان مؤتمر القاهرة^(٢٧٩) أول مؤتمر انعقد في العالم العربي، وقد أسس المؤتمر لواقع معرفي جديد يتجلى في طبيعة القضايا التي طرحت والموضوعات التي نوقشت، والأهم من كل ذلك هو الأسئلة التي جرى تناولها في البحوث والأوراق المقدمة للمؤتمر، ومن خلال التعليقات والمناقشات الذي حفل بها. ومن أهم الأسئلة التي طرحت في المؤتمر نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر:

- كيف نحقق الإصلاح وما أهم المداخل إلى ذلك؟
- ما مداخل التغيير المتنافسة في سبيل الإصلاح والنهضة في مجتمعات العالم الإسلامي المعاصر؟ وأين تقع حركة فتح الله كولن منها؟

كان المؤتمر مناسبة لإعادة طرح أسئلة الإصلاح قديمة وحديثة، والتي تبدو كثيرة الإلحاح في ظل الربيع العربي. ولذلك فإن التعرف على فكر الأستاذ وعلى الحركة التي دشنها يعتبر ضرورة. ومؤتمر القاهرة في حد ذاته يعتبر فرصة بالنسبة للمثقف ليعيد طرح أسئلة الإصلاح التي طرحت منذ ما يزيد عن مائتي سنة، على أن الأكثر إلحاحاً - كما سبقت الإشارة إليه - هو "ما السبيل إلى تحقيق الإصلاح؟" .. لكن سؤال اليوم يطرح في ضوء رؤية فكرية ناضجة هي رؤية الأستاذ فتح الله كولن، وفي ضوء حركة إصلاحية متزايدة الانتشار باعتبارها حركة تبتعد بنفسها عن الخوض في

^(٢٧٩) مؤتمر "مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي.. خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م.

المجال السياسي والأيدولوجي، وتعتبر العمل المجتمعي وتحصين الفرد بالتربية والتعليم ضد القيم الفاسدة التي تستهدف كيانه الروحي والمادي أهم مرتكز لديها.

تقول مقدمّة المؤتمر: "موضوع الإصلاح في العالم الإسلامي هو واحد من أهم الموضوعات التي تشغل النخب الإسلامية، بل هو أهم ما شغلها على الإطلاق منذ قرنين -على الأقل- وما زال يشغلها إلى اليوم. وفي نظرنا أن كل جهد فكري في مسائل الإصلاح يكتسب مشروعية علمية وعملية في الوقت نفسه، خاصة إن جاء هذا الجهد بمنهجية مقارنة بين خبرات متنوعة على امتداد العالم الإسلامي. فالمقارنة تتيح فرصة كبيرة لاكتشاف القواسم المشتركة، والدروس المستفادة من هذه التجربة أو تلك تكشف عن مواضع التشابه والاختلاف ودرجات النجاح والفشل وأسبابها في كل حالة".

ثامناً: أفق الانتظار المثقف العربي

وبناء على ما تقدم "ما أفق انتظار المثقف العربي في إطار العلاقة التي تكونت لديه مع فكر الأستاذ فتح الله كولن، هل استجاب فكره لأفق انتظار المثقف العربي؟".

أفق الانتظار مفهوم أساسي في نظرية التلقي الألمانية، وهي تحاول من خلاله الوقوف على مدى استجابة الرسالة لتطلعات المتلقي. فالمتلقي الذي يُعتبر عنصراً مساهماً في بناء النص في إطار نظرية التلقي، يختزن مجموعة من العناصر التي يمّني نفسه بالعثور عليها في الرسالة، فتشعره بالاطمئنان النفسي.

إن أفق انتظار المثقف العربي متعدد الطبقات؛ أولها الاقتراب من الخبرة التركية من خلال نموذج فكري معروف، ومن خلال منجز فكري في صورة مؤسسات مدنية ذات حضور قوي وفعال. ونكاد نلمس في أغلب المقالات والكتب والدراسات والمؤتمرات أن ما وقف عليه المثقف العربي يتجاوز أفق انتظاره، وهو ما أطلقنا عليها "صدمة الاكتشاف".

إن أفق الانتظار مرتبط شديد الارتباط، بالرؤية الإسلامية، لكنها رؤية متجددة تراعي عمق الدين وتأخذ بكل الأسباب المعاصرة، وفي مقدمتها المعرفة العلمية والعقل في ارتباطه بالروحي. ولعل العنصر الأبرز الذي يتجاوز أفق انتظار المثقف العربي - وهو يكتشف الخدمة والأستاذ فتح الله- هو ذلك التوفيق بين روح الإسلام و"الحداثة". ومرد ذلك هو أن المثقف العربي الإسلامي على الخصوص كان ينظر للحداثة نظرة سلبية، لأنها تفهم على أنها رؤية مادية تعتبر العلم سلطة مطلقة.

إن أفق انتظار المثقف العربي بعد صدمة الاكتشاف متصل بطرح أسئلة عميقة حول الخبرة التركية، وأين يبدأ مجال تأثير فكر الأستاذ والخدمة في هذه الخبرة، وكيف يتم التأثير، وما أدوات ذلك ومناهجه؟ ثم ما طبيعة هذا النموذج الذي يبدو وكأنه ينطلق من رؤية إسلامية، ولكن في الوقت نفسه يبدو مختلفا عن باقي الحركات والجماعات التي تنطلق من الرؤية نفسها وهي الإسلام؟ هل الأمر يتعلق بفهم خاص للإسلام؟ هل هي الخصوصية التركية من الناحية الجغرافية باعتبار قربها من أوروبا؟ وهل للعلمانية من دور في هذه الخبرة..؟

لكن الأسئلة الكبرى متصلة بحدود الاستفادة من هذه الخبرة في تحقيق النهضة في العالم العربي والإسلامي.. ومن هنا فإن المثقف

العربي يجد نفسه في ضوء المعطيات التي وجود بها فكر الاستاذ فتح الله والخدمة، مدفوعا بقوة إلى استحضر تراث الفكر الإصلاحى وإعادة قراءته في أفق سؤال كبير "لماذا لم يستطع الفكر الإصلاحى على مدى قرنين أن يحقق النهضة والانبعاث؟".

فالمثقف العربي عندما يقرأ مشروع فتح الله كولن يقرأه وعينه على تاريخ الفكر الإصلاحى العربي.

المثقف العربي قرأ من قبل جميع أفكار الإصلاح، وكوّن عنها أحكاما مختلفة، لكن القراءة في ضوء التجربة التركىة التى يشكل محرّكها الأساس مشروع الأستاذ كولن، ستفتح الباب من أجل إعادة القراءة وإعادة النظر فى الأحكام المقدمة سالفًا.

تاسعاً: مأسسة الفكر

تعتبر قضية مأسسة الفكر والتفكير قضية مهمة بالنسبة للمثقف العربى، إذ يثار عنده السؤال "كيف يتحول الفكر إلى مؤسسة ذات شخصية معنوية مستقلة عن باقى المؤسسات؟

فهذا المثقف الذى زار الخدمة وزار مؤسساتها يصدمه استقلالية مؤسسات الخدمة التى استطاعت بناء شخصيتها المعنوية بعيدا عن الأشخاص وخاصة شخص الأستاذ فتح الله كولن.. إذ لا توجد رابطة عضوية بين مختلف هذه المؤسسات من جهة، وبين هذه المؤسسات والأستاذ فتح الله كولن الذى يؤكد بأن لا علاقة هرمية ولا عضوية تربطه بمختلف مؤسسات الخدمة سوى أن الفاعلين فى هذه المؤسسات والمؤسسين لها آمنوا بمعقولية الفكرة فانطلقوا باقتناع يطبقونها.. وهنا

تبرز نقطة مهمة جدا وهي "معقولية الفكرة". لأن هذه المعقولية في حد ذاتها هي نوع من المأسسة للفكر، بمعنى أن الفكرة في ذاتها تصير مؤسسة قابلة للتنفيذ والتطبيق والتنزيل، لكن شريطة عدم قطعها عن الأصول التي أوجدتها، لأنها إذا قطعت عن جذورها ماتت ولم تؤتِ أكلها. ولا شك أن المثقف العربي عندما تثير انتباهه هذه المأسسة يستحضر الصور السلبية لمفهوم "الشيخ" في الوطن العربي الذي يؤسس علاقة مباشرة بكل شيء، بعبارة أخرى هناك دائما ارتباط عضوي بين المؤسسة على قلتها ورمزية الشيخ. هذا في الوقت الذي نجد فيه أن الأستاذ فتح الله كولن يؤكد على القيم الروحية التي تلغي الأنانية الذاتية، كإلغاء الـ"أنا الفردي" والـ"أنا الجماعي"، وإرجاع كل توفيق إلى الله تبارك وتعالى إذ يقول: "لا تقولوا أنا فعلت" ولا تقولوا "نحن فعلنا" بل قولوا "هو فعل"، أي رُدّوا كل توفيق إليه هو تعالى".

خاتمة القول

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى الدور الذي تقوم به مجلة "حراء" التركية، الناطقة باللغة العربية، باعتبارها أول مجلة تصدر من تركيا باللغة العربية بعد إلغاء الخلافة وقيام النظام العلماني. فهي اليوم تمثل جسرا ممدودا بين تركيا والعالم العربي، بل هي تمثل النافذة التي يطل الأستاذ فتح الله منها على العالم العربي، ويطل منها العرب على الخدمة.

فعلى صفحات هذه المجلة يلتقي عدد واسع من المثقفين العرب يحدوهم هدف واحد وهو همّ الإصلاح، وهمّ إعادة الثقة في مكونات الهوية الذاتية. إن المجلة وما تمثله خيط رابط يصل المثقف العربي

بالخدمة، من خلال مساعدته على لمس حقيقة الثروة التي تحتضنه،
ومساعدته على إيجاد السبيل لتنزيل فكره ورؤيته على الواقع.



كتب ودراسات حول فكر الأستاذ فتح الله كولن

١. مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي.. خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، مؤتمر، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م.
٢. البراديم كولن، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، على ضوء نموذج الرشد، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١١م.
٣. أرباب المستوى.. حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٤. ذي قربتي.. مقالات وخواطر وقصص من واقع الخدمة، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
٥. الزمن والوقت.. نصوص ومفاهيم مؤسسة على الرؤية الكونية لفكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
٦. الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٧. هندسة الحضارة.. تجليات العمران في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٨. عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، أ.د. فؤاد البتّا، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٩. العروج الحضاري.. بين "مالك بن نبي" و"فتح الله كولن"، أ.د. فؤاد البتّا، كتاب الأمة، قطر ٢٠١٣م.
١٠. الضاربون في الأرض، أديب إبراهيم الدبّاغ، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
١١. فتح الله كولن في شؤون وشجون، أديب إبراهيم الدبّاغ، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
١٢. نداء الروح.. رحلة في عالم الفرسان، د. مريم آيت أحمد، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
١٣. فتح الله كولن.. رائد النهضة في تركيا المعاصرة، أ.د. عبد الحليم عويس، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
١٤. آفاق اليقينيات العلمية، من تجليات رؤى فتح الله كولن الاستشرافية، د. عبد الإله بن مصباح، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
١٥. محاورات حضارية، حوارات نصّية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني، أ.د. جيل كارول، دار النيل، القاهرة ٢٠١١م.
١٦. فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرفاته الحضارية، محمد أنس أركنه، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م.
١٧. فتح الله كولن.. قصة حياة ومسيرة فكر، أرطغرول حكمة، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
١٨. عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن.. رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب، أ.د. فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م.

أشواق النهضة والانبعاث

قراءات في مشروع الأستاذ فتح الله كولن

إن فتح الله كولن قد مكّنته ثقافته العميقة والمتنوعة بالإضافة إلى شخصيته الحركية من أن يتفرد برؤية خاصة تمكنت من التغلغل في ثنايا المجتمع، واستطاعت أن تبني حركة مدنية جديرة بالاهتمام وجديرة بالدرس والتحليل. وهذه الحركة الحية ليست وليدة يوم وليلة بل هي وليدة عمر صرفه الأستاذ فتح الله في خدمة المجتمع وفي بناء الإنسان. ويعتبر «مشروع الخدمة» مجالاً يثير اهتمام علماء الاجتماع في العالم كله. ولا يكاد يمضي يوم دون أن يتم تنظيم ندوة أو مؤتمر أو تقدم محاضرة حول الأستاذ فتح الله في مختلف مناطق العالم. الأمر الذي يفسر الأهمية المعرفية التي يكتسبها موضوع «الخدمة»، وفكر الأستاذ فتح الله كولن.

ISBN: 978-975-315-640-0



9 789753 156400

www.daralnile.com

Fethullah Gülen ve Diriliş Mefkuresi

